موسوعة العلوم الإسلامية

الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية

خمس مؤامرات كبرى على الإسلام
من فجر الإسلام .. وحتى الآن

أنور الجندي

دار الاعتصام

دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ ـ فـاكـس : ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب : ٤٧٠ القاهرة ـ الرمز البريدى ١١٥١١



« إن الله قد ابتعثنا لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عـدل الإسلام .. ومـن ضيق الدنيـا إلى سعة الدنيا والآخـرة »

(ربعى بن عامر) وقد سأله رستم قائد الفرس: ما الذى جاء بكم؟

الأحـــداث الكبرى

٤٩١ هـ- ١٠٩٩م - استيلاء الصليبيين على بيت المقدس

٦٥٦ هـ- ١٢٥٨م - سقوط بغداد فى أيدى التتار.

٨٩٧ هـ- ١٤٩٢م - سقوط الأندلس (غرناطة) آخر معاقل المسلمين.

٨٩٧ هـ- ١٤٩٢م - الالتفاف حول عالم الإسلام (حروب أسبانيا والبرتغال).

١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م - سقوط الخلافة الإسلامية.

١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م - احتلال فلسطين من الصهيونية.

١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م - احتلال القدس.

* * *

المواقع العامة

٥٨٣هـ- ١١٨٧م /معركة حطين وانتصار صلاح الدين على الصليبيين.

٦٤٨هـ- ١٢٤٨م /تحالف عسكرى بين الصليبيين والمغول.

٦٥٨هـ- ١٢٦٠م /عين جالوت.

٦٩٠هـ- ١٢٩١م /تحرير عكا من بقايا الصليبيين.

٨٥٧ هـ- ١٤٥٣م /فتح القسطنطينية.



آفاق البحث

أولا : من جبهة بيزنطة إلى نهاية الحروب الصليبية.

ثانياً : الزحف المغولى التترى على أرض الإسلام.

ثالثاً : جهاد المماليك فى مواجهة خطر الصليبيين والتتار.

رابعاً : من الأندلس إلى قلب أوروبا.

خامساً : تطويق عالم الإسلام.

سادساً : من فتح القسطنطينية إلى سقوط الخلافة.

سابعاً : الآن انتهت الحروب الصليبية.

ثامناً : سقوط القدس فى أيدى الصهيونية.

تاسعاً : الضربة الجديدة التى توجه اليوم إلى الأمة الإسلامية .



مدخل إلى البحث

(١)

جاء الإسلام ليكون حداً فاصلاً فى التاريخ الإنسانى بين عصر الأديان، وعصر الدين العالمى الخاتم برسالة القرآن الكريم وقيادة محمد ﷺ .. حاملاً رسالة التوحيد الخالص ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور.

هذه حقيقة أساسية اعترف بها كثير من مؤرخى الغرب المنصفين وتجاهلها أولئك الذين ملأ ظهور الإسلام نفوسهم بالأحقاد والخصومة وأحسوا أنه إنما جاء ليقضى على الذين غيروا منطلقه الحقيقى منذ أرسل الله تبارك وتعالى الرسل بالدين الحق: الإسلام.

يقول القانونى المسيحى الكبير: «**فارس الخورى**»: «يقسم العلماء الغربيون التاريخ إلى ثلاثة أدوار: قديم، ومتوسط، وجديد، ويضعون سقوط الدولة الرومانية – المقدسة – حداً بين العصور المتوسطة والقديمة . ولا أقول إن سقوط الدلة الرومانية لا يصح اتخاذه حداً فاصلاً بين التاريخ القديم والمتوسط، فقد كان أثر سقوطها عظيما، وإنما هنالك حادثة أعظم ، كان جديراً بعلماء التاريخ اتخاذها حداً فاصلا لفترتى التاريخ العالمى وأعنى بذلك ظهور الإسلام».

وتلك هى الحقيقة التى يجب أن تصدَّر بها كتب التاريخ المعاصرة فى بلاد المسلمين حتى يتأكد أبناؤنا والأجيال المقبلة أن أمتهم وقومهم كان لهم دور عظيم فى بناء الحضارة الإنسانية، وأن هذا الدور لم يكن له إلا مصدر واحد: هو نزول رسالة الإسلام فى بيئتهم.

ولكن الغرب على مختلف أديانه ومذاهبه وفلسفاته، سواء اليونانية والرومانية أو اليهودية والمسيحية قد تشكل منذ ذلك الوقت فى تحالف مقدس جعل وجهته تدمير هذه الأمة الإسلامية وتحطيم وجود هذا المجتمع الجديد، وزاد من هذا التحالف ذلك التوسع السريع الخاطف الذى مكن للإسلام أن يقيم هذه الإمبراطورية الضخمة من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار فى أقل من ثمانين عاماً بينما لم تستطع الإمبراطورية الرومانية أن تفعل مثل هذا فى أقل قليلاًمن ألف عام.

ومن ثم قامت اليهودية والنصرانية– فى حالة فزع شديد– تعملان للتخلص من هذا الوجود الإسلامى فاتخذت كل منهما وسيلة لمهاجمة الأمة الإسلامية، والتمست لذلك كل ما تملكه أوربا من إمكانيات، وامتدت المعركة سجالا عن طريق بيزنطة لا تتوقف، فلما

ضعفت لجأت أوروبا المسيحية إلى أسلوب أشد عنفاً، فتدافعت تحت اسم الصليبية لاقتحام أرض المسلمين بدعوى استخلاص بيت المقدس، واستمرت هذه الحملات قرنين كاملين، فلما انتهت بالهزيمة الساحقة لم تتوقف أوروبا المسيحية، وأخذت تعد العدة لمعركة على الجانب الآخر. فأخرجت المسلمين من الفردوس المفقود (الأندلس)، واندفعت تغير على الجزائر وتونس، وتنطلق فى غرب أفريقيا بموجة عاصفة تكتسح كل شيء.. كانت أسبانيا والبرتغال فى البداية ثم تلتها فرنسا وبريطانيا.

ولم تتوقف القوى الغربية المسيحية عن محاصرة عالم الإسلام حيث حاصرت هولندا وبريطانيا بلاد الملايو والهند فى محاولة لحصر الإسلام فى دائرة ضيقة تمهيداً لخنقه والقضاء عليه.

وحالت القوى الغربية المسيحية بين المسلمين وبين اقتحام القسطنطينية أكثر من ثمانية قرون، كما عملت هذه القوى على إخراج المسلمين من الأندلس بعد ثمانية قرون من مقامهم فيها.

وعندما قامت الدولة العثمانية، واقتحمت أوروبا، وأقامت مع العرب مظلة واقية لحماية الكيان الإسلامى امتدت أربعة قرون ظل خلالها الغرب يتآمر ويخطط ويسابق المسلمين حتى سبقهم فى عالم الأساطيل وصناعة الحرب حتى عاد مرة أخرى مسيطراً، ووقف اللورد اللنبى فى القدس ١٩١٧ وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

هذه الحروب الصليبية التى انتهت بهزيمة أوروبا المسيحية ١٢٩١م حينما حرر الأشرف آخر معاقل الصليبيين فى عكا.. أى أنه بعد ستة قرون مازال الحقد قائماً حتى حقق غايته وانتزع هذه الأرض مرة أخرى من أيدى المسلمين.

لقد وقفت أوروبا المسيحية فى وجه الإسلام خلال أربعة عشر قرناً فى محاولات متصلة لتحول بينه وبين التوسع والامتداد، وفعلت من أجل ذلك الكثير، ولما لم تجد أن الحرب مجدية فى إيقاف نمو الإسلام– وبعد أن حالفت التتار وغيرهم من العناصر– لجأت إلى حرب الكلمة، فأخذت تهاجم عقيدة المسلمين وكتابهم ولغتهم فى خطة طويلة المدى وفى محاولة استقطاب بعض العناصر غير الإسلامية من أبناء الأوطان العربية وغيرها.

وبالرغم من أن المسلمين اعتصموا بالتسامح وحق الجوار كما أمرهم دينهم، فإن الغرب لم يعرف إلا الخديعة والمؤامرة.

ولا تزال المعركة بين الإسلام والغرب (بعناصرها السياسية والدينية) مستمرة لم تتوقف منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير على النحو الذى وصفها به جمال الدين الأفغانى، والذى صوره كثير من كُتَّاب الغرب الذين أشاروا إلى أنهم أُرْضِعُوا كراهية الإسلام مع لبن أمهاتهم.

* * *

(٢)

لقد بزغ الإسلام فى الجزيرة العربية والدولة الرومانية مسيطرة، قد اتسع نطاق ملكها وامتد حتى سيطر على ساحل البحر المتوسط من بيزنطة إلى سوريا ومن مصر وأفريقيا إلى أسبانيا، وهو سلطان امتد ألف عام تقريباً من خلال حضارتين هما: اليونانية، والرومانية، وفى صراع لم يتوقف مع فارس، وسقطت روما بعد بزوغ فجر المسيحية التى عبرت إلى أوروبا، واستطاعت أن تسيطر وتمتد قبل الإسلام بثلاثة قرون.

جاء الإسلام والدولة الرومانية الشرقية فى أوج مجدها، ولم يلبث رسول الله ﷺ أن أرسل رسائله إلى ملوك الأرض وفى مقدمتهم إمبراطور الروم ليعلن للعالم أجمع بأن عصراً جديداً قد استعلن فجره، ولم يلبث المسلمون إلا قليلاً حتى جاوزوا حدود جزيرتهم فى معركة مؤتة على حدود الدولة الرومانية[١].

وكان ذلك علامة على وجهة الإسلام من بعد وسرعان ما زحفت قوى الإسلام نحو محورين فى وقت واحد: محور فارس ومحور الروم وهو ما لم يحدث من قبل فى تاريخ الحروب، وسرعان ما انهارت القوتان أمام إيمان المسلمين، واكتسح الإسلام فى زحفه شرقاً وغرباً ولم يتوقف حتى وصل إلى حدود الصين ودخل أوروبا من أرض الأندلس إلى نهر اللوار، ثم توقفت الجولة الأولى فى خلال ثمانين عاماً على نحو أزعج أوروبا والغرب والمسيحية بينما حرر شعوب هذه البلاد التى كانت ترزح تحت نير الدولة البيزنطية وظلمها.

كانت دهشة الغرب بالغة- إذ إن إمبراطوريتهم لم تتكون إلا فى خلال ألف عام - ولكنهم نسوا أن المسلمين كانوا يحملون معهم قوة معنوية لا سبيل إلى الوصول إليها إلا عن طريق هذا الدين القيم.. تلك هى الإيمان بالموت فى سبيل الفكرة، وتقديم الروح خالصة رخيصة فى سبيل الحق.. ذلك هو فريضة الجهاد الماضية إلى يوم القيامة.

هذا هو السر الذى أزعج مؤرخى الغرب وقاموا إلى البحث عنه، والذى حاولوا بكل وسائل التضليل والكذب والخداع أن يفسروه تفسيراً مادياً ولو بحثوا لعرفوا قيمة ما قاله أحد جنود المسلمين:

« جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلى سعة

-(١) قال هرقل قيصر الروم عندما جاءه خطاب النبى محمد ﷺ وبعد أن لقى أبا سفيان وسأل واستفسر عن الدعوة الإسلامية قال (ليتمكنَنَّ هذا النبى من موضع قدمى هاتين) وقد تلقى هرقل فى السنة التاسعة من غزوة تبوك وكانت الروم تتهيأ للانقضاض على المسلمين - كتاباً آخر يخيره بين الإسلام أو السيف.

الدنيا والآخرة ».

ولقد تأكد بُطْلانُ مقولة: إن الشام ومصر والمغرب كانت جزءاً من العالم المسيحي وجاء الإسلام فأخرجها منه.. ذلك أن الوجود الروماني في هذه المناطق كان وجوداً دخيلاً وكان احتلالاً ثم انحسر مع ترحيب أهل هذه المناطق بالوافد الذي لم يشأ أن يفرض على الناس دينه وعقيدته، ولقد عادت هذه المناطق إلى أصلها بعد جلاء الرومان عنها، فقد كانت هذه المناطق تزخر بموجات عربية كاسحة استمرت أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الإسلام، وتوالت على هذه المناطق، ومهدت للإسلام وللعروبة، وكان المسلمون الفاتحون يجدون بين المقيمين ذوي قربى ونسب.

* * *

(٣)

لقد كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية في موقع فريد بعيداً عن صراع الإمبراطوريتين الفارسية الوثنية والرومانية المسيحية- ذا دلالة عميقة على اختيار الله تبارك وتعالى العرب لحمل هذه الرسالة الخاتمة التي جاءت للعالمين جميعاً، وعلى أنها جاءت على حين فترة من الرسالات السماوية لتصحيح الوجهة إلى التوحيد الخالص، والكشف عن التحريف الذي وقع فيه بعض رؤساء الأديان حين حولوا أديانهم عن الخط المرسوم للإسلام بوصفه الرسالة الأولى والأخيرة بدءاً من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ فهي كلها يسلم بعضها لبعض حتى تنتهي إلى ما جاء به النبي العربي الخاتم، وما قدمه القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية والمهيمن عليها، هذا الموقع الفريد في قلب الجزيرة العربية التي أعلنت إيمانها برسالة التوحيد الخالص في حياة الرسول الكريم ﷺ، كان منطلقاً إلى تكوين هذه الدولة التي امتدت إلى فارس والشام ومصر وأفريقيا ثم امتدت إلى الهند وما وراء النهر ثم إلى طليطلة وبلنسية وقرطبة.

هذا الموقع الذي تميز بالثروة والعطاء والمناخ المعتدل والبواغيز والخلجان التي تربط العالم كله جعلها قلب هذا العالم ودرة هذا الكوكب.

وقد شاء فضل الله تبارك وتعالى أن تعانق هذه الثروة أرض الحرم، مكة المكرمة وما حولها حتى تتنافس الدول الغربية من أجل السيطرة عليها، وفي مصر جعل الله تبارك وتعالى أهلها من خير أجناد الأرض فهم في رباط إلى يوم القيامة.

ولما كان موقع الجزيرة العربية بين قارات العالم القديم (آسيا، وأفريقيا، وأوروبا) جعلها

همزة وصل بين الأمم وواسطة العقد بين الحضارات الأولى وملتقى طرق التجارة القديمة فيها من بحرية وبرية حيث كانت الكعبة المشرفة موضع تقدير جميع العرب لها، ثم أصبحت من بعد الإسلام قبلة أنظار المسلمين وأسماعهم فى صلاتهم وفى حجهم، ولا تزال كذلك إلى يوم الدين.

ولقد كانت تعاليم الإسلام نفسها وترابطها مع شخصية الرسول ﷺ الذى حملها ولقنها، عاملاً هاماً فى ثباتها وامتدادها، بعد أن ألغيت عصبية القبيلة وأقيمت عصبية العقيدة بعدها.

وعلى حد تعبير الدكتور إبراهيم العدوى فقد تمت تنظيمات الرسول ﷺ أثناء نشر الدعوة على مرحلتين هامتين مترابطتين:

الأولى: استهدف فيها الرسول ﷺ تعاليم الإسلام بما ينظم حياة الفرد فى مكة للتخلص من قيود العصبية القبلية.

الثانية: عمل فيها الرسول الكريم ﷺ بعد هجرته إلى المدينة على تنظيم جماعة المؤمنين فيها لإعلاء شأن المجتمع الإسلامى الوليد، وإعداد أبنائه لحمل رسالة الإسلام إلى سائر أرجاء الأرض.

وقد أرسى الرسول الكريم ﷺ فى مكة القواعد الأساسية (وفق ما جاء فى القرآن الكريم):

١- الدعوة إلى وحدانية الله تبارك وتعالى.

٢- تعزيز فكرة البعث والحساب بعد الموت.

٣- اتخاذ (التقوى) بدلاً من العصبية القبلية أساساً لبناء قيم أخلاقية سامية تتعدى مجالات القبيلة وتتسع لتشمل العرب وجميع الأمم المجاورة لهم.

٤- التأكيد على وحدة الرسالات السماوية.

* * *

ومن هنا فإن الإسلام هو الذى نقل العرب من طور القبيلة إلى طور الأمة، ولم يكتف بذلك، بل جعل هذه الأمة الجديدة قائدة للبشرية كلها ترسم لها منهجها وتصوغ لها مفاهيم حياتها، فالإسلام هو الذى منح العرب وجودهم القومى والسياسى والدولى، وقبل ذلك- وأهم من ذلك - منحهم وجودهم الإنسانى بعد أن كانوا هملاً فى التاريخ لا ذكر

لهم ولا أثر، وصدق الدكتور عبد القادر طاش الذى أورد هذا النص حين قال: إن الإسلام هو الذى صنع وجود العرب، وجعلهم أمة ذات مكانة وسيادة وذات رسالة وحضارة، ولم يكن مجرد عنصر من عناصر الوجود العربى، ولم يكن نتاج العبقرية العربية- كما يقولون- بل هو صانع تلك العبقرية وموجدها، ولا يمكن اعتبار الإسلام مجرد دين فردى .. كما هو الحال فى بعض النظم الدينية والطقوس الكهنوتية التى شاعت فى بعض بلاد العرب، فالإسلام يختلف عن غيره، فهو دين اتسع لكل جوانب الحياة فى هذه البلاد واحتواها، فليس ديناً فحسب ولا شيئاً من الماضى الذى اندثر.

* * *

(٤)

وعلى هذا المنهج الربانى الأصيل الذى رسمه القرآن، وربى عليه محمد ﷺ أتباعه خلال ثلاثة عشر عاماً فى بيت الأرقم فى مكة المكرمة فى مرحلة من أقسى مراحل الاضطهاد والامتحان.. رباهم على الصمود والإيمان وبيع النفس خالصة لله تبارك وتعالى حتى إذا انطلقوا بعد الهجرة إلى بناء المجتمع الإسلامى كان ذلك هو الرصيد الضخم الذى أنفقوا منه خلال توجههم فى الشام إلى حدود بيزنطة، وفى العراق إلى فارس ثم إلى مصر وأفريقيا وعبوراً إلى الأندلس حيث كان العمل كله يجرى على قاعدة أصيلة هى الإيمان اليقين بنصر الله بالعدد الأقل والثبات فى وجه الخطر وحسن معاملة أهل البلاد المفتوحة والتسامح مع الخصوم.

يقول الأب منشون فى كتاب (رحلة دينية إلى المشرق) : إنه لمن المحزن لأمم المسيحية أن يتعلموا التسامح من المسلمين.. لما غزا العرب الشام أوصى الخليفة الصديق بالنصارى خيراً فى خطبته المشهورة.

ولما دخل عمر القدس لم يسمح بإلحاق أى أذى بالمسيحيين وترك كنائسهم فى أيديهم وأحسن معاملة بطريركهم وأبى أن يصلى داخل الكنيسة حتى لا يأتى المسلمون بعده فيدعوها لهم ويجعلوها مسجداً.

وصدق روبرتسون حيث قال: إن أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التى جمعت بين التمسك بالدين والتسامح فيه.. أى أنها مع تمسكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله.

وقد اعترف بهذا التسامح السامى (درابر الأمريكى) فى كتابه - الخلاف بين العلم

والدين– بقوله: كان النبى ﷺ يوصى بهم خيراً ،كذلك الخليفة عمر، وكانت لهم عهود بحسن معاملتهم وفى عهد العباسيين وضع هارون الرشيد دور العلم العامة تحت إشراف يوحنا بن ما سويه وكان النساطرة المسيحيون يتقلدون مناصب عالية فى المملكة الإسلامية فى مختلف أدوارها وكانوا أحراراً فى حضارتهم.

ويقول (هـ.ج.ولز) فى كتابه تجربة فى تاريخ العالم (فهؤلاء النساطرة كانوا فى العهد الغربى الساسانى أحراراً فى ثقافتهم وجاء الإسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية).

ولقد حفظت سجلات البردى العربية هذه الحقيقة، فقد عثر أخيراً على مجموعة من وثائق بالغة الأهمية فى فتح المسلمين لمصر أشار إليها (كاراباتشك) فى مقدمة دليل البردى المصرى– كما أوردت ذلك الدكتورة بنت الشاطئ– وذكرت ما عانت مصر منه تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد، وكيف شل الفقر الطبقة الشعبية وكيف خلق الضغط الضريبى أزمات عنيفة.

وقد كشفت هذه الوثائق أن العرب الفاتحين لم يكونوا مجرد غزاة ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبى الجمال، وإنما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص، ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق البردى عام ٦٤٢م آخر المحرم سنة ٢٤هـ.

وتشهد نصوص أخرى فى عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريق النابعة من حضارة عريقة.

وفى كتاب الأسقف يوحنا المعاصر للتاريخ اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً من أملاك الكنيسة.

* * *

(٥)

والمعروف أن المسلمين العرب حرروا مصر والشام وشمال أفريقيا من نفوذ الدولة الرومانية الذى امتد ألف عام منذ غزو الإسكندر الأكبر عام ٣٥٣ ق.م وقد اشترك العرب فى الشام ومصر وشمال أفريقيا فى الترحيب بالمسلمين وصد الروم البيزنطيين ،لأنهم رأوا فى الإسلام محرراً لهم من النفوذ الاستعمارى الرومانى، كما فتح قبط مصر أبوابهم لعمرو بن العاص

الذى دعا البطريرك المسيحى المختفى إلى استئناف عمله فى كنيسته فى أمان تام.

ومن بين الذين كتبوا فى ذلك المؤرخ بريستد حيث يقول:

«إن المصريين قابلوا الفتح الإسلامى بالفرح الذى جلب إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك الفتح بقرن من الزمان فقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية وكفل لهم حرية إقامة شعائرهم».

«إن دخول الإسلام إلى مصر كان سفينة الخلاص للمسيحيين المصريين الذين عانوا على يد الرومان، فقد قرر الإسلام من المبادىء والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم واحترام عقائدهم والحفاظ على أموالهم وحماية أعراضهم وأرواحهم، واعتبر أن أى عدوان على مسيحى أو يهودى عدواناً على الإسلام وانتهاكاً لحرمة القرآن».

«كما تعهد المسلمون بحماية مصر من أى غزو وتوفير الأمن والطمأنينة لكل مواطن، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع بعد ذلك الظلم الذى كان يعانيه شعب مصر قبل الفتح الإسلامى على يد جماعة البيزنطيين وقد كان الأقباط فى هذه المعاهدة هم الطرف الرابح».

«ذلك أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح وقد أعفى منها النساء والرهبان والأطفال وكبار السن فهى ضريبة دفاعية ولم تكن سبباً دافعاً إلى الإسلام لأن الرجل إذا أسلم يدفع أضعاف هذه الجزية زكاة مفروضة على كل أنواع ثروته وماله».

وقد انبهر الناس بهذه العقيدة الجديدة فاعتنقوا الإسلام جميعاً عدا قلة قليلة بقيت على دينها القديم». أ.هـ.

وهكذا نرى كيف أنقذ الإسلام المصريين من اضطهاد الرومان رغم وحدة الدين بحجة اختلاف المذاهب، فأصبح القبط مواطنين لهم كل الحقوق المشروعة فى المجتمع الإسلامى الجديد، وفى عهد عمرو بن العاص الفاتح والحاكم الأول تنفس أقباط مصر الصعداء وعكفوا على ترميم ما ضعف من أمور عقيدتهم وكنائسهم وإزالة الأسماء اللاتينية والإغريقية من قراهم ونواحيهم ليحلوا بدلاً منها أسماء قبطية صرفة».

* * *

(٦)

ولم يتوقف ذلك عند مصر وحدها، فقد حرر الإسلام من ظلم من ظلم الرومان

سوريا وأفريقيا، فإذا كان فى مصر قد أعطى الحاكم المسلم قبط مصر حرية العقيدة، وأعطاهم أماناً لكنائسهم وعبادتهم، ففى سوريا أزال عنهم كابوس الحكم الرومانى، وفى أفريقيا حرر الفتح الإسلامى البربر وسكان أفريقيا من الرومان، ولما فتحوا الأندلس فتحوا جامعاتهم لكل الناس من مختلف العناصر والأديان، ولم يحجبوا عنهم العلم، ولما انتصر القشتاليون فى معركة بواتيه على المسلمين كان ذلك انتصاراً للجهل على العلم وتأخر مسير الحضارة ثمانية قرون.

* * *

(٧)

ذلك أن الحضارة الإسلامية حملت لواء المعرفة الإنسانية فى كل منحى من مناحى الحياة العلمية والفكرية (النظرية والتطبيقية)، ولما كانت المعرفة بأيدى المسلمين كانت تنطلق من المنظور الإسلامى الصحيح المبنى على الإيمان بالله تبارك وتعالى، وبوحدانية هذا الخالق العظيم، وبقدراته على إبداع هذا الخلق، وعلى رعايته لهذه الدنيا، فكانت تنطلق من تصورات صحيحة وعن قواعد فكرية صحيحة، فهى تنطلق من إيمانها بوحدة الجنس البشرى: «كلكم لآدم وآدم من تراب» كما علمنا رسول الله ﷺ، فلم تر عيباً ولا حرجاً فى أن تأخذ من الحضارات المجاورة لقول رسول الله ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» فأخذت الحضارة الإسلامية من الحضارات.

وقد ظلت المعرفة بأيد إسلامية أطول فترة عرفتها البشرية على الإطلاق، فقد ظلت أحد عشر قرناً كاملاً، بينما لم تعمر الحضارة الرومانية إلا أقل من خمسمائة سنة، والإغريقية أقل من ألف سنة.

وقد حملت لواء المعرفة فى كل مناحى الحياة (على حد تعبير الدكتور زغلول النجار)، فأينما نقلب الأمور نجد أن عطاء الإسلام كان عطاء جزيلاً ضخماً، وكان هذا هو سر الاقتحام الشديد الذى اقتحم به هذا الكوكب، واستطاع فى أقل من قرن أن يبسط نفوذه على هذه المناطق خلال فترة العصور المظلمة فى أوروبا.

* * *

(٨)

فإذا ذهبت تقارن بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية الرومانية وجدت عجباً، يقول: ليوبولد فايس (محمد أسد): سلخت الإمبراطورية الرومانية ألف عام من الزمان حتى نمت واتسعت وبلغت نضجها السياسى فى حين أن الدولة الإسلامية تكونت فى ثمانين عاماً،

كذلك فقد تم سقوط الإمبراطورية الرومانية وانهيارها بصورة تامة على يد الهون والقوط خلال قرن واحد ولم يبق منها سوى بضعة معالم من الأدب والبناء.

أما الدولة الإسلامية فقد استشرى فيها الانحلال البطيء الذى استغرق أكثر من ألف عام، ولم يتم الانهيار السياسى نهائياً - متمثلاً فى إلغاء الخلافة العثمانية والتفكك الذى نشهده اليوم فى البناء الاجتماعى الإسلامى - إلا بعد سلسلة طويلة من المؤامرات الدولية.

إن التماسك الاجتماعى فى العالم الإسلامى أرقى من أى شيء عرفه الناس عن طريق التنظيم الاجتماعى، ويرجع ذلك دون ريب إلى تعاليم القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإلى سنة النبى الكريم عليه الصلاة والسلام.

إن الفكرة التى قامت عليها الإمبراطورية الرومانية هى استغلال الشعوب المغلوبة لمصلحة روما والترفيه عن الأباطرة، حيث لم ير الرومان فى بطشهم بالناس سوءاً، ولم يكن العدل الرومانى الذى يتغنون به إلا إنصاف الرومان وحدهم.

أما فى حالة الدولة الإسلامية فقد كان الهدف ضمان حرية الاختيار فى ظل المبدأ الإسلامى: ﴿لا إكراه فى الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولم يكن هناك استغلال شعب من أجل الترفيه عن شعب آخر وإنما كان الشعار السائد: «لكم ما لنا، وعليكم ما علينا».

والتاريخ الصادق شاهد على أمثلة عديدة لتأديب أمير المؤمنين للولاة الذين تحوم حولهم شبهة الكسب غير المشروع أو إيذاء غير المسلمين، وكان المسلمون يتذكرون جيداً قول نبيهم عليه الصلاة والسلام: «من آذى ذميًا فأنا خصمه يوم القيامة».

* * *

(٩)

انطلق الإسلام بهذه القيم كلها فاتضح أمامه الطريق بعد أن عاقته مظالم الإمبراطوريات الفارسية والرومانية والفرعونية جميعاً، انطلق إلى غايته التى أعده لها صاحب الدعوة: الحق تبارك وتعالى، ويصور هذا أحسن تصوير الدكتور حسين مؤنس فيقول:

«ظهر الإسلام والعالم يومئذ شعوب وقبائل متراصة بعضها إلى جوار بعض.. بدأ الإسلام بالعربى، فحط من غروره وهبط به إلى مستوى عباد الله الذين يمشون على الأرض هوناً، وأفهمه أنه لا يمتاز على غيره إلا بالإيمان والأخلاق والعلم، فاندفع فى فتوحه الكبرى فهدم

حائط الساسانيين الهائل فى سلسلة من الوقائع الضارية من كاظمة إلى نهاوند، وهى فتح الفتوح، وذهب أمر بنى ساسان ومرازبهم، وزال الحاجز بين الإيرانى وعالم البشر، ودخل الإيرانى فى الإسلام، والتقى مع العربى فى بساط الولاء والعهد والمودة والإسلام، ثم جاء قتيبة بن مسلم الباهلى العظيم وهدم الحائط الذى كان يحول بين الأتراك والإيرانيين وزلزل كبرياء زنبل فانسلخ العرب والإيرانيون والأترك وجمعهم الإسلام فى أسرته الواسعة، ثم نهض العرب والإيرانيون والأتراك وأزالوا الحواجز التى كانت أمم المغول تتستر من ورائها، وأدخلوهم فى الإسلام، واجتمع الأربعة بعد ذلك فهدموا سور الجنس والاستعلاء الذى كان أهل الصين قد أداروه على أنفسهم، ودخل قتيبة ورجاله مدينة كاشغر، وضربوا خيامهم على ضفاف نهر تاريم وسط سلاسل من الجبال كأنها الرواسى الشاهقات، وتهدمت الأسوار التى كان يعيش وراءها أهل الشام والعراق ومصر، وهبت عليهم مع الإسلام نسمات العدل والإخاء فأخذوا ينتسبون إلى أمة العروبة والإسلام، ثم سار العرب فى بأس شديد ودخلوا فى معارك طاحنة مع البربر دامت سبعين سنة وصل فيها العرب إلى ساحل المحيط الأطلسى وأدخلوا أمم البربر جميعاً فى أسرة العروبة والإسلام واجتمع العرب والبربر وعبروا إلى الأندلس فأدخلوا شعبها الأيبيرى الأوربى فى أسرتهم وأصبح مضيق جبل طارق مجرد ممر مائى داخل عالم الإسلام الشاسع بعد أن كان حاجزاً بين قارتين وعالمين، وفعل المسلمون ذلك بجبال ألبرت وهى (البرانس) الحاجزة بين أسبانيا وفرنسا وأصبحت هذه أيضاً مجرد مرتفعات داخل دار الإسلام».

وهكذا أتم الإسلام مرحلة كبرى من رسالته وهى إزالة الحواجز بين البشر وتحقيق التعارف بين الشعوب والقبائل الذى بشر به القرآن، واجتمعت هذه الشعوب كلها على إقامة صرح حضارى إسلامى واحد تعاونوا على بنائه وإعلائه.

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم... ﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

(١٠)
من مكة المكرمة بدأت الجولة:

فى مكة المكرمة – صرة الأرض وقلب العالم – نزلت رسالة التوحيد الخاتمة على محمد ابن عبد الله ﷺ فى غار حراء، وفى خلال ثلاثة عشر عاماً فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم أعدت الكتائب التى هاجرت إلى يثرب فأنشأت الدولة الإسلامية الأولى ومنها بدأت

الفتوحات (بدر – أحد – الخندق) التى كانت تمهد لفتح مكة بعد صلح الحديبية وعمرة القضاء.

وفى العام السادس وجه رسول الله ﷺ رسائله إلى الملوك وكانت رسالة النبى ﷺ إلى هرقل عظيم الروم.

ولم يلبث أن أنزلت آيات محكمات: ﴿ **الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . .** ﴾ [الروم: ١–٤]. كان ذلك إشارة إلى الوجهة.

كانت القدس تحت سيطرة الروم، وكان المسلمون يعرفون أن الخطر كامن فى هذه الناحية، وكانت غزوتا مؤتة وتبوك فى عامين متواليين [١] ثم كان بعث أسامة الذى كان يغرس لواءه أمام مسجد النبى قبل وفاة النبى ﷺ بقليل.

وكان بعث أسامة هو أول أعمال الصديق بعد توليه الخلافة عام ١١هـ إنفاذاً لأمر رسول الله ﷺ .

وعند جبال طوروس كان اللقاء بين الإسلام والروم.

هذه مرحلة المقاومة الإسلامية طوال العهد الأموى والعباسى وكانت الإمبراطورية الرومانية قد تفسخت حضارياً واقتصادياً وانقسمت إلى غربية وشرقية إلى روما والقسطنطينية.

واستمرت المعارك سجالاً وجرت محاولات المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية حتى رد المحاربين عمر بن عبد العزيز.

وفى العصر العباسى توالت غارات البيزنطيين على أرض الإسلام حتى طلب الإمبراطور قسطنطين الخامس الصلح على أن يؤدى للخليفة العباسى جزية سنوية.

وعاش الأمل فى الاستيلاء على القسطنطينية ثمانية قرون منذ الحصار الأول ٥٢هـ – ٦٧٢م حتى جاء الفتح بقيادة السلطان محمد الفاتح ٨٥٧هـ – ١٤٥٣م وأصبحت استانبول عاصمة الخلافة العثمانية.

ومن استانبول توغل المسلمون إلى شرق أوربا ووسطها وحتى وصلوا إلى أسوار فيينا.

أما من الناحية الأخرى فقد تقدم المسلمون (العرب والبربر) من المغرب حتى عبروا جبال البرانس وسجلوا انتصارات حاسمة (٩٢هـ – ٧١١م)، ودخلت الأندلس فى الإسلام وبقى

---

(١) غزوة مؤتة عام ٨ هـ – غزوة تبوك عام ٩ هـ.

فيها حتى سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م.

لقد خاض المسلمون حروباً امتدت شرقاً إلى أطراف الصين وشمالاً حتى القسطنطينية، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وعبرت جيوشهم جبال طارق حتى وصلت إلى سهول فرنسا الجنوبية كما وصلت إلى السند وإلى ما وراء النهر.

* * *

(١١)

١- فإذا نظرت إلى هذه الأمة الإسلامية - القارة الوسطى - لوجدت أن الدول المكونة لها فى آسيا وأفريقيا - على حد قول الدكتورة نازلى معوض أحمد - تشكل كتلة جغرافية على درجة هائلة من الأهمية الاستراتيجية فهى كتلة تقع فى قلب العالم الإسلامى ، وتخترق أراضيها مجموعة بحار فيها خطوط الملاحة العالمية، فالعالم الإسلامى نقطة التقاء ووصل بين الشرق والغرب، ومن ثم فهو مركز رئيسي فى حركة المواصلات العالمية بكل ما يعنى ذلك من انعكاسات خطيرة اقتصاديًا واستراتيجيًا حيث تضم أهم مجموعة مضايق فى العالم:

٢- مضيق جبل طارق حيث يتصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطى الشمالى، ومضيق باب المندب حيث همزة الاتصال بين البحر الأحمر والمحيط الهندى، ومضيقا البسفور والدردنيل حيث الاتصال بين البحرين الأسود والأبيض، ومضيق ملقا بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة حيث نقطة الوصل بين المحيط الهادى والمحيط الهندى، ثم مضيق هرمز الاستراتيجى فى الخليج العربى، وهذه المجموعة من المضايق تتحكم فى طرق نقل التجارة العالمية مما يشكل أهمية اقتصادية بالغة الخطورة لكل النطاق الإسلامى.

وتقع بين ظهرانى الكتلة الإسلامية مجموعة من المسطحات المائية الخطيرة الأثر التى تمثل فى مجموعها محاور الاستراتيجية العالمية، فالبحر المتوسط هو أحد محاور الصراعات الدولية بين القوى الكبرى فى العالم المعاصر ، ويدخل البحر المتوسط كعنصر أساسى ضمن نطاق التخطيط الاستراتيجى لسائر تلك القوى بلا استثناء فهو أحد الطرق المائية التى توصل عبر قناة السويس إلى المصادر الرئيسية للطاقة البترولية فى العالم.. كذلك فإنه يمثل حزاماً للأمن الأوربى، فضلاً عن أنه حزام أولى للأمن القومى العربى بصفة عامة، والبحر الأحمر لا يقل فى أهميته الاستراتيجية عن البحر المتوسط لأنه يمثل موقعاً متوسطاً بين القارات، وهو من أهم مناطق مرور السلعة الاستراتيجية الأولى والوصول إلى قلب الخليج العربى موطن

منابع النفط، وهناك الخليج العربى بكل ما له من أهمية عالمية فى نطاق مجموعة الممرات المائية التى تقع فى أراضى وحدات العالم الإسلامى، فالخليج العربى بالذات هو قلب العالم الإسلامى ككل، ومن يتحكم فى هذا القلب يتحكم فى العالم الإسلامى.

* * *

(١٢)

كانت الفتوحات الإسلامية نموذجاً رائعاً للعسكرية الإسلامية التى حققت إنجازات رائعة فى مجال الصراع بين المسلمين وأعدائهم، ومن ذلك ما أصبح من حقائق التاريخ التى لا تنازع. وقد عدد هذه الحقائق اللواء محمد جمال الدين محفوظ فى العناصر الآتية:

١- تأمين الدعوة وتأسس الدول الإسلامية وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية.

٢- امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً.

٣- تمكين الأمة الإسلامية (الناشئة) من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظيمتين فى وقت واحد فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت، وهما فارس وبيزنطة، والانتصار عليهما وذلك مثل فريد فى التاريخ الحربى لم تبلغه أقوى الأمم.

٤- إتقان العرب - وهم أبناء الصحراء - ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهو أعظم قوة بحرية فى زمانهم حتى يقول عنهم ابن خلدون:

«إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس، والرومان والصقالبة والفرنجة جميعاً تُهرِّب أساطيلهما أمام البحرية العربية، ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته».

٥- فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها العبقرية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية، فأصبح العرب - بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة - قادة للحضارة العالمية فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر (جابر بن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم فى الطبيعيات، وأبو بكر الرازى فى الطب، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة، والغزالى فى الجانب الروحى، وابن رشد فى الفلسفة العقلية، وابن

خلدون فى الاجتماع والتاريخ ، والخوارزمى فى الرياضيات وعشرات غيرهم) .

فالعسكرية الإسلامية إذن تمثل جانباً أساسيًا ورائداً من الحضارة الإسلامية ومن الحضارة الإنسانية بالتالى، ولولا جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله ما تغير وجه التاريخ، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور.

* * *

(١٣)

ويقول دكتور جمال حماد: إن هذه الانتصارات المجيدة التى وصل بها العرب إلى تخوم الهند والصين شرقاً وإلى نهر اللوار فى فرنسا غرباً فى قرابة مائة عام ترجع إلى عدة عوامل أساسية:

منها قوة إيمان العرب واضطرام حماستهم، غير أن الإيمان والحماسة رغم أهميتهما فى إحراز النصر لا يثبتان وحدهما فى حرب طويلة الآن أمام جيوش قوية مدربة، ولذا فإن الإنصاف يقتضى أن نضيف إلى قائمة العوامل التى أدت إلى النصر ذلك العامل الحيوى وهو تفوق العرب على أعدائهم من ناحية الفن العسكرى والتكتيك الحربى.

وكان هذا راجعاً إلى مهارة قادة المسلمين فى القيادة ورسم الخطط، وإتقانهم فى تحريك القوات ومقدرتهم العظمى فى تدبير الوسائل اللازمة لإشاعة أقوامهم فى مختلف الميادين ثم لاتباعهم الأساليب التكتيكية التى تلائم طبيعة قواتهم وتدريبها.

ويمكن القول: إن العرب قد اتبعوا مبادىء الحرب المعروفة حالياً فى معظم عملياتهم الحربية وطبقوا الأساليب التكتيكية السليمة فى معاركهم بوحى من العبقرية والإلهام قبل معرفة هذه المبادىء والأساليب وتطبيقها بالطرق العلمية الحديثة بعشرات القرون. وقد تميزوا باتباع مبدأين من مبادىء الحرب كانا السبب الأول فى ذلك النجاح الباهر الذى أحرزوه فى ساحات القتال وهما خفة الحركة والمفاجأة. (مثال ذلك ما فعله خالد بن الوليد فى قطع البادية المقفرة من العراق إلى الشام).

ويضاف إلى ذلك ميزة الاقتصاد فى القوة.

ولقد كان قادة المسلمين فى جميع معاركهم مثالاً للبطولة والفداء.

وكان رائدهم ومعلمهم هو الرسول القائد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى فى بطولة الجهاد ورمز عظمة الخلق والفكر والإيمان، ويزيد من عظمة هؤلاء القواد الأبطال أنهم لم يتلقوا فنون الحرب فى معهد حربى بل إن مدرستهم كانت البادية وحدها،

وكانت لهم مواهب جبارة وذكاء فطرى خارق من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة وطارق بن زياد وعقبة بن نافع وصلاح الدين الأيوبى .

ولا ريب فى أن الرعب الذى زلزل كيان الأكاسرة والقياصرة لم يكن مصدره هذا العدد أو العدة لدى المسلمين بقدر ما كان إظهار الاعتزاز بالله تبارك وتعالى والتوكل عليه والاطمئنان له؛ مما أغراهم بالاستشهاد وحثهم على استعجال لقائه، وزهدهم فى كل شىء من أجل رضاء الله تبارك وتعالى .

ويدفعنا هذا إلى الحديث عن القوى البحرية الإسلامية، ولا بأس أن نأخذ بعض ما أورده المستشرق برنارد لويس فى بحثه عن القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط .

« أحالت الإمبراطورية الرومانية البحر المتوسط بحيرة رومانية لمدة ستة قرون حتى ظهر الأسطول الإسلامى منافساً ومنتصراً حتى القرن السادس عشر .

وكان العرب الفاتحون رجال حرب فى البَرِّ، ثم كان أول من فكر فى إنشاء قوة بحرية هو معاوية بن أبى سفيان . حتى إذا ما جاء عبد الملك بن مروان أقام قاعدة بحرية فى قرطاجنة وقوى الأسطول الإسلامى وعبر البحر إلى الأندلس فاحتلها .

وكان لسقوط صقلية بأيدى المسلمين عام ٨٢٧م رجَّة فى الغرب، لأن المسلمين بعدها سيطروا على البحر المتوسط وحصروا البيزنطيين والأوربيين فى البحار الضيقة . . كما كان من نتاج احتلال المسلمين لصقلية أن زادت مواردهم من الحديد والأخشاب بالإضافة إلى أنهم كانوا قد عرفوا النار اليونانية .

ولم تكن قوتهم البحرية موحدة، بل كانت هناك ثلاث قوى :

الأندلس فى الغرب – صقلية وتونس فى الوسط – سورية ومصر وكريت فى الشرق .

وما أن حَلَّ القرن العاشر حتى كانت السيطرة الإسلامية قد زالت من شرق البحر المتوسط ولكنها بقيت فى غربه حتى منتصف القرن الحادى عشر، وعندما انتزع الغرب من المسلمين صقلية وجزر البليار، لم تلبث أن ظهرت دولتا المرابطين والموحدين اللتان أعادتا للأندلس والمغرب مجدهما القديم . . كما تمكن صلاح الدين من الانتصار على الصليبيين وطردهم ووحد الشام ومصر وبعد أربعة قرون استطاع الإسلام أن يبرز من جديد قويًا مسيطراً فى حوض البحر المتوسط وذلك على أيدى الأتراك العثمانيين .

١- امتلك المسلمون منافذ التجارة براً وبحراً وكان الخليج العربى واسطة العقد فى نقل التجارة بين جزأين هامين من العالم المتحضر هما الهند وبلدان الوطن العربى المحيطة بالخليج، وكلما ازداد علم المسلمين بالبحار طالت رحلاتهم البحرية فوصلت إلى شواطئ بعيدة، وما لبث أن وصل تجار الخليج العربى إلى شواطىء الصين الشرقية.

وكان منفذ بغداد إلى العالم نهر دجلة فشط العرب فالخليج العربى، وقد عمل خلفاء بنى العباس على تشجيع التجارة على هذا الطريق البحرى العام.

أما الجاليات التجارية العربية فقد تعدت فى العصر العباسى حدود بلاد الهند وبلغت الصين وكوريا وعرف أهالى ميناء خانقو فى الصين هؤلاء العرب كتجار مسلمين وأقامت هناك جالية كبيرة منهم،وكان لهم قاض مسلم يحكم بينهم.

وقد أقام تجار العرب فى جزيرة سيلان جنوبى الهند قبل عام ٨٠هـ.

٢- كذلك فإن المسلمين قد سبقوا الأوربيين إلى التفكير فى كشف أمريكا وحاولوا الوصول إليها مرتين بالفعل: الأولى من لشبونة، والأخرى من غانة فى السودان الغربى على ساحل المحيط الأطلنطى.

وكان تخيلهم لها يقوم على تصور علمى هو أفضل من الخطة التى اتبعها كرستوف كولمبس، فإنه لم يكتشفها إلا بطريق المصادفة.

وكان المسلمون هم أول من اقتحم بحر الظلمات، وقد أشار الشريف الإدريسى إلى ثمانية من الشبان المغامرين الأندلسيين الذين أبحروا انطلاقاً من شواطىء الأندلس الغربية فى القرن الرابع الهجرى آملين فى اكتشاف بحر الظلمات.

وقال فنزلر: إن العرب المسلمين قاموا برحلات متعددة قبل البرتغاليين لاكتشاف سواحل أفريقيا الغربية، وكتب ابن فضل الله العمرى رسالتين وصف فيهما وصفاً مفصلاً حملتين بحريتين وجههما ملك غينيا (محمد جاد) لاكتشاف الساحل الواقع غربى المحيط الأطلسى.

قال الإدريسى فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) إن الفتية المغامرين خرجوا من مدينة لشبونة إلى بحر الظلمات فقد اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح

الشرقية، فجروا فيه نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروس قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ووجدوا عمارة وحرثاً فتصدروا، فاختلط بهم فى زوارق هناك فأُخذوا وحُملوا من مراكبهم إلى المدينة على ضفة البحر فاعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم مترجم يتكلم باللسان العربى فسألهم عن حالهم ثم حملوا إلى الملك، ثم حرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر، قال قوم قدَّرْنَا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء بنا إلى البحر فأخرجنا وكتفنا إلى خلف، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال من شدة الأكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحنا جميعاً فأقبل القوم إلينا فحلوا أوثاقنا وسألونا فأخبرناهم وكانوا برابر، فقال أحدهم أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم: واأسفى.

فسمى المكان إلى اليوم (أسفى) وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب.

* * *

وقد أشار شيخ العروبة: أحمد زكى باشا إلى أن هناك محاولتين قام بهما البحارة المسلمون ذكرت إحداها فى كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسى، كما ورد ذكر المحاولة الثانية فى كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى وصبح الأعشى للقلقشندى.

الأولى على نحو ما ذكرنا حدثت فى القرن الثالث الهجرى (٩م) من ثغر لشبونة أى قبل مغامرة كولمبس بنحو خمسة قرون، امتدت خمسة وثلاثين يوماً حتى رسوا على شاطىء مسكون فاعتقلهم بعض الناس ثم خلوا سبيلهم وأعادوهم إلى سفينتهم، فعادوا إلى وطنهم حيث قصوا مشاهداتهم.

وقد استدل المتخصصون الجغرافيون أن هؤلاء الفتية المغررين -كما سماهم الشريف الإدريسى- قد أدركوا إحدى جزائر (برمودة) أو الأنتيل أو أحد موانى المكسيك.

أما المحاولة الثانية فقد أقدم عليها مسلمو غرب أفريقيا فى نحو القرن السادس الهجرى (١٣م) عندما زود السلطان محمد فاو سلطان غانة بضع مئات من سفنه بالزاد والماء، وكلف رجاله أن يضربوا فى عرض المحيط غرباً حتى يدركوا نهايته، فغابت السفن زمناً طويلاً ثم عادت إحداها أخيراً فقص ربانها ما لقى فى رحلته الشاقة من أهوال البحر إلا أن السلطان

أبى أن تبوء فكرته بالفشل فاعد سفناً أخرى أبحر على رأسها بنفسه ولم يلبث أن انقطعت أخبار تلك الرحلة الجريئة ولم يعرف شيء عن مصيرها.

وقد قام الأب أنستاس الكرملى بدراسة مفردات لغات المكسيكيين القدامى وخاصة أسماء الحيوانات والنباتات بما يقابلها فى اللغة العربية وأثبت الصلة بينهما وخلص من تلك الدراسة (ألقاها فى ديسمبر ١٩٤٤) إلى أن العرب قد قدمت ببعض ملاحيهم المغامرين إلى تلك البقاع من أزمان قديمة وأنهم كانوا يبحرون إليها من بعض جزر بحر المانش التى كانوا يتعاملون معها، مستعينين فى إبحارهم بتيار الخليج الذى يشاع أنه لم يكتشف قبل أوائل القرن السادس عشر وقد تركوا أثراً ظاهراً فى حضارة تلك البلاد.

* * *

ويرتبط بهذا الدور الخطير الذى قام به (ابن ماجد) أسد البحر الهائج شهاب الدين أحمد الذى هدى فاسكو دى جاما إلى مهمته وأعانه فى بلوغ شواطىء الهند وكان جد (ابن ماجد) قد كتب رسالة عن (الملاحة فى البحر الأحمر) خدمة للسفن التى تنقل الحجاج وزاد عليها والد ابن ماجد وأضاف نتائج اختباراته، وقد اعترف المنصفون من علماء الفرنجة بفضل العرب ولا سيما ابن ماجد على الملاحة البرتغالية فى القرنين ١٥، ١٦ الميلاديين.

قال الأستاذ قران الإفرنسى: إن الفضل فى تفوق الملاحة البرتغالية يعود إلى العرب وقد ترجم هذا الباحث الفرنسى مؤلفات ابن ماجد تحت عنوان :

(مؤلفات ابن ماجد الملقب بأسد البحر الهائج ربان فاسكو دى جاما الذى طاف حول الأرض) .

وقد استعان دى جاما بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الأرض من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية إلى فاليقوت فى الهند .

وله كتاب « الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » يتضمن معرفة سير السفن فى البحر بمعرفة منازل القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وكيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر وقد اتخذ ابن ماجد (بنات نعش) وسهيلا، والناقة، والحمارين، والعيون، والعقرب، والنسر الواقع، والإكليل، والسماكين، والثور، من جملة الأدلة التى تساعد المسافر فى البحار .

وقال : إنه علم ذلك بالاختبار واعترف بأن ثلاثة من مشهورى الربابين سبقوه إلى ذلك

وأن الفرق بينه وبينهم أن ما ذكره هو مصحح مجرب .

وعرض لبعض الثغور التى على الإقيانوس الهندى والبحر الصينى وشكل البروز ومراسى ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى ووصف البحر الأحمر ومراسيه وأعماقه وصخوره الظاهرة والخفية .

وفى رسالته (حاوية الاختصار فى علم البحار) وصف العلامات التى يجب على ربابين السفن معرفتها استدلالاً على قرب البر ، وفى منازل القمر ومهاب الرياح ، وفى السنة الهجرية والرومية والقبطية والفارسية ، وفى طريق السفن على ساحل الجزيرة العربية والحجاز وسيام وشبه جزيرة حلفا وأطراف بلاد الزنوج ، وعلى سواحل الهند الغربية ، وسواحل القمر، ومندل، والبنغال وسيام حتى جزيرة بليطون ، وجاوه ، والصين وفرموزه، وفى سير السفن على سواحل جزر جاوه وسومطرة والسنغال ومدغشقر واليمن والحبشة والصومال وجيبوتى العربية والمقران ، وفى المساحات بين الثغور العربية والثغور الهندية ، وفى عرض الثغور على البحر الهندى .

يقول فى كتاب الفوائد :

«اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسبابا كثيرة فأولها : معرفة الشمس والقمر والأرياح ومواسمها وآلات السفينة وينبغى أن تعرف مطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها .

وينبغى أن تعرف جميع البرور وإشارتها كالطين والحشيش ومد البحر وجزره، وينبغى للمعلم أن يعرف الصبر من التوانى ويفرق بين العجلة والحركة ، والحذر كل الحذر من صاحب السكان فلا يجوز أن يغفل عنه. وما صنعت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامى» .

وكتب المؤرخ البريطانى (كسثانهيدا) يصف إرشاد ابن ماجد لفاسكو دى جاما إلى طريق الهند قال :

وصل فاسكو دى جاما إلى مالندى (على الساحل الشرقى من أفريقيا شمال مدغشقر) فى ١٥ مارس ١٤٩٨ ، وأرسى فى فرضيتها ، فصعد إلى سفينته مسلمون منهم مسلم اسمه أحمد بن ماجد أحب أن ينعم برفقته (دى جاما) وبحارته ورضى أن يذهب معهم فيدلهم على طريق الهند .

وكان (دى جاما) قد دهش لسعة علم الملاح المسلم عندما أراه خريطة الساحل الهندى

كله ، وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل ثم دعا (دى جاما) . الملاح ليشاهد الأسطرلاب الكبير الذى كان يحمله على سفينته وآلات فلكية أخرى فلم يعجب المسلم لما رأى ، وأنبأ (دى جاما) أن للملاحين العرب فى البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة على غير مثال ، ثم أطلعه على آلة مؤلفة من ثلاث لوحات فلما عرف (دى جاما) قيمة هذا الكنز الذى ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا المعلم المسلم وأقلع متوجهاً إلى الهند فى ٢٤ أبريل فجاز الخليج الكبير وطوله ٦٠٠ فرسخ فى ٢٢ يوماً دون أن يلقى فى طريقه أى عقبة أو مشقة .

[من بحث للدكتور قدرى حافظ طوقان – مجلة العربى]

* **

ملاحق البحث

١ – عندما سأل شاهتشاه الفرس المسلمين عما جاء بهم إلى بلاده من الجزيرة العربية قال ربعى بن عامر :

« إن الله قد ابتعثنا لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » .

٢ – جاءت الهجرة من الجزيرة العربية قبل الإسلام واتجهت إلى شمال الجزيرة وأطراف الهلال الخصيب على موجات متتالية .. منها من اتجه نحو بلاد الرافدين وخاصة نحو نهر الفرات ، ومنها من استقر فى فلسطين وسوريا ولبنان ، ومنها من اتجه غرباً نحو طور سيناء والنيل .

ومن هنا فإن تسمية هذه الحضارة بالسامية خطأ .. إنما هى حضارة عربية فى منبعها ، ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب وقد ازدهرت فى وادى الرافدين ، فاستقرت فيه أكثر من ألفى سنة .

٣ – كان استقبال الشعوب للمسلمين الفاتحين استقبالاً يجل عن الوصف فى مصر والشام وشمال أفريقيا ، وفى أسبانيا (الأندلس) كان الشعور بالخروج من الظلم الذى فرضه الرومان ألف عام على هذه الشعوب ، فكل هؤلاء استبشروا خيراً بقدوم المسلمين الذين رفعوا عنهم الأغلال وكسروا القيود .

فضلاً عن أن الإسلام لم يضر بيَع اليهود ولا كنائس النصارى ، ولم يغتصب الأرض من الذين يعملون فيها بل اكتفى بفرض ضريبة صغيرة عليها .

وما كان ذلك إلا لأن الإسلام جاء بحضارة لها طابع إنسانى رفيع .

* * *

الباب الأول

من جبهة بيزنطة

إلي نهاية الحروب الصليبية

الأحداث الكبرى

معركة ملاذكرد	٤٦٣هـ - ١٠٧١م
الحملة الصليبية الأولى	٤٩٤هـ - ١٠٩٦م
معركة حطين	٥٨٣هـ - ١١٨٧م
معركة عين جالوت	٦٥٨هـ - ١٢٥٩م
آخر الحروب الصليبية	٦٩٠هـ - ١٢٩١م

(١)

(خرج الصينيون من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون منهم أفانين العلوم والمعرفة) .

[المؤرخ هرنشو]

كان أول أعمال الغرب المسيحى فى مواجهة الفتح الإسلامى الزاحف، هو العمل على صده ووقفه وتحطيم خطته التى كانت تتمثل فى تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية ، وكانت هناك جبهتان : الأولى هى بيزنطة ، والثانية هى الأندلس .

وكانت الجبهة الأولى للصراع بين الإسلام والغرب . هى : بيزنطة والحدود بين الدولة الإسلامية فى دمشق وبين الروم، وقد بدأت المعركة فى عهد النبى ﷺ – وقبل أن يختار الرفيق الأعلى – فى مؤتة وتبوك ، وكان بعث أسامة قد أعدّ قبل مرض الرسول ﷺ ، وأنفذه أبو بكر، وقد ظلت بيزنطة هى الخطر الذى لم يغفل عنه المسلمون خلال حكم الأمويين والعباسيين، وحتى استطاع محمد الفاتح اقتحام القسطنطينية عام ٨٥٧ هجرية حيث بدأت صفحة جديدة من الصراع .

لقد ظل الغرب المسيحى خلال هذه السنوات منذ دخل المسلمون سوريا يقاوم من ناحية البلقان ، ويحاول بقدر ما يستطيع أن يُغير على أراضى المسلمين ، ولم يتوقف طوال عهدى الأمويين والعباسيين ، حتى طلب الإمبراطور قسطنطين الخامس الصلح على أن يؤدى للخليفة العباسى جزية سنوية وتوالت الحشود بعد المنصور ، وفى عهد المهدى وهارون، حيث سار على رأس جيش كبير عام ١٩٠ هجرية مخترقاً آسيا الصغرى ولم يتوقف إلا حيث طلب تقفور الصلح، وهاجم المأمون الجزء الشرقى من آسيا الصغرى وطلب الروم الصلح وثار المعتصم وخرب عمورية ، وأعد أسطولاً لغزو القسطنطينية .

يقول الأستاذ محمود ثابت الشاذلى : وظلت الحروب مستمرة على امتداد تلك المنطقة تتخذ قواعدها الإسلامية من الثغور التى أقامها المسلمون فى البحر الأبيض المتوسط وفى سلسلة الجبال الممتدة من فلسطين على الفرات الأعلى حتى طرسوس ، وكانت حصوناً محكمة، قامت على حمايتها كتائب مجاهدة من شباب المسلمين سموا بالمرابطين ، ومنها تتحرك الطلائع المجاهدة فى مواسم مسماة بأسمائها إبان فصل الصيف بالصوائف وفى وقت

الشتاء بالشواتى .

واستمرت الحروب طوال العهدين الأموى والعباسى حتى جاء السلاجقة ، وكانت معركة ملاذكرد الحاسمة ٤٦٣ هـ مثالاً للجهاد الإسلامى العظيم ، فقد انتصر فيها جيش المسلمين بقيادة السلطان السلجوقى (ألب أرسلان) على الإمبراطور الرومانى رومانوس الذى كان يقود جيشاً قوامه مائتا ألف أو يزيد وسُحق الجيش البيزنطى وانتشر السلاجقة فى الأناضول وبسطوا نفوذهم فى القرن الحادى عشر على رقعة واسعة من الأرض تمتد من تركستان الصينية إلى شواطئ بحر مرمرة ومن القوقاز إلى خليج البصرة .

وأحس الغرب المسيحى أن الأمر قد وصل إلى غايته ، وأن خطر المسلمين قد تزايد فتحولوا من معارك الحدود إلى الغزو الداخلى .

كانت معركة ملاذكرد عام ٤٦٣ هـ وبدأت الحروب الصليبية عام ٤٩٤ هـ أى بعد ثلاثين عاماً فقط .

يقول فازليف : (ومن ذلك الحين – أى بعد انتصار المسلمين فى ملاذكرد – صار الإسلام خطراً حقيقيًّا يهدد بيزنطة بعد أن أصبح لواؤه بأيدى السلاجقة) .

وبدأت الحملات الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان منذ الحملة الأولى (٤٩٤هـ – ١٠٩٦م) حتى حرر السلطان الأشرف عكا من بقايا الصليبيين عام (٦٩٠هـ – ١٢٩١م) لم تتوقف خلالها المعارك والحشود التى جاءت بعد من أوروبا لتسيطر على أرض الإسلام. كانت الصورة بالغة القسوة ، فبينما الحملات الصليبية تزحف على موانى عكا ويافا ، ودمياط ، كان الزحف المغولى يتحرك من وراء النهر إلى قلب آسيا فى اتجاه بغداد فى حملة عاصفة دمرت كل شئ وقتلت الخليفة ، وواصلت مسيرتها لتقضى على الشام ومصر ، غير أن المسلمين استطاعوا أن يوقفوها فى عين جالوت على نحو حمى الحضارة والعالم وأوروبا من شرها .

وفى الوقت نفسه كانت الأندلس تواجه امتحاناً قاسياً منذ فتحها المسلمون غير أنها لم تسقط إلا بعد قرنين من نهاية الحروب الصليبية ، ولم يمض على سقوط آخر معاقل الأندلس (غرناطة) أكثر من خمسين عاماً حتى فتحت القسطنطينية ووصل الإسلام إلى أوروبا من المعبر الأول : معبر بيزنطة القديم .

حدث هذا فى خلال أربعة قرون منذ ٤٩٤ هـ حيث كانت أولى الحملات الصليبية إلى ٨٥٧ هـ حيث تم فتح القسطنطينية وسقوط بيزنطة .

خلال هذه الفترة وجهت الضربات الكبرى إلى عالم الإسلام ومنذ سيطرت الدولة العثمانية على الأفق الإسلامى تزايدت خطط المؤامرة ، غير أن الدولة العثمانية استطاعت أن تسيطر منذ ١٥١٧م إلى ١٩١٧م حين تمزقت مع الحرب العالمية الأولى وبدأت مرحلة جديدة قال عنها اللورد اللنبى حين دخل القدس :

(اليوم انتهت الحروب الصليبية) .

هى صفحة حافلة بالانتصارات والهزائم .

سقطت فيها بغداد وسقط بيت المقدس وسقطت الأندلس ، واستعاد المسلمون فى حطين بيت المقدس وفى عين جالوت الموقع الإسلامى ، وبفتح القسطنطينية بدأ التاريخ الإسلامى يكتب صفحة جديدة :

من بدء الحروب الصليبية إلى سقوط بغداد فى أيدى التتار (المغول) قام تحالف عسكرى بين الصليبيين والمغول لإسقاط الخلافة فى بغداد :

استغلت القوى الأوربية المسيحية فترة الانحدار التى أصيبت بها قوى السلاجقة عندما دبت الانقسامات بينهم ، فتحركوا فى مجموعات كاسحة إلى بيت المقدس ، ولم يمض على معركة ملاذكرد الحاسمة أكثر من ثلاثين عاماً ، فى أول حرب صليبية (٤٩٤ هـ - ١٠٩٦م) كان هدفها هو الاستيلاء على بيت المقدس ، بحجة تخليصه من أيدى المسلمين، ويرجع نجاح الصليبيين إلى ثلاثة أمور :

١ - تفرق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بينهم .

٢ - قلة إيمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الإسلامى وقدسية أراضيه وخيانتهم للأمانة التى كانوا يحملونها .

٣ - ضعف الفاطميين وفساد سياستهم فى أواخر أيام دولتهم حيث لم يكن تنقصهم القوة ، ولكنهم كانوا يحسون بأنهم ضعاف ، وكانت لديهم أدوات النصر ولكن كان ينقصهم الإيمان .

وقد تجمعت لهم أسباب الشرف جميعاً ، ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت منذ زمن طويل ، فحق عليهم أن تنزل بهم الهزيمة . وقد قاوم أمراء سورية الفرنجة متفرقين كل يعتمد على جهوده الخاصة وبعضهم كان تابعاً لبغداد والآخر للقاهرة.

وكان العالم الإسلامى دويلات متفرقة يتوزعها أمراء متنابذون ولم يكن الأمر يخفى على

أوربا الصليبية التى كانت تعمل لصالحها ، وربما وجدت من بعض هؤلاء الأمراء كثيراً من العون فقد اتصل حكام الفاطميين بالصليبيين وهم يحاصرون أنطاكية وراسلوهم .

ونتيجة لذلك سقطت أنطاكية (٤٩١هـ) ، وداهم الصليبيون بيت المقدس ٤٩٢ هـ حيث قتلوا عشرات الألوف فى الأقصى والصخرة ، ووقع أمراء الشام تحت رحمة جوفرولاى بوتون وإخوانه الصليبيين ، ونجحت الحملة الصليبية الأولى وقام كيان سياسى لاتينى نصرانى فى فلسطين والشام ، وتهاوت محاولات المقاومة ، وبقيت سيطرة الصليبيين على الشام قوية فى ظل إمارتهم التى تقف أوربا كلها من ورائها ، وعاش المسلمون نصف قرن بين يدى الغاصبين ، وتدارك الله تبارك وتعالى المسلمين بالدعوة إلى الاعتصام التى نادى بها نفر من فرسان الإسلام بالموصل وهؤلاء هم آل زنكى ، وأشهرهم عماد الدين زنكى ، ثم نور الدين محمود ووزيرهم صلاح الدين .

* * *

(٢)

أبرز مظاهر هذه الجولة هى أنها كشفت عن ذلك الحقد الصليبى المبيت فى النفس الغربية المسيحية إزاء الإسلام ، وأنها انتهزت فرصة ضعف المسلمين وتفرق إرادتهم، ووقوع الخلاف بين أمرائهم فأسرعوا بإرسال جموعهم التى طاف بطرس الناسك أوربا يدعو لها ويحشد ، بدعوى الخطر المتوهم على بيت المقدس . ولقد مضى هذا الإصرار الحاقد إلى أبعد غاياته فاستمر قرنين من الزمان بين حملة تروح وحملة تجيء بقيادة ملوك أوربا ودون التراجع مع الهزائم التي توالت عليهم، وقد ظلت أوروبا تخفى على أهلها أن بيت المقدس كان فى أمان ، وأن هذه الدعوى المدعاة كانت باطلة ، حتى عادت بقايا الحملات الصليبية وأعلنت هذه الحقيقة فى قلب أوروبا فهزت الكنيسة التى عجلت بالقضاء على هؤلاء النفر.

ولقد كانت الحملات الصليبية فى حد ذاتها علامة على مؤامرة ضخمة عاشت فى أعماق الغرب بعد أن اتسعت دائرة الفتح الإسلامى فى غرب أوربا ، حيث زحفت قوات المسلمين من الأندلس إلى حدود إيطاليا وفرنسا وسويسرا لم توقفها هزيمة بلاط الشهداء .

كذلك فقد أثبتت الوثائق المسيحية كما جاء فى كتاب الأميرال كى : أن الحروب الصليبية لم تكن حروباً مسيحية ، وإنما كانت تدبيراً يهودياً لوضع العَالَمَين المسيحى والإسلامى فى حرب عامة مدمرة دامت أكثر من قرنين تمهيداً للوصول إلى فلسطين .

كذلك فقد كان لهم دور كبير فى تقليص الدولة الإسلامية فى الأندلس . ففى مذكرات

الأمير عبد الله بن يلقين أخبار كثيرة عن دورهم ذاك قبيل العصر المرابطى ، ثم كان لهم دور فى إنهاء دولة غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس نهائياً .

* * *

(٣)

معركة إسقاط الخلافة فى بغداد واحدة من الحملات الصليبية :

وأخطر من هذا وأشد أهمية ذلك التحالف الصليبى مع التتار وقد وضعت خطة الحملة الصليبية المغولية فى أوربا ونفذت فى آسيا (هذا التحالف العسكرى الذى تم بين الصليبيين والمغول حوالى (٦٤٨ هـ - ١٢٤٨م) قبل سقوط بغداد بسنوات قليلة) . . قال الأستاذ محمد على الغتيت فى كتابه « الغرب والشرق » معتمداً على المراجع الفرنسية وحدها ، ومتجاوزاً تفسير مؤرخينا فى سرد الأحداث : إن المؤرخين الأوربيين يعرفون أن ذلك الحلف معركة جديدة ويضعون هذه الأحداث الرهيبة تحت عنوان (الحملة الصليبية المغولية) - التترية وقال : دعا لويس التاسع بعض رجال أمير المغول إلى فرنسا حيث فاوضهم فى عقد اتفاق عسكرى ينص على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضد العرب والمسلمين ، ويكون دور المغول غزو العراق وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة الإسلامية ويكون دور الصليبيين تعويق الجيش المصرى من مساعدة إخوانه المسلمين ، أى عزل الجيش المصرى عزلاً تاماً عن سائر البلاد العربية .

ومضى لويس فى سعيه لاستمالة المغول وتسخير قواهم المدمرة لضرب الإسلام ففى٢ / ١ / ١٢٤٩م الموافق ٦٤٩هـ أُرسل إلى أمير المغول هدايا فاخرة حملها إليه وفد يرأسه الراهب الدومنيكى (أندريه دى لوبخيمو) ، وكان بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس . والذى أطمع لويس التاسع فى نجاح محاولاته لتكوين جبهة مشتركة مع المغول هو ما كان للنصارى النسطوريين من نفوذ وهيمنة فى إمبراطورية جنكيز خان ؛ إذ كانت سلطات الدولة فى قبضتهم وأرفع المناصب فى أيديهم .

يقول الأسقف (دى سيسل) : واشتهر هولاكو بميله للمسيحيين النساطرة وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم ، كما كان قائدة الأمير (كيوبوكا) مسيحياً نسطوريًا وكذلك كانت الأميرة دوكس خاتون زوجة هولاكو مسيحية ، وقد أدت هذه الزوجة جهداً تفخر به الكنيسة فى تجنيب أوربا المسيحية أهوال الغزو التترى وتحويله إلى بغداد والأمة

الإسلامية ، كما أنه صدرت الأوامر بعد سقوط بغداد بتقتيل المسلمين وحدهم وعدم المساس بالمسيحيين أو التعرض لأموالهم .

ويصف الأسقف دى سيسل حملة التتار على بغداد فيقول :

كانت « صليبية » بالمعنى الكامل ، هلل لها المسيحيون وارتقبوا الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحى (كيوبوكا) الذى تعلق أمل الصليبيين بجيشه حتى يحقق القضاء على الإسلام والعرب ، وهو الهدف الذى فشلت الجيوش الصليبية الغربية فى تحقيقه .

وقال التاريخ يصف سقوط بغداد بعدما يئس الخليفة (المستعصم بالله) من عمل أى شيء، فسار بنفسه وأولاده وحواشيه إلى معسكر هولاكو وارتقب مصيره ، وكذلك فعل الأعيان والوجهاء حتى إذا تكامل عقدهم أعمل التتار فيهم السيف وفتكوا بهم جميعاً ، ثم بدأ إفناء الجماهير وعصف الردى بالشيب والشباب والرجال والنساء ، وسالت الدماء فى الطرقات شاقة مجراها إلى الفرات الذى احمرت أمواجه من كثرة ما أزهق من أرواح ، وقدر بعض المؤرخين عددها بمليون وستمائة ألف نفس وظلت ريح الدماء تلف البلد البائس ستة أسابيع، نهبت فيها القصور العامرة، وخربت المساجد والمدارس والمكتبات، واحمرت مياه النهر عدة أميال لغلبة الدم عليها ، ثم اسودت بعد ذلك لفداحة ما أحرق من مخطوطات ومؤلفات هى حصاد العقل المسلم قروناً عديدة .

وهكـذا انهار كل ما كان شامخاً ، وأتت الفوضى على حضارة أنارت المشارق والمغارب ، هوى بها الهوى والمجون ، ودمرت آثام اللذة ما شادته روح التضحية والفداء .

والحق أن مصائر المدن الإسلامية الأخرى لم تكن أفضل من دار السلام (بغداد)، ذلك أن ٩٠ فى المائة من مبانيها وسكانها قد تلاشى وأمسى أثراً بعد عين ، مما جعل السيوطى يعبر عن هذه المآسى بقوله : حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر أمامها كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملكها بين الطول والعرض.

وكان المفروض أن تلقى القاهرة ودمشق نفس النهاية التى لقيتها بغداد وفق الخطة الصليبية المرسومة، بيد أن هزيمة التتار أمام الجيش المصرى فى معركة عين جالوت ومقتل القائد المسيحى كتبغا (كيوبوكا) وتبعها نزاع دموى بين هولاكو المائل للمسيحيين وأخ آخر مائل إلى الإسلام . . ذلك كله أوقف المصائب النازلة بالمسلمين إلى حين .

يقول الشيخ محمد الغزالى معلقاً على الحدث : لقد دفع المسلمون ثمناً فادحاً لمعاصيهم

السياسية والاجتماعية لإخلادهم إلى الأرض وحبهم للدنيا ، وكان القرنان الهجريان السادس والسابع مسرحاً لزلازل وبراكين هددت كيان الأمة وأمكنت الصليبيين والوثنيين من إهلاك الحرث والنسل، ومن تخطاه الموت هام على وجهه لا يجد مأوى .

وكان الشعور العام أن الإسلام يجب أن يزول ، وأن أمته يجب أن تختفى . ومع أن التتار فى المشرق كانوا الأيدى المنفذة إلا أن المسلمين أحسوا من قبل ومن بعد أن أوربا هى التى ترسم وتشير وتعمل وتساعد ، وبقى هذا البلاء موصولاً أكثر من قرنين .

ولم يرتد أحد عن دينه رغم قسوة الهجوم فلما ولى القرن السابع وجاء القرن الثامن كان العنصر العربى يتراجع عن أماكن القيادة ، وكان الأتراك يأخذون الطريق إلى الأمام .

على أن العناصر التى تتكون الأمة الإسلامية منها كانت مثخنة بالجراح، فقد نجت من جريمة قتل عمد ، وشاءت الأقدار أن تبقى كى تثأر للألوف المؤلفة التى بادت .

لقد بلغ خلفاء بنى العباس سبعاً وثلاثين خليفة ربما لم يستحق منهم الرئاسة إلا عدد أصابع اليد ، وهم كما قال دعبل :

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

إلا أن سقوط الخلافة نفسها كان ذريعة إلى ضياع الإسلام كله .

وتطلع المسلمون إلى خلافة جديدة تواجه البابوات والكرادلة والمؤامرات الخفية والجلية ضد الإسلام .

ومن ثم رحب الجمهور بدولة العثمانيين وتلقفهم لراية الخلافة الساقطة وتبعوها وهى تقتص من دولة الروم الشرقية وتستعدللزحف على أوروبا كلها .

إن المعاملة بالمثل هى القانون الذى ساد بين المسلمين وخصومهم ، وما دام الصليبيون من وراء سقوط بغداد فليتوجه المسلمون إلى القسطنطينية نفسها . وقد استولى المسلمون على المدينة بعد حصار واختراق لم يعرف لهما نظير فى تاريخ الحروب . (أ.هـ) .

* * *

(٤)

نعود مرة أخرى إلى الحروب الصليبية لنقف عندها وقفة تأمل فى عبرة الحدث جملة .

يقول المستشرق الإيطالى فرانسسكو جابر يللى :

إن الحروب الصليبية هي ذروة معارك أوروبا المسيحية .. هذه الحروب الصليبية التى سال من أجلها مداد مئات الكتب لا تقدم فى النهاية إلا رأيا واحداً .

ولقد خُدِعَ بعض كتابنا القوميين فحاول أن يصور الحروب الصليبية على أنها حروب بين العرب والغرب ونسى العامل الأساسى وهو تنامى الإسلام واندفاعه إلى أوربا وسيطرته على الأندلس وبعض أراضى إيطاليا وفرنسا بعد هزيمة بواتيه التى ظن أنها ستوقف نموه وامتداده .

وإذا وصلنا إلى الأعماق لوجدنا أن الحروب الصليبية تقوم على أربعة عوامل متشابكة :

عامل اقتصادى : الموارد .

عامل دينى : الاختلاف بين المسيحية والإسلام .

عامل سياسى : التوسع الاستعمارى .

عامل عنصرى : الاستعلاء بالعنصر الأبيض صاحب السيادة .

وهذه العناصر فى مجموعها تعطى الإيحاء بأن المعركة كانت كلها ترمى إلى احتواء عالم الإسلام والسيطرة عليه ثم التبشير لإدخاله فى دين الغرب ، وهى المحاولة التى مازالت مستمرة إلى اليوم .

وإن كان ظن الصليبيين قد خاب فى انتزاع القدس من أيدى المسلمين ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الإسلامى فإن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ تلك المدينة بقدر ما كانت تدميراً للإسلام .

* * *

لقد امتد حصار الإسلام على جبهات متعددة فقد تضافرت الجهود بين الغرب المسيحى وبين التتار من ناحية كما ذكرنا وفى الوقت نفسه فتحت ثلاث جبهات على العالم الإسلامى .

أولاً : استعاد الغرب صقلية ومالطة ١٠٩٠م من المسلمين .

ثانياً : دخول الفونسو السادس طليطلة ١٠٨٥م .

ثالثاً : دخول جوفرى ديوبون مدينة القدس ١٠٩٩م .

وفى الفترة من ١٠٩٨م إلى ١١٧٦م كان الصليبيون يسيطرون على كامل الأراضى السورية واللبنانية والفلسطينية وجنوب الأردن ، وفى الوقت نفسه كان (القرامطة) لا

يزالون فى (هجر) يقتلون الحجاج المسلمين بالآلاف ويهاجمون البيت الحرام فى مكة ويستحلون أخذ السبايا من المسلمين من شيوخ وأطفال ونساء قبل أن يأتى الصليبيون إلى القدس الشريف ١٠٩٨م حيث غرقت أرجل خيولهم إلى الرُكَب فى دماء المسلمين .

وتوالت الحملات الصليبية بقيادة ملوك أوربا ولم تتوقف .

وكانت معركة حطين التى استرد بها صلاح الدين بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م .

بدأت المقاومة منذ عام ٥٢٤ هـ - ١١٢٩م بقيادة عماد الدين زنكى ولم تتوقف فاستمرت فى عهد ابنه السلطان نور الدين الشهيد الذى كانت فترة حكمه (٥٤١ - ٥٦٩) معارك مستمرة وانتصارات ممتدة فى وجه الموجات الصليبية على هذا المدى الواسع الممتد بين حلب وأنطاكية وطرابلس .

وقد جاء الوقت الذى استطاع فيه صلاح الدين أن يسيطر على المنطقة كلها ويقود المعارك الفاصلة فى حطين وبيت المقدس .

وكان عماد الدين زنكى قد خطا خطوات موفقة فى جمع كلمة المسلمين من الموصل إلى حلب وخلفه ابنه نور الدين محمود الذى استطاع - بفضل منهجه فى توحيد الأمة والتماس منهج الله أساساً - أن يصد الحملة الثانية . ثم جاء صلاح الدين فامتلك ناصية الأمور فى مصر والشام والجزيرة ولم يلبث أن هاجم الأراضى التى كان الصليبيون قد احتلوها وأسسوا فيها إمارات مضى على قيامها زمن طويل فانتصر فى معركة عيون ٥٧٥هـ وحصن الأفران ، وحطم مغامرة ريخيالد فى الاستيلاء على الحجاز .

وفى عام ٥٨٣ هـ زحف صلاح الدين على رأس جيش إسلامى كبير سار به من دمشق واستولى على حصن الترك وطبرية ودارت معركة حطين الخالدة ، وأنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة وأسر قادتهم كما أسر ١٤ ألف جندى بعد أن قتل منهم ٩ آلاف ثم زحف فاستولى على عكا وصيدا ويافا وبيروت ونابلس والرملة ودخل بيت المقدس ظافراً فى رجب ٥٨٣هـ وانطلق صوت المؤذن فى أجواء بيت المقدس بعد انقطاع ثمان وثمانين سنة .

* * *

(٥)

إن تجربة استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين يجب أن تدرس فى توسع وتفصيل لاستلهام العبرة ، ولمواجهة الواقع المعاصر للمسلمين اليوم إزاء الحملة الصهيونية القائمة .

وهى تتركز أساساً فى العود إلى الله تبارك وتعالى والتعرف على أبعاد المحنة التى ألمت بالمسلمين وكيف أنها جاءت أساساً نتيجة الانصراف عن منهج الله ، ولذلك فإن أولى علامات استعادة ما ضاع من المسلمين هو التماس الأصالة التى تستمد من المنابع وتربية الأجيال على الجهاد ، وبذل النفس والمال فى سبيل الله .

ولقد واجه المسلمون فى هذا العصر الذى نعيشه ثلاثة أخطار :

١ - الاستعمار الغربى .

٢ - سقوط الخلافة .

٣ - سقوط فلسطين وبيت المقدس فى يد الصهيونية ، فالمسلمون يواجهون مأزقاً لا يقل خطورة عن مأزق الحروب الصليبية ، ولذلك فإن العودة إلى منهج الله وقيام الوحدة الإسلامية الجامعة هما المنطلق الوحيد لمواجهة الخطر الجاثم واسترجاع الأراضى المحتلة ، وهذا ما ذهب إليه عماد الدين زنكى وطبقه نور الدين محمود كأساس للمرحلة الحاسمة التى بدأت بصلاح الدين وانتهت ببيبرس وقلاوون وغيرهما .

وكان صلاح الدين قد أقام قلعته المشهورة فوق جبل المقطم وأحاط القاهرة بسور كبير وبنى أسطولاً قويًا وقاد جيشه إلى الشام حيث طلب الأعداء الصلح فقبله ليستكمل توحيد المسلمين استعداداً لمعركة حاسمة مع الصليبيين ، وعندما تجرأ أمير أنطاكية على مهاجمة الأراضى الحجازية واقترب بعض رجاله من المدينة المنورة قاد صلاح الدين أسطولاً مصريًا ، وتصدى شقيقه لسفن الصليبيين وقضى عليها جميعاً .

ومضى فى إتمام الوحدة حيث رفرفت رايات الإسلام على العراق ومصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية .

وفى عام (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) عاد الصليبيون إلى الاعتداء على قوافل المسلمين ، فدعا صلاح الدين الأمة إلى الحرب ، فاجتمع حوله قرابة خمسة وعشرين ألف جندى من المسلمين من الشام ومصر فسار بهم إلى طبرية التى لم تلبث أن فتحت أبوابها لرايات الإسلام .

وتجمع الصليبيون فى صفورية وساروا إلى طبرية وسط صحراء جرداء وتوجه صلاح الدين إلى حطين فى موقع يسيطر فيه على المياه والعشب ، وتوجه الأعداء إلى الموقع الذى اختاره صلاح الدين للمعركة ، وأشعل رجال صلاح الدين الأشواك اليابسة فى السفوح المحيطة بهم، وبث ذلك في الصليبيين شعوراً بالحر والعطش ودَبَّ الخوف فى قلوبهم ، ثم بعث

صلاح الدين فرسانه يهاجمون الصليبيين بالسهام حتى لا يتركوا لهم الفرصة للراحة .

ودار القتال وأسفر عن نصر المسلمين وهزيمة الأعداء الذين قتل منهم وأسر عدداً كبيراً وسجد صلاح الدين شكراً لله تبارك وتعالى .

وكانت هذه المعركة بداية النهاية للاحتلال الصليبي فى الشام وفلسطين حيث استولى المسلمون بعدها على مدن الساحل جميعاً (عكا وغزة وصيدا وحيفا وبيروت) .

ثم رفرفت رايات الإسلام على القدس عاصمة الأرض المباركة (فلسطين) . وعن القدس قال صلاح الدين فى حديثه مع ريتشارد قلب الأسد آخر القواد الصليبيين فى فلسطين :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجمع الملائكة ، فلا تتصور أن نتنازل عنه .. أما البلاد فهى لنا فى الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كانوا فيها من المسلمين » .

ولقد شهد المؤرخون الغربيون بأن الحروب الصليبية كانت عملية غدر وخيانة، ولم يكن لها أى وجه من وجوه الحق – شأنها فى ذلك شأن الغزوة الصهيونية – يقول « استيفن رينسيمان » :

(إن نجاح الصليبيين أول الأمر لم يرجع فحسب إلى كثرة أعدادهم وإلى ما تلقوه من مساعدات من الغرب المسيحى ومن الدولة البيزنطية ، بل يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن وإلى ما اتبعه القادة الصليبيون من أساليب الغدر والخيانة ، واستخدام العملاء من السكان فى تحقيق أغراضهم ، وإلى ما أجروه من مذابح على سكان البلاد التى استولوا عليها بالرغم مما بذلوه لهم من الأمان .

ولكن لم تلبث فكرة الجهاد المقدس أن خرجت إلى حيز التنفيذ فى صفوف المسلمين، واشتدت ثائرتهم ، وتهيأ للأمة الإسلامية القادة الذين مضوا فيها بعون الله إلى طريق النصر) .

وهذه هى الحقيقة التى يجب أن نضعها تحت أبصارنا اليوم، ويعلق جوستاف لوبون على الحروب الصليبية فيقارن بين ما فعله الصليبيون وما فعله المسلمون فيقول :

« إن أول ما بدأ به ريكاردوس أن قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير أسلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع العهد بحقن دمائهم مما أثار صلاح الدين النبيل الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى والذى أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية أثناء مرضهم .

وكان صلاح الدين مثالا للقائد المسلم حين استرد بيت المقدس ، فنجده قد بذل الأمان للصليبيين ، ووفى لهم بجميع عهوده حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومَنَّ على جميع الأرمن بالحرية، وأذِنَ للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة وأباح للأميرات والملكة زيارة أزواجهن .

* * *

(٦)

أعطت القدوة الإسلامية المثل لعامة المسلمين ، فقد قدم المسلمون أنفسهم وأموالهم وأرواحهم رخيصة فى سبيل الدفاع عن أرض الإسلام وتحريرها من الدخيل ، ولم يزعجهم الكفاف ولا الشظف ولا الجفاف ، ولم تغرهم متارف الحياة ولم يلينوا وإنما اخشوشنوا ، وكانت قيادة صلاح الدين فى حطين، ويوسف بن تاشفين فى الزَّلاَّقة، وبيبرس فى عين جالوت – كلها صوراً للبطولة الرائعة المستمدة نموذجها من النموذج الأول : من محمد ﷺ، وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد ، وهى نماذج صدقت الله تبارك وتعالى ما عاهدته فنصرها وكشف عنها الضر . ولقد قدمت أرواحها وأموالها خالصة ورخيصة فى مختلف المواقع وعلى طول المدى خلال قرنين ويزيد ، حيث كانت كل هذه المواقع تزخر بالجهاد والعمل فى سبيل وجه الله .

كانت هناك معارك الأندلس مع الفرنجة ومعارك ساحل الشام مع الصليبيين ومعارك المسلمين مع التتار ، ومعاركهم مع الحشاشين ، واستطاع المسلمون إسقاط كل هذه المواقع حيث كانت الأرض الإسلامية الممتدة تزخر بالجهاد والنضال ومقاومة الغاصبين الذين انطلقوا فى كل مكان فى سبيل وقف الزحف الإسلامى .

وقدم صلاح الدين نموذج القائد المسلم الذى رباه القرآن وكَوَّنه محمد ﷺ ، وقتل الصليبيون ستمائة ألف فى دخول بيت المقدس من المسلمين حتى قال قائلهم : إن خيولنا كانت تسبح فى الدماء إلى ركبها ، فلما انتصر صلاح الدين ودخل بيت المقدس رفض أن ينتقم ، وقال إن دينى يمنعنى من أن أفعل ذلك . وأطلق صلاح الدين سراح القادة والجند الذين قاتلوه فى المدن التى احتلها بالحرب أو بالأمان ، وسمح لهم بالهجرة منها آمنين بدلاً من أن يقتلهم ، فتجمعوا فى مدينة صور الحصينة التى تحولت إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة بزعامة الملك « جى دى لوسين » الذى أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهداً بألا يشهر سيفاً فى وجه المسلمين .

كذلك فقد حمل لواء إيصال اللاجئين إلى بلادهم، وأرغم أصحاب السفن على نقلهم، يقول جون لامونت المؤرخ الأوربى : «لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً من رعاياه المقبلين وأن يطبع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان .

وكان هدف صلاح الدين هو سحق قوة الصليبيين السياسية ولم يكن إبادة المسيحيين والواقع أن صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة فهو ليس فاتحاً محرراً وإن كان الفاتح يقاتل بطبعه فإن المحرر يقاتل بإيمانه» .

* * *

(٧)

كيف ظهر جيل صلاح الدين وعادت القدس :

ذلك هو السؤال الذى نحتاج اليوم إلى البحث عن إجابة له مستمدة من مفاهيم الإسلام وأصالته، وذلك هو ما قصد إليه الدكتور ماجد عرسان الكيلانى حين درس عصر الحروب الصليبية وما لحقه من آثار اضطراب الحياة الفكرية فى المجتمع الإسلامى وآثارها فى إفساد الحياة الاقتصادية والاجتماعية وانحلالها ، وكذلك التحديات التى واجهت الأمة الإسلامية وخاصة تحديات الباطنية والفلاسفة (على النحو الذى نشاهده اليوم تماماً) وقد أجمل هذه الأمور فى ثلاث قضايا أساسية هى :

١ - الانحلال .

٢ - الانقسام المذهبى .

٣ - الفراغ السياسى .

وقال إن مدرستين بدأتا المقاومة هما :

مدرسة الغزالى ، مدرسة عبد القادر الجيلانى .

وكشف عن الحاجة إلى قائد مسلم ملهم ليس له مطمع فى الدنيا وإنما وجهته إلى الله تبارك وتعالى .

وإن القوانين القرآنية تقرر أن التغيير إلى الأفضل أو الأسوأ لا يحدث إلا إذا سبقهما تغيير اجتماعى يقوم به القوم أو الأفراد لما بالأنفس من مفاهيم واتجاهات ، وأن آثار هذا التغيير تنعكس على ما يقوم به من أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية .

وقد اعتبر أن قيام دولة آل زنكى الرشيدة وسياستها فى الإصلاح والتجديد هى منطلق التحول الذى طرأ على المنطقة ، فقد كانت مهمتها الأساسية إعداد الشعب تربويًا وإسلاميًا وعسكريًا، وصبغ الدولة بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية .

وهذا هو الذى مهد لظهور جيل التحرير : جيل صلاح الدين .

وقد أشار الباحث إلى التعاون الذى جرى بين المدرسة القادرية والدولة الزنكية فى إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبى والعمل فى المدارس النورية (نسبة إلى نور الدين محمود)، والصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين) . والمشاركة فى ميادين السياسة والجهاد .

وكان أبرز معالمها :

١ – نبذ التعصب المذهبى وتوحيد كلمة المذاهب .

٢ – بناء القوة العسكرية والصناعية الحديثة .

٣ – بناء الوحدة الإسلامية .

* * *

(٨)

ظهرت عشرات من الدراسات التى تكشف عن المؤامرات المبيتة فى الحملة الصليبية على العالم الإسلامى وقد كشفت عن استغلال البابوات ضعف اطلاع أوربا الغربية على ما كان يجرى فى الشرق ، فانصرفوا إلى تضليل العالم الكاثوليكى عن مطامع البابوية فى تأسيس دولة أوتوقراطية عالمية ، مستغلة الميول العدوانية للحكام الإقطاعيين. وقد اتفق نداء البابا أوربان الثاني مع مصالح الإقطاعيين فى الغرب . وقد تبين حين وصلت جحافل القوات التى خُدعَت ودُفعَت إلى المعركة أن بيت المقدس كان فى أتم الأمان، وأن المسيحيين فى القدس كانوا فى طمأنينة الإسلام الطاهرة التى فرضها وقام بها أمراؤه وملوكه على مدى العصور .

وإنما هى المطامع والأهواء ظنًّا بأن الإسلام يمكن القضاء عليه بالاجتياح العسكرى ، وقد ظهر ذلك على أشد صورة وأقساها بعد استعادة صلاح الدين بيت المقدس ، يقول قدرى قلعجى :

« صحت أوربا لسقوط بيت المقدس فى يدى صلاح الدين وتنادت إلى حملة صليبية ثالثة ، وبلغ من اهتمام ملوكها بالحرب الجديدة التى أعلنوها على الشرق أن تناسوا من

أجلها أحقادهم وخصوماتهم ، وكان أول من لبى الدعوة ملك صقلية وليم الثانى الذى أرسل إلى طرابلس (الشام) أسطولاً يتألف من ستين سفينة ، وتتابعت بعد ذلك إمدادات الفرنجة وتطويع الجميع للقتال ، ومن لم يستطع التطوع استأجر له عوضاً أو أعطى معونة .

كان الشرق والغرب يحشدان قواهما البشرية والمادية ليلتقيا من جديد عند أبواب مدينة وادعة تطل على سهول الأرض .

واستمر القتال فى البر والبحر عامين كاملين من تاريخ الحروب والفروسية تكبد فيهما الفريقان خسائر فادحه وكوارث جسيمة وأبدت (عكا) المحاصرة براً وبحراً مثلاً فريداً على صبر أهلها وصمود جيشها وشجاعة جندها ، لقد كانت ملحمة لا مثيل لها فى التاريخ . يحاصر الصليبيون فيها المسلمين ، وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين والقتال مستمر فى البر والبحر .

ثم تأكد ملوك أوربا أن الانتصارات التى أحرزتها الحملة الصليبية الثالثة على صلاح الدين والتى اشترك فيها خمسمائة أو ستمائة ألف صليبى ، وقضى من أجلها ما لا يقل عن مائة وعشرين ألف ضحية منهم ، إنما كانت انتصارات جزئية محلية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخة الصرح الراسية الأساس المترامية الأطراف التى تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان .

* * *

(٩)

ثم تحول بعد ذلك مسرح المعركة إلى مصر فكانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩م (الحملة الصليبية السابعة) ، وكان الصليبيون يعتقدون دائماً أن أمر الاستيلاء على بيت المقدس يجب أن يبدأ بضرب مصر ، بوصفها قلب العالم الإسلامى النابض وخاصة بعد أن أثبتت الحوادث أن مصر كانت الركيزة الأساسية التى اعتمد عليها صلاح الدين فى تحقيق انتصاراته عليهم، وفى استرداد بيت المقدس منهم ، وسبق أن اتجهت الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط ٦١٧ هـ - ١٢١٩م ، وانتهى مشروعها إلى الهزيمة .

وقد نظم الملك الصالح الاستعدادات الضرورية للدفاع عن البلاد فشحن دمياط بالذخائر والأقوات .

وكانت أوربا قد وجدت فى لويس التاسع ملك فرنسا ضالتها ليقود حملة صليبية جديدة توجه هذه المرة إلى مصر بوصفها قلب الأمة الإسلامية ، فإذا سقط هذا القلب أمكن

أن يعـودوا مـرة أخـرى للسـيطرة على الشـرق الإسـلامى دون خشـيـة قـوة كـبرى تـقف فى وجوههم ، ولم تلبث دمياط إلا قليلاً حتى هاجمتها الحملة واستولت عليها وجعلتها مركزها ثم بدأت تتجه منها إلى المنصورة وفارسكور فى الطريق إلى القاهرة ، وتجمعت جيوش مصر الإسلامية على شواطئ النيل والبحر الصغير فى المنصورة حيث واصل الملك الصالح - المريض النائم فى محفته - استعداداته فرتب الجيوش والفرسان ، وأعد المؤن والذخائر والسلاح ووقف الجمعان لا يفصلها إلا البحر الصغير ، وقد حاول الصليبيون إقامة جسر للعبور دون جدوى ، وبدأوا بالهجوم ، ولكنهم هزموا وقتلوا فى أزقة المنصورة ، وتقهقروا محاولين العودة إلى دمياط فحاصرهم جند المسلمين حصاراً عنيفاً بين مياه النيل التى تدفقت بعد قطع الجيش المصرى للجسور عليهم وأغرقتهم .

وفيما كانت رءوس الصليبيين تتساقط ودماؤهم تغمر مياه النيل ، كان لويس يحاول أن ينحاز بطائفة من الفرسان عند إحدى التلال قرب قرية ميت الخولى عندما طوقه الأجناد من كل ناحية وشهد مصرع فرسانه بين يديه فلما بلغ به اليأس غايته طلب التسليم فاقتيد ومن بقى معه مكبلين بالقيود إلى حيث سجنوا فى دار ابن لقمان حتى يفتدى نفسه، وكانت الفدية أربعمائة ألف دينار، فلما أرسلت إليه أطلق سراحه وعاد إلى عكا .

* * *

تلك مرحلة أخرى من مراحل الحروب الصليبية تتمثل فى حلم القديس لويس التاسع الذى جاء إلى الشرق الإسلامى قائداً لأعظم حملتين صليبيتين ، وعاد أدراج الرياح تطارده الهزيمة والأمراض .

وكان حلم ذلك الملك هو محاربة المسلمين والقضاء عليهم ، فكانت معركة المنصورة الخالدة درساً تاريخيًّا لا ينسى بانتصار المسلمين على قوات الحملة ولم يقنع القديس لويس بما نزل به ، فحاول بعد أن افتدى نفسه وخرج إلى عكا إقامة تحالف مع المغول - التتار - وعاد إلى فرنسا ينظم حملة جديدة سار بها إلى تونس وهناك كانت النهاية فقد مات الملك لويس تحت أسوار تونس دون أن يتمكن من اقتحامها وفشلت الحملة ، ولقيت حملة المغول الفشل ذاته على أرض عين جالوت ولم يلبث التتار الذين جاءوا للقضاء على الإسلام أن دخلوا الإسلام طوعاً وهم الذين عرفوا باسم القبائل الذهبية وأصبحوا هم أهل الإسلام وحماته .

قضى لويس نحبه تحت أسوار مدينة تونس ، وانتصر المسلمون فى عين جالوت بقيادة

الملك المظفر قطز على جيش المغول يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م ، وقتل القائد كتبغا ، وتمزق المغول شر ممزق ولم ينفع لويس مؤامراته المتعددة فى قبرص أو عكا بإرسال سفارة من الرهبان بقيادة (اندروبونج حيمو) للاتصال بالمغول واستعدائهم على المسلمين.

كذلك فلم ينفعه تحالفه مع طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) للعمل ضد المسلمين .

وكانت هذه هى الفصول الأخيرة للحروب الصليبية ففى خلال عشرين سنة بعد فشل حملة لويس كان المسلمون بقيادة الأشرف خليل بن قلاوون قد طردوا الفرنجة من عكا آخر معاقل الصليبيين .

ولنعد إلى القصة من أولها .

فقد أكملت دولة المماليك ما بدأه صلاح الدين من انتصارات ضد الأعداء فأكمل الظاهر بيبرس (بين عامى ١٢٦٠ /١٢٧٧م) ما قام به صلاح الدين الأيوبى من هزيمة الصليبيين، فقد أحرز النصر على التتار فى معركة عين جالوت ومزق شملهم .

ومهدت (عين جالوت) لتوحيد القطرين (مصر والشام) تحت راية المماليك حتى الفتح العثمانى بعد قرنين ونصف .

وقد حارب الظاهر بيبرس الصليبيين من ١٢٦٣ - ١٢٧١م ، وانتصر عليهم فى معظم المعارك واستعاد الكرك وقيسارية وأرسوف وصفد ، كما سقطت يافا ١٢٦٨م بدون مقاومة وواصل قلاوون (الملك المنصور) ما بدأه بيبرس فاستعاد طرابلس وغيرها .

وجاء الأشرف (١٢٩٠ - ١٢٩٢م) ففتح عكا، وكانت آخر معاقل الصليبيين وانتزعت منهم صور وصيدا وسلمت بيروت ونزل المسلمون طرسوس ودمروا آخر قلعة بقيت فى أيدى الصليبيين .

وهكذا سحق مماليك مصر آخر ممتلكات الفرنجة فى الشرق وأبادوها واحدة تلو الأخرى باستيلاء قوات الملك الأشرف خليل بن قلاوون على طرابلس ١٢٨٩م وعكا ١٢٩١ م .

وقد دمر المسلمون كل ما أقامه الصليبيون فى مائتى عام ومنها القلعة التى بنوها على مقربة من مدينة اللاذقية فى عشرين عاماً واحتلها المسلمون فى أربعة أيام فقد ظل صلاح الدين يمطر القلعة من الجبل المجاور بوابل من الحجارة الضخمة والسهام التى كانت تنفذ إلى صدور الصليبيين فى حصنهم .

واستمر الهجوم أربعة أيام وأربع ليال حتى بدأت مقاومة الصليبيين تنهار، وأسرع جنود

صلاح الدين فمدوا الجسر من الجبل إلى القلعة ، وانطلقوا فوق الجسر حتى بلغوا أسوارها الخارجية فتسلقوها بالحبال ، وكان المسلمون يقاتلون بأجسامهم وأيديهم وسيوفهم فى كل ركن وفى كل شبر ، وما لبث أن تقهقر الصليبيون تاركين جثث قتلاهم .

* * *

(١٠)

وفى المنصورة إبان اعتقال لويس التاسع تقرر موقف خطير :

هو أن المسلمين لا يهزمون بالحرب ، ولكن يهزمون بالكلمة .

يقول المؤرخ رينه جروسيه : إن الملك لويس التاسع كان فى مقدمة كبار ساسة الغرب الذين وضعوا لأوربا الخطط الرئيسية لسياسة جديدة مبتكرة بالنسبة لمستقبل آسيا وأفريقيا .

ويقول المؤرخ جان دى جوانفيل الذى رافق الملك لويس التاسع فى حملته على دمياط :

إن خلوته فى معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكر بعمق فى السياسة التى كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، وانتهى به فكره إلى تلك الآراء والمآخذ التى أفضى بها لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا مقلعاً إليها من دمياط .

وخلاصة هذه الآراء أنه لم يعد فى وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام ، وأن هذا العبء لابد من أن تقوم به أوربا كلها لتضييق الخناق على الإسلام ، ثم يقضى عليه ، وبذلك يتم لها التخلص من الحائل الذى يحول دون سيطرتها على آسيا وأفريقيا .

* * *

مراجعة عامة

ويقدم الدكتور ماجد عرسان الكيلانى مراجعة عامة .

يقول : ما الذى حدث خلال مدة نصف القرن الممتدة بين هزيمة المسلمين أمام طلائع الحملات الصليبية وبين ظهور عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ؟ وهل كانت حركتهم جهوداً فردية ابتدأوها أم كانت ثمرة مقدمات سبقتها وتجديد وإصلاح شمل المجتمع فَغَيَّر ما بأنفس القوم من قيم وتصورات وتقاليد وعادات، فغير الله (تبارك وتعالى) ما بهم من ضعف وتخلف بما أجرى على أيديهم من إنجازات؟ تبين المصادر التاريخية أن كلاً من عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين لم يكن سوى طليعة جيل ، أخرجته حركة تجديد وإصلاح عملت فى مجتمع شاعت فيه قبل ذلك عوامل الاضطراب السياسى والفكرى والاجتماعى وكان طابع الإنسان فيه – كما وصفه المؤرخ أبو شامة – كالجاهلية ، همُّ أحدهم بطنه وفرجه، ولا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً .

ولقد زار المؤرخ ابن جبير بلاد الشام والعراق ومصر آنذاك ووصف ما أسماه بالجهات المشرقية ، فذكر أنهم أهل أهواء وبدع وفرق ضالة وشيَع إلا من عصم الله من أهلها .

وقد جأر أولو الفضل من الأدباء والمؤرخين والكُتَّاب والشعراء الذين عاصروا هزائم المسلمين أمام الصليبيين – جأروا بالشكوى من تبلد ذلك الجيل أمام الاعتداءات الإفرنجية على مقدسات المسلمين وأعراض المسلمين وممتلكاتهم كما روى ابن الجوزى وابن كثير وابن تغرى بردى وغيرهم .

وفى هذه الظروف برزت حركتان إسلاميتان :

الأولى : (الأشاعرة) الذى أنجبوا فى هذه الفترة الإمام الغزالى وقطب الدين النيسابورى فكان لها دورها فى بعث الروح فى المجتمع الإسلامى آنذاك ، وفى محاضنها التربوية نشأ البيت الزنكى وتربى عماد الدين وابنه نور الدين .

والحركة الثانية هى الحركة القادرية التى أسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى شيخ الحنابلة آنذاك والتى ركزت على نصرة العامة والفقراء من جهة وعلى التعليم من جهة أخرى، وخصت أبناء الهاربين أمام الغزو الصليبى بعنايتها فكانت تحضر من أسمتهم (أبناء المقادسة) وتعلمهم وتعدهم إعداداً إسلاميًّا ثم تعيدهم إلى مناطق المواجهة .

ثم كان المنعطف التاريخى عام ٥٤٥ هـ بعد فتح نور الدين لدمشق حيث بدأ التحالف بينه وبين القادرية، فتعاون معه دعاتها وخريجو المدرسة القادرية فى التعليم والتوجيه وعلى يد أحد دعاتها المسمى على بن إبراهيم بن نجا الواعظ كان التحول فى شخصية صلاح الدين عام ٥٦٤ هـ ، وكان قبل ذلك شاباً مولعاً بركوب الخيل ولعب الكرة وشرب الخمر (ابن شداد – المحاسن اليوسفية) [(سيرة صلاح الدين) ص ٤٠] .

وقد ترتب على هذا الالتقاء بين نور الدين والقادرية أن توحدت جهود حركتى الأشاعرة والقادرية ، فوجه هذا المجتمع اهتمامه نحو مصر وبث الدعاة فيها وعلى رأسهم ابن نجا حتى إذا خرجت حملة أسد الدين وصلاح الدين كان الرأى العام المصرى قد تهيأ لا ستقبالها تماماً، ولقد ظلت الحركتان ترعيان حركة التجديد وتسهمان مع نور الدين وصلاح الدين فى جميع الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ولم تخرج حركة التجديد والإصلاح التى رافقت الغزو المغولى عن هذه المنطلقات وإنما شابهتها فى المنطلق والأساليب .

غير أن هناك فارقاً أساسيًّا بين تجربة المسلمين مع الصليبيين ، وتجربتهم مع المغول ، رغم الضجيج التاريخى الذى أحاط بالأولى ومنحها اهتماماً أكثر من الثانية .

فقد كان تغلب المسلمين على الصليبيين لا يعدو عن كونه نصراً عسكريًّا فى جولة محددة لم يصحبها فتح فكرى ، وإنما انسحب الصليبيون إلى بلادهم وأعادوا تنظيم صفوفهم ثم أعادوا الكرَّة فى الأندلس وشمال أفريقيا وبلاد الشام وتركيا والهند خلال القرون الخمسة التالية .

أما تجربة المسلمين مع المغول فقد بدأت بانتصار عسكرى فى عين جالوت ، ثم تبعه فتح فكرى قضى على خطر المغول نهائيًّا وأحالهم إلى جنود للإسلام نفسه .

وهناك فارق بين حركات التجديد والإصلاح فى عصور المد الإسلامى وبين مثيلاتها فى عصور الركود والتخلف وهو أن الحركات التجديدية الأخيرة وإن منحت المجتمع الإسلامى قسطاً من العافية التى مكنته من دفع الأخطار التى داهمته من الخارج ، إلا أنها لم تحدث فيه من داخله التغيير الذى يؤهله لانطلاق حضارى يعيده إلى مرتبة القيادة الإنسانية ، كما أنها لم تخرج أى شعب مسلم جديد الإخراج الذى يؤهله لحمل رسالة الإسلام والارتقاء به إلى مكانة التوجيه العالمى .

لقد كان المطلوب منها أن تغير سلَّم الأفكار والقيم التى اضطربت فى عصور الركود

والتخلف ، وأولى حلقات هذا السلم أن يصبح (الفكر موجهاً للسياسة) بدل الاختلال الذى أصاب المجتمع الإسلامى حين عَدَت السياسة على الفكر وصارت توجهه .

ولقد حاول ابن تيمية أن يقوم بهذا الدور وأن يعمقه فى حياة المسلمين وهو محتوى السلفية التى دعا إليها ، وما كان تصرفه فى دمشق والقاهرة وعين جالوت إلا انطلاقاً من هذا الدور الذى جاهد فى سبيله ، ولكن صلابة الرأى الفكرى والقيمى الذى عم الحياة الفكرية من حوله كان أقوى من جهوده فاصطدم نتيجة لذلك بالعلماء والحكام سواء ، وأثار حنقهم عليه حتى سجنوه ، ولم يخرج من سجنه إلا بعد أن توفاه الله .

* * *

ملاحق البحث

١- بين المسلمين وبيزنطة

أولاً : منذ أن وجه الرسول ﷺ القوى الإسلامية إلى موقعة مؤتة ، ثم قاد عليه الصلاة والسلام الحملة التى أطلق عليها معركة (تبوك) اتضح أن الدولة البيزنطية هى أخطر المواجهات بين المسلمين وأعدائهم ، ومن هنا كانت الحملة التى توفى الرسول ﷺ وراياتها مغروسة أمام مسجد المدينة بقيادة أسامة بن زيد ، علامة على الطريق الذى سلكه المسلمون بعد ذلك .

وقد انتزع المسلمون من الروم مصر والشام والمغرب ، وحاصروا القسطنطينية أكثر من مرة ، وأوقعوا الهزيمة بأسطول الروم فى معركة ذات الصوارى ، وتعد معركة ذات الصوارى من المعارك البحرية الحاسمة فى تاريخ الدولة الإسلامية ، إذ غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط لأنها قضت على أسطورة ما يسمى (بحر الروم) ، وصار للقوات البحرية العربية الإسلامية فيه الكلمة العليا ، كما أن الأباطرة الرومان أدركوا أن الأسطول الإسلامى صار قوة ضارية فى البحر المتوسط ، وأن دولة الروم لا تستطيع إخراج العرب من البلاد التى تملكوها على شواطئ هذا البحر .

ويرى المؤرخون أن هذا الانتصار يشبه انتصار معركة « اليرموك » لأنه كان إيذاناً ببداية السيادة البحرية الإسلامية ، ونهاية السيادة الرومانية ، كما أن الروم لم تقم لهم بعد هذه الغزوة فى البحر قائمة .

وكان عبد الله بن سعد بن أبى السرح على رأس الأسطول الإسلامى الذى اشتبك مع الروم ٣٤ هـ ٦٥٤م وأوقع الهزيمة بأسطولهم الذى كان يقوده الإمبراطور قسطنطين الثانى ، وتولى حصار القسطنطينية، كما غزا معاوية القسطنطينية ووصل إلى أسوارها ثم أرسل حملات برية وبحرية متوالية ، واستمرت المعارك حتى رفع الحصار عمر بن عبد العزيز ٦٩ هـ ٦٨٨م .

ثانياً : أما هارون الرشيد (فى العصر العباسى) فكان له دور طويل مع البيزنطيين، بدأ بهدنة وجزية مفروضة على حاكمة هذه البلاد (ايرتينى) وعندما تولى (تقفور) أرسل إلى هارون الرشيد - سنة ١٨٧ هـ - كتاباً ينقض فيه الهدنة ويطالب بإعادة الجزية التى دفعتها الإمبراطورة .

وكتب يقول : من تقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب : أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرُّخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت خليقاً بحمل أمثالها اليوم، ولكن ذلك من حمق النساء وضعفهن. فإن قرأت كتابى فاردد ما حُصِّلَ قِبَلَكَ من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك .

ورد الرشيد بكلمات : من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم.. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام .

ثم خرج هارون لمحاربة تقفور يقود جيوشه الجرارة فاخترق آسيا الصغرى حتى تمكن من كسر كبرياء هذا الإمبراطور، وأخيراً عقد صلحاً أرغم فيه الإمبراطور على دفع الجزية من جديد .

هذا هارون الرشيد الذى طالما شوه شخصيته المستشرقون وأذنابهم فى البلاد الإسلامية ولكن ذلك لن يضيره .

ثالثاً : ونذكر موقف المعتصم عندما بلغه خبر المرأة المسلمة التى لطمها رومى على وجهها الحر الكريم ونادت : وامعتصماه !

فلما بلغه أمرها قال : لبيك يا ابنة الكرام لبيك لبيك هذا المعتصم بالله أجابك .

وتجهز من فوره، فى اثنى عشر ألف فرس أبلق تطوى سنابكها الأرض طيًّا، ليغيث الملهوف .

وكانت عمورية مدينة قد أحكم تحصينها ، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً أو يزيد ، فحاصرهم المعتصم وطال حصاره لها وأجهد العدو الحصار، وسرعان ما اقتحم أسوارها وأشعل النار فيها وقيل إنه عندما بلغه الخبر كان فى يده كأس ماء فلم يشربها ووقف ولم يقعد .

رابعاً : كانت معركة ملاذكرد هى مقدمة الحروب الصليبية فقد قادها الملك السلجوقى ألب أرسلان ٤٦٤ هـ - ١٠٧١م ضد بيزنطة وحقق فيها نصراً كاسحاً وقتل فيها الإمبراطور البيزنطى رومانوس وأحس الغرب كله أن دولة الروم لم تعد قادرة على حماية وجودها .

ومن هنا نشأت فكرة الغزو الخارجى الذى حشدت له الكنيسة وأوربا كل القوى المدفوعة بإغراء كاذب ، هو تخليص قبر المسيح الذى كان فى أمان، ولكنها مؤامرة الغرب

على الإسلام .

خامساً : دفعت فريضة الجهاد بالآلاف من المتطوعين المسلمين فى كل عام إلى خوض غمار الحرب ضد البيزنطيين والصليبيين من بعدهم الذى هددوا حدود العالم الإسلامى، وكانت (الرُّبُط) وهى الأماكن التى رابط فيها المتطوعة على الحدود ليست مثابة للحرب فحسب بل والعلم أيضاً .

سادساً : قال بيبرس سميث فى كتابه عن سيرة المسيح :

إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة بلغت المسيحية فيها غايتها .

سابعاً : عندما دخلت القوات الصليبية ١٠٩٩م فى الحملة الأولى إلى سواحل الشام ولبنان رحبت بها المارونية وتعاونت معها للقضاء على الإسلام وتدمير القدس وفلسطين. ويقول النص التاريخى .

(حتى إذا أطلت طلائع الصليبيين على لبنان أمكن الموارنة من أن يمدوهم بثلاثين ألف محارب أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم) .

ثامناً : ومن أجل موقف هارون الرشيد تعرضت شخصيته إلى حملات قاسية من المستشرقين الغربيين ليصوروه بصورة مزرية ، وكان هارون الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً ، ويبدو أن المؤامرة كانت خبيثة إلى الحد الذى جعل هؤلاء الشانئين يدسون مفترياتهم فى ثنايا وحواشى السير الشعبية ، تلك التى أتى عليها حين من الدهر مكن لها أن تنتشر ، وأن يكون لها من الذيوع ما لأجهزة الإعلام الحديثة الآن .

* * *

٢ - مراجعات حول الحملات الصليبية

أولاً : كانت الحملات الصليبية حرباً دينية من ألفها إلى يائها على غير ما يلقنون أبناءنا فى المدارس ، أعلنها البابا أوربان الثانى فى خطبته التى ألقاها ذات يوم من خريف ١٠٩٥م .

« اذهبوا دفاعاً عن المسيح .. حاربوا الكفار .. تحركوا نحو القبر المقدس .. انتزعوا الأرض من سلطان الجنس الملعون واحتفظوا بها لأنفسكم ، وفى تلك الفترة يفيض اللبن والعسل ، فأورشليم أرض الله من أخصب الأراضى ، وسوف تنتزعون من عدوكم ثروات

أعظم وأضخم» .

وهكذا استطاع البابا أن يوحد شعوب الغرب الأوربى نحو غاية واحدة رغم اختلاف تلك الشعوب جنساً ولغة وعادات واهتمامات .. جمعهم تحت راية الصليب .

ويرد اسم البابا أوربان على استحياء متوارياً بين الأسطر حين يتحدث مؤرخونا عن الحروب الصليبية ، ولكن أحداً من المسلمين لم يدرسه أو يؤرخ له ، والخطبة لم تترجم إلى لغتنا وما نعرفه منها هو ما قدمه لنا الأوربيون أنفسهم ، ولم تنس أوربا هذه الحروب إنما تدرسها جيداً وفى عمق لتأخذ منها العبرة فى سياستها الآتية حيث تبلغ مصادر الحروب الصليبية فى الغرب ستة وعشرين مجلداً ضخماً .

وفيما قبل الحروب الصليبية بثلاثين عاماً منح البابا إسكندر الثانى المحاربين الكاثوليك الذين يقاتلون مسلمى الأندلس غفراناً، وأعفاهم من التوبة واعتبر قتالهم المسلمين تكفيراً عن خطاياهم .

ثانيــاً : يقرر كثير من الباحثين أن السبب الرئيسى فى وقوع الغزو الصليبى هو تفرق المسلمين ، والنزاعات التى كانت قائمة بين المسيطرين على دولها ، والفوضى المحزنة التى عمت بلاد الشام نتيجة لهذه الخلافات والمنازعات .

ويقول الدكتور حسين مؤنس : كان بطرس الناسك قد قام برحلة الحج إلى بيت المقدس، وأدهشه ما رآه من ضعف بلاد المسلمين ، فعاد إلى الغرب وزار روما ونبه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة ، فإن بلاد المسلمين فى حالة يرثى لها من الضعف، ولابد من الإسراع بحملات عسكرية لاستخلاص الأراضى المقدسة من أيديهم ، وطاف بالبلاد داعياً فى حماس شديد إلى الإسراع بحرب المسلمين .

وكانت خطبة البابا أوربان الثانى فى نوفمبر ١٠٩٥ م (سيروا نحو القبر المقدس وخلصوا الأرض المقدسة من أيدى الغاصبين) .

وقد كان ذلك مطابقاً لرغبة الكنيسة الكاثوليكية فى تحقيق ما كانت تطمع فيه من سيادة العالم المسيحى بتوجهها نحو حركة واسعة يشرف عليها رجال الكنيسة .

وكان خوف الروم (البيزنطيين) من تقدم السلاجقة المطرد فى آسيا الصغرى وتهديدهم الدولة المسيحية البيزنطية بالزوال مما دفع الغرب المسيحى إلى الإسراع لإنقاذ ذلك البلد المسيحى ، وقد تمكنت الكنيسة من قيادة أوربا وتوجيهها نحو حرب المسلمين فى الأندلس والشام وحوض البحر المتوسط والمطالبة بالحق فى سيادة العالم المسيحى .

وقد أنشأ الصليبيون ثلاث إمارات فى أنطاكية وطرابلس والرها وأقاموا مملكة بيت المقدس .

* * *

٣ - دور السلاجقة فى المقاومة الإسلامية :

يقول الدكتور حسين حبشى إن ظهور الإسلام على مسرح التاريخ يعد نقطة انتقال مهمة فى التاريخ الإسلامى ، فقد نشأت عدة دويلات من هذه الزمرة الصغيرة التى خرجت من بخارى يقودها مسلمون ويدفعها حبها للمخاطرة . . أما من الناحية الدينية فقد كانوا حماة الإسلام ، يذبون عن بيضته وينافحون عنه ، ونبغ فيهم رجال نصروا الحنيفية السمحة كما ظهر فى أيامهم أئمة أدرجوا فى عداد المجتهدين .

وحسبنا أن نذكر من هؤلاء حجة الإسلام الغزالى .

قال هربرت لوى : إنه لا يعزى إليهم فحسب ما منى به الصليبيون من فشل ذريع بل يرجع إليهم كذلك الأثر المباشر للشرق على الغرب ، ذلك الأثر العظيم عن الاختلاط الذى كان بين الفرنجة والمسلمين فى الحروب المقدسة ، فقد كان ظهور شأن السلاجقة مقوياً للمذهب السنى ، كما يرجع إليهم الفضل فى إعادة الوحدة إلى الإمارات الإسلامية الممزقة . . كما أنهم وضعوا أسس الإمبراطورية العثمانية فى القسطنطينية ، فهم مسلمون هاجروا من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، ويرجع ظهور سطوتهم إلى هذه الهجرة وإلى اعتناقهم الإسلام ، فأصبحوا دعاة المذهب السنى على عكس الفرس الذين سايروا المذهب الشيعى .

ظهر السلاجقة فى وقت كانت فيه عوامل الضعف والانحطاط تعمل فى جسم الخلافة العباسية ، وقد أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بالحرس التركى وكادت الدولة العباسية أن يودى بها لولا أن قيض الله لها السلاجقة فانقذوا الإسلام ، كما أن شموخهم فى وجه الغرب أضاف عنصراً جديداً إلى الإسلام ومكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين .

وقد وحدوا الأقاليم الممتدة من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة وإن كان لفترة محدودة ، وردوا الصليبيين والبيزنطيين محافظين على حياة الخلافة العباسية التى ظلت قائمة حتى تخريب المغول لبغداد ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية فى مصر .

قال لين بول : إنهم أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها ، وأوجدوا جيلا من المجاهدين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم ما عاناه الصليبيون من إخفاق مرات عدة ، وهذا ما

يجعل للسلاجقة المكانة الهامة فى التاريخ الإسلامى .

ويعد أول قادتهم طغرل بك الذى دخل بغداد ١٠٥٥م ، وخرج لغزو بلاد الموصل وديار بكر ، ثم ألب أرسلان الذى انتصر على ملك الروم أرمانوس ، وامتدت رقعة ملكة من أقصى بلاد ما وراء النهر إلى أبعد أطراف الشام .

ويضيف الباحثون أن الدولة السلجوقية اضطلعت بأدوار مهمة فى التاريخ الإسلامى وفى تتريك بلاد الأناضول في أعقاب الهجرات التركية القومية من تركستان إلى الأناضول والبلقان .

وكان الإسلام قد رسم لمختلف القوميات خطة التآخى والتعايش السلمى فى إطار من العدالة والتوحيد والتعارف وعدم التفاخر .

وقد وجدت الخلافة العباسية أن مصلحتها تقتضى الاستنجاد بالسلاجقة الذين لم تفسدهم الشعوبية والأهواء والبدع ، ولم يتسرب الفتور إلى حماستهم للجهاد والدين لتحرير دار الخلافة من نير البويهيين الذين هانت عليهم الخلافة العباسية أى هوان .

* * *

٤ – مراجعات حول صلاح الدين الأيوبى :

جاء صلاح الدين على قمة الخطة التى حررت القدس والأرض العربية من الحملات الصليبية ، وكانت بداية العمل الذى حققه من بعد بيبرس وقلاوون وغيرهما .

ولكن صلاح الدين كان مسبوقاً بالعمل الذى مهد له وأرساه عماد الدين زنكى ونور الدين .

وقد حكم نور الدين (٥٤١ – ٥٦٩ هـ) دولة امتدت من حدود بلاد فارس حتى صحراء ليبيا، ومن جبال الأناضول حتى النوبة واليمن ، وقد أنشأ دولته فى وسط تحديات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا فى قلب المنطقة فى الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين ، وكانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد .

وقد نفذ سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين وعبر المنجزات السابقة التى حققها قادة سابقون فى مراحل البدايات من ٥٠٢ هـ وخاصة ما قام به عماد الدين زنكى والده (٥٢١هـ – ٥٤١ هـ) وفتح الطريق لظهور القيادات التى قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبى .

وقد استطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه وارثاً فعليًّا لأملاك دولة نور الدين بعد وفاته ،

وأن يجعل مصر وسوريا وأعالى العراق تحت حكمه فكان ذلك نذيراً بدنو ساعة الصليبيين، وكانت مصر صاحبة الزمام جغرافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا فى تلك الإمبراطورية الصلاحية ، ولم يلبث صلاح الدين أن بلغ أقصى ما تمناه بعد أن شن حرباً خاطفة ، قضى بها أولاً على زهرة جنود الصليبيين فى حطين وقرب طبرية وبعد أن استولى على مدينة القدس نفسها ولم يبق من مملكة بيت المقدس بأيدى الصليبيين سوى مدينة صور .

وكان نصر حطين ودور مصر هو السبب فى قدوم الحملة الصليبية الثالثة لإخراج صلاح الدين من مدينة بيت المقدس على الأقل ، وكان إخفاقها فى تحقيق ما أتت من أجله ، ومن هنا بدت فكرة أن الطريق لاسترداد المملكة الصليبية يبدأ أولاً وقبل كل شئ بالاستيلاء على مصر ، ومن هنا كانت الحملة الصليبية الخامسة تتجه إلى مصر مباشرة وتحتل دمياط وفارسكور .

وقد وصف المؤرخ العالمى جيبون فى كتابه « سقوط الإمبراطورية الرومانية » صلاح الدين فقال :

كان متواضعاً لا يعرف البذخ أو الترف ، ولا يرتدى سوى عباءته المصنوعة من الصوف الخشن ولم يعرف غير الماء شراباً ، وكان متديناً قولاً وفعلاً . . يشعر بالأسى لعدم تمكنه من أداء فريضة الحج لأنه كان منشغلاً فى الدفاع عن الدين الإسلامى ، وكان يحافظ على تأدية الصلوات الخمس فى أوقاتها ، فيقف خاشعاً مع أصحابه وإذا ما اضطر إلى الإفطار فى رمضان فإنه يؤدى الزكاة بسخاء بالغ ، ومن شدة ورعه وتقواه أنه كان يقرأ القرآن وهو على صهوة جواده أثناء المعارك ووسط الجيوش المهيأة للقتال .

* * *

الباب الثاني

الزحف المغولي التتري على أرض الإسلام من سقوط بغداد إلى نصر عين جالوت إلى إسلام بركة خان

الأحداث الكبرى

دخول قوات المغول بغداد ٦٥٦هـ - ١٢٥٧م

انتصار جيش مصر على جحافل التتار ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م

حملة التتار على حلب ٦٥٨هـ

الاستيلاء على انطاكية ٦٦٦هـ - ١٢٦٨م



يقول الأسقف دى سيل فى كتابه عن الكنيسة والحملات الصليبية :

لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها ، فقد هلل لها الغرب ، وارتقب الخلاص على يد هولاكو وقائده المسمى كتبغا الذى تعلق أمل الغرب عليه لتحقيق القضاء على المسلمين ، وهو الهدف الذى أخفقت فى تحقيقه الجيوش الصليبية ، ولم يعد للغرب أمل فى بلوغه إلا على أيدى التتار خصوم المسلمين .

* * *

وعندما هاجم التتار بغداد أو دمشق فقد استقبل نصارى الشام ولبنان « جنكيزخان » خارج مدينة دمشق ، وقدموا له الهدايا وكان معهم صليب يحملونه على رءوس الناس ، وأيد المسيحيون فى أوربا حملة التتار لأن زوجة هولاكو كانت مسيحية ، وكانت هذه خطوة من خطوات الحلف الذى عقده ملوك أوربا مع التتار لتدمير البلاد العربية والإسلامية .

جاءت القوى التى تحاصر الإسلام من الشرق ومن الغرب .. من قلب أوربا ممثلة فى الصليبيين، ومن وراء النهر فى آسيا ممثلة فى التتار والمغول الذين خرجوا يحطمون كل ما يقف فى طريقهم لايردهم شئ حتى دخلوا بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عام ٦٥٦هـ فدمروها ، فى الوقت نفسه الذى كانت الشام وساحل البحر الأبيض محاصرين بالقوى الصليبية التى أقامت المملكة اللاتينية منذ ٤٩٢ هـ قبل قرن ونصف قرن من الزمان وكانوا قد انطلقوا تحت صيحة البابا إريانوس الذى دعاهم الى تحرير بيت المقدس من المسلمين، وقتل فى المعركة الأولى سبعون ألفاً فى يوم واحد .

وهكذا تآمرت القوى المعادية للإسلام من الشرق ومن الغرب .. من المسيحيين ومن الوثنيين على السواء ، وعقدت الأحلاف العسكرية بين الصليبيين والمغول قبل قرن كامل من دخول بغداد .

كان الهدف هو أن تلتقى الجيوش من الشرق ومن الغرب لتضغط وتضع الإسلام والمسلمين بين فكى الكماشة ، فجرى التآمر بين الصليبيين والتتار على حصار المسلمين ، وكانت المؤامرة قد رسمها أحبار اليهود المتآمرين منذ وقت طويل، ولكن التتار الذين لم ينهزموا قط منذ خرجوا من وراء النهر وفى خلال أكثر من ستين عاماً لم يلبثوا أن اصطدموا بحاجز الإسلام القوى فى (عين جالوت) بعد السيطرة على بغداد بعامين اثنين فارتدوا على أعقابهم ، وكان العالم كله قد وقف يلتقط أنفاسه حين خيل إليه أن

المغـول سـوف يعـبرون إلى أوربا فيحطمون روما .

ولم تمـض إلا عـقـود قليلـة حـتـى اسـتـوعـب الإسـلام التـتـار ، فـذابوا فـيـه ، أمـا الصليبييـون فقد ارتدوا خلال قرنين منهزمين ، ليحاولوا مع الإسلام محاولة جديدة .

* * *

لقد اجتاح التتار الشرق الإسلامى بقيادة زعيمهم هولاكو يدمرون مدنه وعواصمه حتى وصلوا بغـداد (٢٠ المحرم ٦٥٦هـ) ومنهـا إلى الجـزيرة والفـرات وحلب وحـمـاة ودمـشق ، ولما وصل التتار إلى حلب (صفر ٦٥٨ هـ) اقتحموها .

كان التحالف بين التتار والصليبيين قائما ، والتنسيق بينهما متصلا ، وكانت ممالك الصليبيين فى بلاد الشام والأناضول تعانى من هزائم متلاحقة بعد هزيمة حطين (٥٨٣ هـ – ١١٨٧م) . وبعد أن تعرضت حملتهم على مصر بقيادة الملك لويس التاسع إلى نهاية مروعة .

وقد عرض الصليبيون على المغول القيام بالالتفاف حول المسلمين وقطع الطريق على قواتهم الزاحفة من مصر إلى الشام للقاء التتار .

وأخذ كتبغا دمشق دون مقاومة ودمر القلعة وأسوارها بالمجانيق ، وأغار الصليبيون على نابلس .

وتصـدى الشـيخ العـز بن عـبـد السـلام لكشف التـحـالف القـائم بين ملك دمـشق والصليبيين، ودعا إلى الوحدة بين المسلمين ونبذ الخلاف وجاء يعرض السلام على مصر ، وانضم قطز إلى جيش مصر فى بداية المواجهة الحاسمة ، وكان قد شارك فى معركة دمياط ضد الصليبيين التى أسر فيها القديس لويس .

وفى معركة سقوط بغداد تحالف التتار مع الأرمن والصليبيين ضد المسلمين .

أما التتار فقد زحفوا صوب مصر بعد أن بسطوا سلطانهم على حلب وحماة وبعلبك والبقاع ودمشق وعبروا فلسطين فوصلوا إلى غزة ، وأرسل هولاكو رسالة إلى الملك المظفر قطز تتضمن إنذاراً شديد اللهجة ممزوجاً بالاستعلاء والاستكبار والوعيد .

وعقد قطز اجتماعاً بالأمراء والأعيان ، ووقف الشيخ العز بن عبد السلام يحث على فضائل الجهاد ، وتطوع الشباب للقتال من الصعيد والدلتا .

واستجاب المماليك لصيحة العلماء بالتنازل عما عندهم من النفائس والحلى والجواهر ،

وحسم السلطان قطز الأمر حين أوفد رجاله إلى قصور المماليك يحضرون صناديقهم إلى الديوان .

وأعد قطز عشرات المراكب والمجانيق ، وتدفق السلاح إلى القاهرة وكان جيش التتار بقيادة كتبغا فى عشرة آلاف وقد عمل على استمالة الصليبيين بالساحل السورى إلى صفه فى الوقت الذى تقدم فيه جيش المسلمين بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى نحو غزة .

واختار قطز شهر رمضان وذكرى غزوة بدر وغزوة الفتح موعداً للمعركة وأخفى معظم جيشه فى الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت بعد أن اتجه من عكا نحو الأردن وعبر الخليل ثم نابلس وبيسان .

وقتل المسلمون كتبغا قائد الجيش ، وتحطمت جبهة العدوان وتمزقت أسطورة العدو الذى لا يقهر ،ولاحق المسلمون فلول التتار .

وبعث بركة خان رسالة إلى الظاهر بيبرس عبر فيها عن تعصبه للإسلام وحربه للتتار وقال : لقد حاربت هولاكو وهو أخى من لحمى ودمى إعلاء لكلمة الله وتعصباً لدين الإسلام .

* * *

كانت عين جالوت فى تقدير مؤرخى الغرب أعظم معركة حافظت على الحضارة الإنسانية كلها فى العالمين الإسلامى والأوربى بكل ما عندهما من تراث عظيم ، وفيها انتصر جيش مصر الإسلامية على جحافل التتار عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) ، فكسر شوكتهم وحمى البشرية من أخطارهم ، وكان لهذه المعركة كما يقول الدكتور محمد نايل وجهان مضيئان :

١ - الوجه العسكرى .

٢ - الوجه الشعبى .

ولكل منهما ملامحه وآثاره الواضحة المستقلة .

وقد حفظ التاريخ بأمانة وصدق دور كل منهما فى أى معركة شهدها العالم القديم والحديث ، فقد كان دور القيادة العسكرية فى موقعة عين جالوت دوراً بارزاً فيه من البسالة والإقدام ما سجله التاريخ بكل فخار وتقدير .

وعلى الجانب الآخر كان دور القيادة الشعبية بقيادة العلماء وكانت أعظم خطراً وأكبر

أثراً بحكم أن الروح المعنوية هى السلاح القوى .

لقد كان انتصار التتار فى زحفهم على العواصم والحواضر الإسلامية انتصاراً بشعاً، أثار الرعب والفزع في النفوس مما كانوا يفعلونه فى تلك المواقع من حرق وقتل وتخريب لم يحدث منذ أن عُرف تاريخ الحروب ، ولم يكن فى استطاعة أى قوة فى الأرض أن تواجه هؤلاء القساة المتوحشين ما لم تكن على مستوى غير عادى من الإعداد الروحى المتين الذى لا يحفل بالحياة ولا يهاب الموت .

ولن يستهين الناس بالموت ويتسابقوا إليه ساخرين بالحياة إلا إذا كانت العقيدة هى الدافع المحرك ، فهى وحدها القادرة المسيطرة ، ولم يكن فى مقدور قطز ولا بيبرس من القادة العسكريين أن ينهض بهذه الأمة بإيقاظ الشعور الدينى وإثارة الحمية الإسلامية للدفاع عن الدين والوطن ، فتلك مهمة العلماء والدعاة فى كل عصر .

ولقد كان علماء الأزهر بقيادة العز بن عبد السلام على مستوى الموقف ومسئوليته ، فنهضوا فى حزم ، وألزموا الأمراء والمماليك قبل أن يلزموا الشعب بما عليهم من تبعات وواجبات ، وأمروا المماليك ألا يأخذوا من الشعب شيئاً من الضرائب والمكوس التى تلزم المعركة إلا بعد أن يقدموا ما فى خزائنهم من أموال وجواهر لتكون فى خدمة المعركة ، وقد انصاع هؤلاء وأخرجوا كل مدخراتهم ، وعندئذ اندفع الشعب يقدم كل ما يستطيع مما يبذل للمعركة من مال ورجال .

ثم أشعلوها فى قلوب الشعب ناراً تتأجج لتحرق أولئك القساة ، ولم يكن غير العقيدة حاسماً فى المعركة ، ولم يكن أمام قطز حين أحس بخطورة الموقف إلا أن ينزل عن جواده ويصرخ فى الجنود : « وا إسلاماه » فكانت الفيصل وكان النصر .

* * *

دمر المغول عاصمة الإسلام (بغداد) تدميراً ، وقتلوا الخليفة وأهل بيته وأعمل هولاكو السيف فى المسلمين بضعة وثلاثين يوماً حتى بلغ عدد القتلى ٨٠٠ ألف قتيل .

وكانت جموع التتار قد تحركت من آسيا الوسطى فى بداية القران الثالث عشر الميلادى واستمرت هذه العاصفة حتى آخر عام ١٢٦٠م عندما أوقفها المسلمون فى عين جالوت بفلسطين .

وقد تعاون الوزير العلقمى مع القوى الصليبية واليهودية على الخلافة التى كانت قد وصلت إلى آخر مرحلة من الضعف .

وتروى كتب التاريخ أن العلقمى وزير الخليفة كاتب التتار ودعاهم إلى دخول بغداد ودلهم على عورات البلاد وساعدهم على إضعاف الجيش .

وقد أجمع المؤرخون على أن هولاكو قتل كبار بغداد بعد قتل الخليفة وحاشيته وأن العلقمى لم يصب بسوء .

وقد قام التتار بأعمال تخريب ضخمة كان أشدها قسوة إحراق كتب التراث الإسلامى .

وتذكر المصادر التاريخية أنه بعد سقوط بغداد في يد المغول؛ كانت ردود الفعل القوية تتمثل فى الحماس الزائد لنشر الدعوة الإسلامية درءاً للتصدع السياسى الذى أصاب العالم الإسلامى ، وظهر ذلك فى اعتناق بعض مقاطعات الهند للإسلام وانتعاش المراكز التجارية الإسلامية التي قامت فى أجزاء من سواحل الملبار والكردماندل وشمال سومطرة التى كانت محطاً مهماً للتجار المسلمين .

وقد كان لهذا الحدث الخطير نتائجه السريعة، فقد دفع المسلمين إلى كتابة الموسوعات الضخمة التى جمعوا فيها ما تفرق من تراث المسلمين التاريخى والعلمى فظهرت الموسوعات التاريخية وموسوعات التراجم والموسوعات الجغرافية والديوانية واللغوية وبرز علم الرجال ، وسجل علم الرجال أسماء البارزين .

ودار الجدل حول الإمامة والخلافة، وحمل طابع الوحدة الإسلامية وأن أمة الإسلام واحدة مع تعدد الشعوب المسلمة من زنج وترك وعرب وفرس ومغول وبربر وأرمن وهنود ، وتعدد الدول وتفاوت الطبقات الاجتماعية وكل هذا ينتهى عند القانون القرآنى أن هذه الأمة أمة واحدة ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [الأنبياء : ٩٢] وأن الأمة الإسلامية هى آخر الأمم ولا أمة كبرى بعدها، وأنها آخر الأمم وخير الأمم ، وأن المؤمنين إخوة فهى خير أمة أخرجت للناس فى المعنى الأوسع فكراً وتقاليد وأخلاقاً وموقفاً حياتيًا ونظاماً فى الحكم .

وقال المؤرخون إن تاريخ الإسلام هو تاريخ البشرية الأخير ، وإن دولة الإسلام هى الدولة العالمية الحائزة لرضا الله تبارك وتعالى على الأرض .

وتحدث المؤرخون عن سقوط بغداد بيد المغول وقالوا : أنه لم يكن سقوطاً مادياً بقدر ما كان سقوطاً معنوياً فتلك العاصمة التى كانت لخمسة قرون سلفت تربط عن طريق الخلافة الإسلامية الشرق الإسلامى – الإيرانى بالحوض الشرقى العربى للبحر المتوسط والبحر الأحمر ثقافة وسياسة ومجتمعاً واقتصاداً انتهت مهمتها بسقوطها فى يد المغول .

وانقطع الجناح الغربى من أرض الخلافة العباسية عن الجناح الشرقى وقد هاجر هذا المركز غرباً إلى دمشق والقاهرة اللتين تقاسمتا مركز بغداد السابق كما توزعتا هجرة العلماء المسلمين إليهما من كل فج خلال القرنين ٨ ، ٩ فقام عصر من النهضة يعيد عصر النهضة الإسلامية .

ولقد كان لنكبة بغداد وتنامى الشعور بالخطر على الإسلام وبلاد الإسلام بعد الحروب الصليبية ، وتكرر هجمات المغول والتتر فى الشرق ، وظهور القوى الأوربية وصراعها العدوانى مع القوى الإسلامية فى البحر وعلى الأطراف ، أنْ أوجد لدى حملة الثقافة العربية الإسلامية نوعاً من الخوف المصيرى على الإسلام وعلى التراث لم يتجل فى التمسك والتشبث به فقط وتناوله بالتلخيص ولكنه ظهر كذلك فى جمعه فى مجموعات شاملة واحدة لا بغية إنقاذه فقط بل لتأكيده وتثبيته أيضاً .

وهكذا سمى القرن الثامن الهجرى بالقرن الموسوعى .

* * *

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ظهرت قوة الإسلام وقدرته على إدخال الناس فى دين الله أفواجاً . . وكان ذلك الحدث الضخم عندما دخل التتار فى دين الإسلام .

كانت طاقة ضوء خافتة تتحرك فى إطار صغير لتتسع وتملأ الأفق فى هذه السنوات بالذات بين هزيمة بغداد ونصر عين جالوت ، تلك هى القبيلة الذهبية بقيادة بركة خان التى دخلت الإسلام فى أعدادها الضخمة – إنهم مغول القفجاق وهى البلاد الواسعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين والتى كانت من نصيب جوجى أحد أولاد « جنكيز خان » وأكبر أبنائه ولما مات جوجى ولى باطوخان الذى تولى بعده ابنه بركة خان .

وفى الوقت نفسه الذى كانت فيه معركة بغداد على وشك أن تندلع كان بركة خان يدعو قومه إلى الإسلام فيقبلون عليه زرافات ووحداناً ، فقد كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول ولم يكن على وفاق مع هولاكو ، فقد أعلن خصومته له نتيجة ما فعل بالمسلمين وقد أرسل يعنفه على قتل الخليفة المعتصم ، وكان من نتيجة ذلك أن منع هولاكو مغول القفجاق من غنائم الحرب .

وقد كان بركة خان منذ مطالع شبابه متطلعاً إلى طريق تهديه إلى الله تبارك وتعالى وكان عازفاً عن وثنية قومه .

ويذكر الجوزجانى الذى يتحدث عن حياة بركة خان أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته ،

وأنه لما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند .

ولقد كان حريصاً دائماً على أن يلتقى بالتجار المسلمين القادمين من بخارى ويستمع إليهم ويناقشهم ، وقد تعددت خلواته معهم ، وقد قبل منهم واعتنق هذا الدين ودعا له القبيلة الذهبية .

وقد تدافع قواده وجيشه إلى الإسلام تدافعاً كبيراً ، حتى ذكر المؤرخون أن جيشه كان مسلماً وأن كل فارس منهم كان يحمل سجادة للصلاة حتى إذا ما حان وقتها اشتغلوا بصلاتهم ، ولم يكن فى جيشه من يتعاطى أى مسكر .

وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام .

وهكذا اتسعت دائرة الضوء فى نفس اللحظات الحالكة من الظلام ، وعندما كانت تتساقط أعلام الإسلام فى بغداد كانت قبيلة القفجاق تفتح قلوبها لنور الإسلام لتنصره بالقوى المقاتلة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد اتصل بركة خان بالمسلمين فى مصر ، ووضع يده فى يدهم ضد مغول هولاكو ، وجرت زيارات ومعاونات عسكرية وسياسية ضخمة ، فقد واصل هولاكو التحالف مع ملك أرمينية والصين ليتقوى بهم ضد المسلمين وظلت إغارتهم بعد (عين جالوت) تتوالى وتجد رداً حاسماً لها وكان هذا الرد الحاسم من الظاهر بيبرس فى مصر ومن بركة خان .

فقد دخلت القبيلة الذهبية المسلمة فى حلف مع المماليك ضد بنى جلدتها من التتار ، وكان لذلك أثر كبير فى ترجيح كفة المسلمين . وكان أيضاً من العوامل الحاسمة فى دخول عديد من زعماء المغول فى الإسلام وفى مقاومة كل مؤامرة أريد بها خلع بركة خان .

وعندما علم الظاهر بيبرس بإسلام بركة خان كتب إليه، وربط معه صلات الأخوة وأغراه بقتال هولاكو ، ومنذ ذلك الوقت أصبح بركة والظاهر فى كفة واحدة ضد عدوهما المشترك فقد دخل بركة خان فى حلف مع الظاهر بيبرس الذى فتح باب الود والصداقة مع مجموعة من جنود القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين كانوا قد وفدوا إلى سوريا وكانت مظاهر الحفاوة والتقدير قد فتحت أمامهم باب اعتناق الإسلام بعد أن أتيحت لهم فرصة التعرف إليه والإعجاب به .

وكان نتيجة لهذه المعاملة الطيبة أن تقاطرت الوفود من رجال القبيلة الذهبية إلى

مصر وسورية وكانت هذه المجموعات كلها تدخل فى الإسلام معجبة به .. كذلك قدمت وفود الملك بركة خان إلى بلاط السلطان وكانت تحمل كتاباً يقول فيه الملك بركة خان :

فليعلم السلطان أنى حاربت هولاكو الذى هو من دمى ولحمى لإعلاء كلمة الله ورسوله وقد سيرت جنودى ورسلى فى صحبة رسل السلطان وقد وجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضراً الواقعة ليحكى للسلطان ما رآه من عجائب القتال .

وقد أرسل السلطان الظاهر بيبرس إلى بركة خان الردّ فى سبعين ورقة ، وأمر الخطباء أن تدعو للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر فى مكة والمدينة والقدس والقاهرة . وقد وصلت رسل بيبرس إلى بركة خان ، واحتفل بهم ، وتحدثوا كيف وجدوا بركة خان وله إمامه ومؤذنه وكيف أن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس .

* * *

وكان بركة خان قد أعد جيشاً تعداده ثلاثون ألف جندى لمحاربة هولاكو واتجه هذا الجيش من القفجاق قاصداً إيران حيث اشتبك مع جيش هولاكو وانتصر عليه عام ٦٦١ هـ وقد تأثر هولاكو بهذا الانكسار وفكر فى معاودة حربه لولا أنه توفى على أثر ذلك عام ٦٦٣ هـ .

وقد حاول ابن هولاكو السير على سياسة أبيه فى العداء للإسلام والتحالف مع الصليبيين غير أن عمره لم يَطُلْ وخلفه أخوه (تكودار) الذى اعتنق الإسلام وتسمى (أحمد تكودار) .

وكان قد اجتذبه إلى الإسلام جماعة من الدعاة الذين اجتذبوا بركة خان من قبل .. أولئك المجاهدون المنبثون فى كل مكان فى سبيل الدعوة إلى الله لا يهابون شيئاً ولا يرجون غير رضا الله ، ولما توفى أحمد تكودار وخلفه أرغون بن إيفا حاول العودة إلى سياسة العداء للإسلام غير أن الموقف كان قد تغير تماماً إذ كان الإسلام قد سيطر على وفود إيران ومغول جنوبى الروسيا فلما تولى غازان سلطاناً على إيلخانية إيران جعل الإسلام الديانة الرسمية لمغول إيران جميعاً وتبعوا فى ذلك مغول جنوب الروسيا .

وبذلك تمثل الإسلام من وصل إليه من المغول وجعلهم أنصاراً له ، وكان ذلك عام ٦٨٦ هـ بعد وفاة الظاهر بيبرس بسنوات سبع وبعد سقوط بغداد بثلاثين عاماً .

قال توماس أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام فى هذه المعركة وتنهزم البوذية

والنصرانية ، ويستأثر وحده بالتتار فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم . والفضل فى ذلك لهؤلاء الدعاة المخلصين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم وأسلوب دعوتهم ورقة مواعظهم وتجردهم من الاستعلاء والكبرياء فقد أسلم سلطان كاشفة (تغلق بتجور خان) عام ٧٤٧ هـ على يد الشيخ جمال الدين الذى جاء من بخارى .

* * *

وثائق تاريخية لها علاقة بالتحالف بين الصليبيين والتتار :

١ – أرسل البابا (أبو سنت) الرابع مبعوثاً من الفرانسسكان اسمه جاديربلاتوكارنيس عام ١٢٤٥م – الموافق ٦٤٥ هـ أى قبل سقوط بغداد بأكثر من عشرة أعوام إلى خاقان المغول فى قراقورم لدعوته إلى المسيحية .

اشترط الخاقان دخول المسيحيين الغربيين تحت السيادة المغولية .

٢ – فى عام ١٢٤٨م جرت سفارة لعقد تحالف عسكرى بين الصليبيين والمغول ضد الخلافة العباسية فى بغداد .

٣ – فى عام ١٢٤٩م جرت سفارة الملك لويس إلى المغول للتحالف مع النصارى ضد المسلمين .

٤ – فى عام ١٢٥٥ م عقد تحالف أرمنى مغولى لمحو الإسلام .

* * *

إضافة بين الصليبيين والتتار

ذاب المماليك تدريجياً فى محيط البلاد التى استقروا فيها وانتشر الإسلام بين التتار بصورة واضحة ، وعندئذ أمكن عقد صلح بين الطرفين ٧٢١ هـ - ١٣٢٠م .

ولقد كان العداء بين التتار والمسلمين مختلفاً عنه بين المسلمين والصليبيين الذين كانوا يدعون أن بلاداً مثل الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس كانت بلاداً مسيحية وكانت لها كنائس راسخة ، فإذا بالإسلام يغلب عليها تدريجيًّا ويتحول معظم أهلها إلى قواعد راسخة فى بناء الدولة الإسلامية .

أما العداء بين التتار والمسلمين فلم يكن فى جوهره عقائديًّا بقدر ما كان توسعيًّا استغلالياً ، رغم جهود القوى المسيحية فى شد التتار إلى دائرة المسيحية واستثارتهم ضد الإسلام وأهله ، وتحويل هجماتهم على بلاد الإسلام إلى هجمات صليبية .

ثم إن الحروب الصليبية التى شنها العالم المسيحى على الإسلام والمسلمين كانت أوسع نطاقاً ، فقد كان شعار الكنيسة الغربية : اضربوا المسلمين حيث تعثرون عليهم فى الأندلس . . فى صقلية . . فى جزر البحر المتوسط . . أو فى شمال أفريقيا . . فى الشام ومصر . . فى إقليم الجزيرة وآسيا الصغرى .

بل لقد خرج الصليبيون فى البحر الأحمر لضرب مقدسات المسلمين فى الحجاز ، واتصلوا بالحبشة بوصفها القوة المسيحية الكبرى فى وسط أفريقيا لتطويق العالم الإسلامى من الجنوب والشمال .

وعندما استقر الصليبيون فى بلاد الشام وأقامو عدة إمارات وسط المحيط الإسلامى ظلت هذه الإمارات على اتصال مستمر بالعالم المسيحى الذى حرص على أن يغذيها بالرجال والنساء والسلاح والمال مما مكن الصليبيين من الاحتفاظ بأصولهم وساعدهم على عدم الذوبان فى البيئة الجديدة ، وجعل منهم ركيزة لمزيد من الحملات الصليبية التى استمرت طوال قرنين تخرج من الغرب الأوربى إلى الشرق الإسلامى .

وقد كانت المعركة مع الصليبيين هى المحك الأول الذى أظهر فيه المماليك مقدرتهم العسكرية وشجاعتهم فى الدفاع عن الإسلام على أرض المنصورة فى دلتا النيل . وقد كانوا

أبعد نظراً فقرروا ألا يدخلوا المعركة ضد الصليبيين والتتار فى وقت واحد وكانوا قد بدأوا بالخطر التترى لأنه كان أكثر إلحاحاً وأشد فتكاً وأوقع أثراً .

ولقد شن المماليك حرباً شعواء على الكيان الصليبى فى بلاد الشام ووضعوا نصب أعينهم هدفاً كبيراً لم يحيدوا عنه وهو ضرورة اقتلاع ذلك الكيان من جذوره وتطهير البلاد تماماً من الدخلاء الغاصبين، وهكذا ما كاد قطز يفرغ من انتصاره الخالد على التتار فى عين جالوت حتى بدأ خلفه الظاهر بيبرس المعركة ضد الصليبيين وهى المعركة التى توجها بالاستيلاء على أنطاكية ٦٦٦ هـ - ١٢٦٨م .

والمعروف أن أنطاكية كانت أول إمارة أسسها الصليبيون منذ نحو قرنين فى بلاد الشام ولذلك جاء سقوطها إيذاناً بتداعى بقايا البناء الصليبى وغنم المسلمون غنائم ضخمة حتى قسمت النقود بالطاسات، أما الأسرى فقد بلغ من كثرتهم أنه لم يبق غلام إلا وله غلام .

ولم يقف دور المماليك فى الدفع عن ديار الإسلام عند صد الهجمات الصليبية بل لم يقف عند حد طرد الصليبيين من بلاد الشام .

فما كاد الظاهر بيبرس يسمع بحملة لويس التاسع على تونس ٦٦٨هـ - ١٢٧٠م حتى أعد حملة للدفاع عن هذا البلد الإسلامى وشرع فعلاً فى حفر الآبار فى الصحراء فى طريقهم من مصر إلى تونس .

وبعد انتهاء الحروب الصليبية لجأت البابوية ودعاة الحروب الصليبية إلى شن حرب بحرية على موانى المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط واتخذوا من جزيرتى قبرص ورودس مراكز للعمليات الحربية ولم يكتف الغرب المسيحى بفرض حصار اقتصادى على شواطئ مصر والشام ليحرم دولة المماليك من المورد الأساسى لثرواتها وقوتها ، وإنما قام ملك قبرص بحملة على الإسكندرية ٧٦٦ هـ - ١٣٦٥م دمر فيها المدينة وقد قام الأشرف برسباى بثلاث حملات بحرية على قبرص انتهت بالسيطرة على الجزيرة وأسر ملكها .

* * *

بدأت هذه الجولة بالحملات الصليبية التى احتلت شمال ديار الشام وأقامت الإمارة اللاتينية وعاصمتها أنطاكية وامتدت من ١٠٩٨م - ١٢٦٨م ، وتعاقب على حكمها اثنا عشر من أمراء الإفرنج النورمان كان أولهم بوهيموند الأول وآخرهم بوهيموند السادس .

وجاء ٢٠ حزيران من عام ١٢٦٨م حيث تبدل الحال فلم يكن على مسرح الأحداث ملك دمشق ولاملك حلب ولاأمير الموصل ولاأمير حماه ولاأمير أنطاكية ولا الخليفة فى بغداد ولا الخليفة فى القاهرة .

لم يبق هؤلاء ، وإنما جاء رجل واحد هو الظاهر بيبرس وقاد الأمة من جديد »

[أحمد الشقيرى] .

* * *

ملاحق البحث

١ – المغول والتتر قبيلتان حملتا معاً لواء الحملة على بلاد الإسلام وخرج منهما جنكيزخان وهولاكو وعمل لويس التاسع وغيره من زعماء الحروب الصليبية على كسبهم وإقامة حلف معهم يحصر الإسلام بين دفتيه .

خرج المغول من إقليم الهوب الواسع الذي يعرف بمنغوليا على حدود سيبيريا عند حوض نهر الفولجا وتمتد منازلهم إلى ما وراء النهر : مما يعرف الآن بتركستان وشمال إيران وقد امتزج الشعبان : التتار والمغول وفى عام (١٢٠٦م) عقد لجنكيزخان اللواء ، وبايعه أمراء المغول إمبراطوراً على العالم ، وبعد أن ساد آسيا كلها (عدا الهند واليابان) التفت إلى الغرب، وانقض على عالم الإسلام ، فطرق أبواب عالم الإسلام سنة ١٢١٥م من إقليم خوارزم ، وقد دمر جنود التتار عواصم الإسلام فى التركستان وإيران ، وبلغوا سمرقند ١٢١٩م ثم دَمَّروها ، وتوفى جنكيزخان ١٢٢٧م .

يقول الدكتور حسين مؤنس : اقتحم المغول دار السلام بعد ١٢٥ سنة من حرب صليبية طاحنة مخربة فى السنة التى انقضت فيها جحافل جنكيزخان على بلاد ما وراء النهر وكان الصليبيون يحاصرون دمياط .

وقد استعاد صلاح الدين القدس (أكتوبر ١١٨٧م) وكان جيشه مكوناً من عرب وأتراك وأكراد وتركمان والعرفاء من المجاهدين المتطوعين من صوفية وغير صوفية ، وقد أنشأ إمبراطورية واسعة شملت الشام ومصر والموصل والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن .. أما خلفاء صلاح الدين فقد منحوا بقايا الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس وعكا امتيازات جديدة .

فى هذه المرحلة – وأمة العروبة والإسلام تعانى من العدوان الصليبى الذى نهك قواها واسترق ديارها مدة قرن ونيف – انهال على بلادها طوفان المغول من الشرق هائلاً مخرباً دموياً .

وفى عام ١٢١٨م (التى استولى فيها الصليبيون على دمياط أول مرة) طرقت جحافل المغول أبواب العالم الإسلامى وسقطت فى أيديهم سمرقند .

٢ – فى أواخر أيام كيوك خان (خليفة جنكيز خان) جاء لويس التاسع إلى قبرص ١٢٤٨م ليستعد منها للإبحار إلى مصر لغزوها ، وتقدم إلى بلاطه راهبان نسطوريان يسميان مرقص وداود وقالا إنهما رسولان من خان المغول لعقد اتفاق للتعاون بين الصليبيين

والمغول للقضاء على الإسلام وأهله نهائياً .

ورد لويس التاسع بالإيجاب وأرسل وفداً من بينه الراهب أندريه لونحيمو ممثلاً للبابوية وانضم إليهم ملك الأرمن وتعطل التحالف بعض الوقت ، ونشطت السفارات بين لويس التاسع وجنكيزخان ونتيجة هذه السفارات توجه هولاكو نحو العراق ليفرغ من أمر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم (الخليفة السابع والثلاثين) من خلفاء بنى العباس، وكان يدبر له الأمر وزير شيعى هو مؤيد الدين بن العلقمى، ولا شك فى أن الوزير ابن العلقمى كاتب هولاكو سراً وتآمر على الخليفة ظناً منه أن المغول يشكرون له هذا الصنيع .

ودخلت قوات المغول بغداد (٦٥٦ هـ - ١٢٥٧م) وكان فى صفوفهم رجال كثيرون يمثلون كل الجماعات المسيحية الغربية ومن الحق أن نقرر أن (المستعصم) رفض أن يتنازل عن سلطانه على رعاياه لملك غير مسلم هو (هولاكو) .

ودمر المغول عاصمة الإسلام تدميراً وقتلوا الخليفة وأهل بيته أجمعين وتولى اجتياح بلاد الشام قائد مغولى نصرانى هو (كتبغا) الذى تحرك نحو الشام وتولى هولاكو قيادة قلب الجيش واصطحب معه زوجته المسيحية ظفرخان ، وتجمع المصادر على أن كتبغا وظفر خان اعتبرا الحملة على الشام (حملة صليبية مغولية) .

واستولى التتار على (نصيبين) و (حلب) و (دمشق) ثم استعدوا للزحف على مصر للقضاء على ما بقى من مراكز الشرق والإسلام فكانت هزيمتهم فى عين جالوت بقيادة قطز وبيبرس .

وتقرر المراجع أن البطل الحقيقى للمعركة كان (بيبرس) فهو الذى اجتهد فى استدراج كتبغا بقوات لا تحصى حتى وصل به وبجيشه إلى موقع متوسط بين الكمائن ، وهنا انقضت عليه كمائن المماليك فأتت عليه .

وكان سيف الدين قطز هو صاحب الفضل الأول فى النصر .

٣ - دخل الإسلام بلاد التتار وحول هذا الخضم الهائل إلى صف الدين الحق ، وكان ذلك فى نهاية القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى وكان ذلك فى عهد الخليفة جعفر المقتدر بالله (٩٠٨ - ٩٣٣) فقد أرسل ملك شعب البولغار وكان يدعى بصلطيقا إلى الخليفة ليطلب منه تلقين الدين الإسلامى الذى سمع عنه الكثير من المآثر الأخلاقية .

واستجاب الخليفة للطلب ووصلت البعثة الإسلامية إلى أعالى نهر الفولجا وكان رئيسها

سوسان الراسبى وسمى نفسه جعفر بن عبد الله ولا يزال هذا اليوم يعتبر عندهم من أهم أيام السنة ، وبعد مرور أقل من ثلاثة أشهر على اعتناق ملك البولغار لدين الإسلام عم الإسلام الشعب البلغارى بأجمعه وانتشر كذلك فى الشعوب المجاورة مثل المارين النشوفاشين .

٤ – عندما طرق التتر أبواب البلاد الإسلامية وجمع قطز القضاة والفقهاء قال عز الدين بن عبد السلام : إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء، وأن تبيعوا ما لكم من الأدوات الذهبية والآلات النفيسة ، ويقتصر الجند على مركوبهم وسلاحهم، أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا .

* * *



البابُ الثالِث

جهاد المماليك

في مواجهة خطر الصليبيين والتتار



جهاد المماليك
فى مواجهة خطر الصليبيين والتتار

١ – هذه المرحلة العاصفة التى تفجرت فيها المؤامرات على الإسلام كشفت عن عناصر جديدة من المسلمين حملت لواء الدفاع عن الإسلام والجهاد فى سبيله والاستشهاد من أجل حماية بيضته : تتمثل فى السلاجقة والأكراد والمماليك. فمن السلاجقة ظهر عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وكان دورهما فى مواجهة الحروب الصليبية قويا وبارزاً ، ومن الأكراد ظهر صلاح الدين الأيوبى الذى استرد بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، ومن المماليك قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف بن قلاوون ، وكان دور المماليك قوياً وممتداً وحاسماً فقد استطاعوا بعزيمةٍ جبارة تصفية نفوذ التتار والصليبيين وتحقيق أكبر نصر فى هذا المجال .

ولم يكن ذلك غريباً فقد كان الإسلام هو دين كل العناصر والأجناس التى اعتنقته وقد كان لابد عند تراجع العرب أن تكشف العناصر المسلمة الأخرى عن قدرتها وكفاحها فلم يكن الإسلام ديناً مقصوراً على العرب ، وإن حملوا هم لواءه وأذاعوا به إلى الآفاق .

وقد امتدت دولة المماليك ثلاثة قرون قضاها رجالها فى مقاومة الاحتلال الأجنبى والسيطرة الخارجية .

وليس صحيحاً أن المماليك قد انتزعوا حكم البلاد من العرب أو أنهم أسسوا دولتهم بالخيانة، وإنما هم مرحلة طبيعية فى تاريخ الإسلام ، وجاءت بعد أن وصلت مرحلة المد العربى إلى غايتها فى أواخر الدولة العباسية وكان لابد أن ينطلق الإسلام من داخله وعلى أيدى رجاله .

وقد أثبت المماليك أنهم قادرون على الصمود فى وجه هذه القوى المتصارعة، فعصر المماليك – في تقدير كثير من المؤرخين المنصفين – هو عصر الإنقاذ .

أولاً : أنقذوا الحضارة الإسلامية من الدمار العام على أيدى المغول والتتار حين حطموا قواتهم في عين جالوت .

ثانيـاً : أنهوا الحكم الصليبى فى بلاد الشام ،وأحيوا الخلافة الإسلامية وجعلوا مركزها القاهرة .

ثالثاً : كان الظاهر بيبرس هو أبرز هؤلاء الأبطال؛ فقد قاد معركة عين جالوت مع قطز ، ثم هو الذى انتزع صفد ويافا والشقيف وأنطاكية من الإفرنج .

رابعـــاً : أقام منهج الإصلاح الاجتماعى على شِرْعَة القرآن ، فأراق الخمور وهدد من يعتصرها ، وأبطل المفسدات والانحرافات .

وبذلك دخل المجتمع الإسلامى إلى دائرة الأصالة مرة أخرى .

كذلك فقد شجع المماليك اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم حرصاً منهم على الاحتفاظ بالطابع الإسلامى كاملاً .

كما تميز عصر المماليك بظهور الموسوعات الكبرى فى الأدب والنحو وعلم الحديث والفقه والتاريخ .

وفى عهدهم ظهرت الموسوعات الآتية :

القلقشندى – صبح الأعشى .

ابن منظور – لسان العرب .

ابن تيمية – الفتاوى .

ابن خلكان – وفيات الأعيان .

ابن كثير – البداية والنهاية .

الذهبى – سير أعلام النبلاء .

ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة .

* * *

٢ – يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

كادت البلاد العربية فى العصور الوسطى أن تتحول إلى إمارات لاتينية لا عربية ولا مسلمة لولا جهاد المماليك البحرية الذين أنشأهم السلطان العظيم نجم الدين أيوب آخر سلاطين بنى أيوب فى مصر والشام ، ذلك أن الذين صدوا غارات الأجانب على البلاد العربية فى تلك الفترة لم يكونوا عرباً بالدم والأصل بل كانوا أكراداً مثل صلاح الدين ، ونور الدين ، أو تركماناً مثل قطز وبيبرس وقلاوون وابنه خليل ، وهم السلاطين الأربعة المماليك الذين استردوا كل شبر من الأرض العربية استولى عليه الغزاة الأوربيون مما يعرفه التاريخ

بالحروب الصليبية التى استمرت مائتى عام تقريباً ، وأخذ منها هؤلاء الغزاة مناطق شاسعة من سوريا وفلسطين ولبنان ، وقد بقيت مدينة طرابلس (مثلاً) فى أيدى الفرنجة ١٨٥ عاماً حتى استردها سيف الدين قلاوون سلطان مصر .

وهو السلطان العظيم الذى يتخذ بعض الناس من اسمه مادة للفكاهة ، وهو المملوك التركمانى الذى تحررت على يديه ، وعلى يد ابنه خليل من بعده سواحل فلسطين ولبنان وسوريا مثل عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وطرسوس واللاذقية .

وهكذا فإن المماليك الثلاثة (قطز وبيبرس وقلاوون) وأولادهم من بعدهم هم الذين حرروا البلاد العربية (مصر والشام) من الغزاة الأوربيين وأعادوا إلى كل شبر عربى وجهه العربى بعد أن طمسه الغزاة المستوطنون فى تلك العصور .

وقد قضى السلطان بيبرس حياته كلها يحارب فى جبهتين إحداهما ضد التتار والأخرى فى ساحل فلسطين ولبنان وسوريا ، وعلى يديه تحررت يافا وصفد وطبرية وأنطاكية التابعة الآن لتركيا .

ما صنعه المماليك التركمان أنهم استردوا الشام كله من المستوطنين الصليبيين وأحبطوا غزواتهم لمصر فحفظوا بذلك البلاد العربية، ويقدر عدد الشهداء خلال مائتى عام ثلاثة ملايين شهيد .

نعتذر عن لهجة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذى لم يستوعب القصة فى دائرة الغزو الكبرى ضد الإسلام أساساً وليس العرب ، والتى جمعت بين الصليبيين والتتار فى مخطط واحد وفى مؤامرة مرسومة ، فقد كان المماليك التركمان – كما يحلو له أن يسميهم – مسلمين أولاً وأخيراً ، وقد كانت عزمتهم القوية لتحرير الأرض إنما هى عزمة إيمان إسلامية أساساً ولم تكن قصة أمة عربية أو مستوطنين أوربيين وإنما كانت أكبر من ذلك بكثير .

ومن هنا نعرف مصدر الحملة الشديدة التى يوجهها المؤرخون الغربيون للمماليك؛ لأنهم هم الذين حطموا الوجود النهائى للصليبيين فى ساحل الشام ، ولقد كان الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور من المدافعين عن المماليك بحق فى وجه مخطط الحملة على المماليك والعثمانيين .

ومن ذلك قوله : إن من يقرأ المقريزى وابن تغرى بردى من مؤرخى المماليك يستطيع أن يعرف من هم المماليك ، وماذا فعلوا ، وكيف كانوا فئة من أبرز ما عرف تاريخنا بطولة وتجرداً وغيرة على البلاد والعباد .

أما من يقرأ كتابات ابن إياس والجبرتى فإنهما يتحدثان عن المماليك العثمانيين أ. هـ .

ولقد تحدث الباحثون بإفاضة عن الجهود الجبارة التى بذلها سلاطين المماليك فى سبيل توحيد القوى الإسلامية فى الشام ومصر للوقوف فى وجه أعداء الإسلام: المغول والصليبيين، هذه الجهود التى أثمرت طرد المغول من بلاد الشام وتطهير سواحله من بقايا الوجود الصليبى .

وقد جاء ذلك دعوة إلى مطالبة الأمة الإسلامية فى عصرنا إلى تكرار ما فعله المماليك من جمع الكلمة ووحدة الصف وتجديد إحياء فكرة الجهاد المقدس ضد أعداء الإسلام واستعادة المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى نبينا محمد ﷺ .

* * *

٣ - يقول الدكتور عبد الله سعيد الغامدى فى رسالة جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين : إنه بعد أن حققت معركة عين جالوت الانتصار الحاسم على المغول وحلفائهم والذى غير موازين القوى وما ترتب عليه من نتائج عظيمة كان أهمها الخسائر المادية والمعنوية التى مُنىَ بها المغول والذى انتهى بطردهم نهائياً من بلاد الشام ، واكتساب دولة المماليك صفة الشرعية الكاملة نجح السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء مشروع الخلافة العباسية فى القاهرة . . فضلاً عن إضعاف مركز الإمارات الصليبية فى ساحل بلاد الشام .

وعندما تأكد السلطان الظاهر بيبرس من أن الأوساط المغولية والمسيحية قد أقامت حلفاً مغولياً صليبياً لمواجهة الخطر المملوكى عمل بيبرس على احتواء هذا الحلف وإسقاطه حين قام بعقد معاهدات صداقة مع القوى التى كانت على عداء مع المغول والصليبيين .

ثم لم يلبث أن بدأ فى تنفيذ الخطط الحربية البارعة التى بذلها للإطاحة بإمارة أنطاكية الصليبية التى أسهمت بزعامة أميرها الصليبى (بوهيمند) إسهاماً فعالاً فى مساعدة المغول أثناء اكتساحهم للقوى الإسلامية فى المشرق الإسلامى ، وكذلك الحال بالنسبة لمملكة أرمينية الصغرى التى مارس ملكها هيوم الأول الدور نفسه فى مساعدة المغول فى ذلك الهجوم الكاسح ، حيث لقنه السلطان الظاهر بيبرس درساً قاسياً لم يستطع بعده تقديم أى مساعدة تذكر لحلفائه المغول .

ثم وقعت انتصارات بيبرس على المغول فى أعالى الشام والأناضول وقع الصاعقة عندما حاولوا اكتساح مدن الشام من تلك الناحية بعد أن عجزوا عن مهاجمته عن طريق معابر نهر الفرات .

ثم جاء دور أسرة قلاوون ضد المغول والصليبيين استكمالاً لدور بيبرس حيث تحقق النصر العظيم على المغول فى معركة حمص الشهيرة التى أطاحت بآمال المغول فى انتزاع بلاد الشام من أيدى المسلمين مرة أخرى .

ثم كان جهاد المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ضد الصليبيين فى بلاد الشام والخطط الجريئة البارعة التى نفذها الأول ضد الصليبيين حتى تمكن من السيطرة على إمارة طرابلس الصليبية ثم شروعه فى الإعداد للاستيلاء على آخر معاقل الصليبيين فى الشرق الإسلامى وهى بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية فى مدينة عكا وما جاورها : هذه المهمة التى أكملها الأشرف خليل الذى حقق آمال المسلمين فى اقتلاع الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى من جذوره ، ثم جاء دور العناصر الإسلامية غير العربية .

* * *

٤ – يؤكد الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن القول الذى شاع وذاع بأن عصور المماليك كانت كلها عصور انحطاط قول مردود، وأن المؤرخين الذين قالوا به قد ظلموا المماليك ظلماً شديداً .

ويقول فى تحليل ما وجه إلى المماليك :

أولاً : ربما جاء إسهام غير العرب من الشعوب التى دخلت فى الاسلام فى حمل الأمانة ومواصلة حركة المد الإسلامى دليلاً على نجاح العرب فى التبشير بالإسلام وإيصاله مكتملاً إلى تلك الشعوب والتمكين لمبادئه فى قلوبهم بحيث غذوا فى مرحلة لاحقة عُدَّة الإسلام وأداته فى الجهاد فى هذه الشعوب .

وعلى سبيل المثال «البربر» الذين ما كادوا يدخلون فى دين الله حتى أسهموا بقيادة زعيمهم طارق بن زياد فى فتح الأندلس وظل البربر طوال عدة قرون يمثلون حراس الإسلام فى المغرب الإسلامى فى حين غدت بلادهم شمال أفريقيا بمثابة المخزن البشرى الكبير الذى يمد دولة الإسلام بالأندلس بالجند والمجاهدين كلما اشتد الضغط المسيحى عليهم .

ثانياً : من أبرز أسرار عظمة الإسلام وقدرته على الصمود فى وجه الأخطار التى هددته أنه كان قادراً على تجديد دمائه مع الاحتفاظ بأصوله فما كاد أن يضعف العنصر العربى فى مدافعة أعداء الإسلام حتى برز دور الأتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ثم المماليك فالأتراك العثمانيون وجميعهم كانوا بمثابة دماء جديدة زودت أمة الإسلام بطاقات كبرى مكنتها من الصمود بل التغلب على الأخطار الكبرى التى تعرض لها ، دون أن يتوقف دور

العنصر العربى عن مواصلة الجهاد .

ولقد سوى الإسلام فى جوهره وشريعته بين مختلف العناصر والأجناس والشعوب التى دخلت فيه وجعل منها على اختلاف أصولها وتباين ألوانها أمة واحدة هى « أمة الإسلام » .

الأمة التى اختارها الله (تبارك وتعالى) فجعل منها خير أمة أخرجت للناس، هى أمة الإسلام لا أمة العرب ، ولم يجعل لأمة العرب الوصاية أو الأسبقية وإنما جعل لها التكريم لا التفضيل . . الكتاب بلسانها والنبى منها وبيت الله الحرام فى أرضها .

وقد استوعب الإسلام أجناساً كثيرة من الكرد والترك والعجم وغيرهم فأصبح وطنهم هو كل بلاد الإسلام وتطورت مهمة عرب الجزيرة بعد المرحلة التاريخية الأولى : مرحلة الفتوحات فلم يعودوا هم القلة المقاتلة والقائدة فى الدولة وامتزجت القبائل العربية بالناس جميعاً فى بلاد الإسلام، وظهر المسلم مجرداً لا تابعًا لسلفه العربى بل أخاً له ، وأصبح السلطان ولو كان أعجمياً هو فى منزلة السلطان العربى .

ثالثاً : أسهمت القبائل والإمارات العربية فى بلاد الشام والعراق فى الدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الغزو الصليبى ولكن الحقيقة التاريخية أن الصفحة المشرقة التى سجلها الحمدانيون فى معركة الجهاد ضد الروم تعتبر بمثابة خاتمة لدور العنصر العربى فى مدافعة أعداء الإسلام .

وجاءت المقاومة الرئيسية التى صادفها الصليبيون من جانب الأتراك السلاجقة : سلاجقة الروم ، وسلاجقة الشام وسلاجقة فارس .

وانبعثت حركة الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى من بين صفوف السلاجقة الأتراك بالذات ، وقد تزعم هذه الحركة أتابكة البيت الزنكى بالموصل .

وبفضل جهود عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود امتدت الجبهة الإسلامية الممتدة من الفرات إلى النيل من الموصل إلى القاهرة مروراً بحلب ودمشق ولم يكن عماد الدين وابنه نور الدين محمود عرباً .

كذلك لم تكن الجيوش التى اعتمد عليها البطلان مؤلفة فى جوهرها من عناصر عربية خالصة وإنما جمعت مجاهدين أتراكاً وأكراداً ألَّف الإسلام بين قلوبهم ، ثم ظهر القائد الكردى شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى ورث سيده نور الدين فى دولته الواسعة ثم فى سياسته ضد الصليبيين ، والثابت أن سلاطين العرب وملوكهم اعتمدوا فى حركة الجهاد الواسعة التى قاموا بها وخاصة فى الشام ومصر على جيوش مؤلفة

غالبيتها من الأتراك والأكراد على قول المؤرخ أبى شامة ومعها أقليات متعاونة من العرب والتركمان .

رابعــاً : ثم ظهر المماليك ، وقد استخدم المماليك فى عهد الصالح نجم الدين أيوب بأعداد كبيرة مما أنشأ طليعة ضخمة تمكنت فى نهاية الأمر من السيطرة على شئون الحكم ، وازداد نفوذهم تدريجياً بعد أن تمكنوا من إنزال ضربة قاصمة بلويس التاسع وحملته الصليبية على مصر ، مما أضفى عليهم هالة من المجد ، وأظهرهم فى صورة الأبطال القادرين على حماية ديار الإسلام .

وقد أقاموا دولة حكمت مصر والشام أكثر من قرنين ونصف من الزمان ومدت نفوذها على بعض بلاد الشرق الأوربى .

وكان لهم دورهم الحاسم فى تصفية المؤامرات الثلاث .

١ – الممالك اللاتينية التى أقامها الصليبيون .

٢ – معاقل التتار فى الشام .

٣ – تصفية الباطنية أتباع الحسن الصباح .

خامساً : الدورة التاريخية :

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

إن دولة واحدة على مر العصور لم يقدر لها البقاء على حال واحدة من الرفعة والقوة ، وإنما التاريخ أيام يداولها الله تبارك وتعالى بين الناس ، وفى مرحلة معينة خضعت الدولة الإسلامية لنظام الدورة التاريخية فتعرضت للضعف السياسى .. بدأ ذلك منذالقرن الرابع الهجرى ومع ذلك بقيت الدولة متماسكة حضارياً بفضل روابط الإسلام والعروبة ، وكان يمكن أن تكون الضربة التى حلت بالإسلام وحضارته على أيدى التتار ضربة قاصمة قاضية لولا ما اتصف به الإسلام من قدرة على الثبات وتخطى العقبات وتعدد مراكز الفكر والحضارة ، بحيث اذا أصيب أحدها انتقل مشعل الحضارة بسرعة ودون توقف إلى مركز آخر .

وحسب المماليك أنهم كانوا مسلمين جاهدوا فى سبيل الله ونجحوا فى حماية الإسلام فى منطقة هى بمثابة القلب من أكبر خطرين معاصرين هدداه .. هذا إلى أنهم لم ينجحوا فى حماية حضارة الإسلام وحفظ تراثه من الضياع فحسب، بل نجحوا فى إنماء هذه الحضارة

حتى حققت فى كثير من الميادين قدراً من الازدهار لم يتحقق فى عصر آخر .

وقد أثبت المماليك أنهم فرسان الإسلام المستميتون فى الدفاع عن أهله وأرضه ، وعندما تحول أمراء الشام عن مدافعة التتار واجههم بيبرس .

* * *

ملاحق الباحث

١ – يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور تحت عنوان « المماليك رواد النهضة الثانية فى الإسلام » :

اتصفت الدولة الإسلامية ليس بقدرتها على البقاء والحياة فحسب بل بقدرتها على العطاء وتجديد شبابها ، فقد وجدت أكثر من رئة تتنفس بها حضارياً (بخارى – أصبهان – غزنة – البصرة – الكوفة – الموصل – حلب – الفسطاط – القيروان – فارس – مراكش – غرناطة – أشبيلية) ، وقد تفاعلت جميع مراكز الحضارة بعضها مع بعض .

وفى مرحلة معينة خضعت الدولة الإسلامية لنظام الدورة التاريخية فتعرضت للضعف والانقسام السياسي وأخذ ذلك يبدو واضحاً منذ القرن الرابع للهجرة ومع ذلك بقيت الدولة متماسكة حضارياً بفضل روابط الإسلام والعروبة .

وقد حاول فلهوزون ونيلسكون عندما عالجا مرحلة التدهور والتفكك فى تاريخ الدولة الإسلامية الاستعانة بالمعايير التى وضعها (جيبون) فى تدهور الإمبراطورية الرومانية، ولكن الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يرى : أنه بالرغم من أن هناك عوامل داخلية وخارجية متشابهة ، إلا أن طبيعة الدول الإسلامية من حيث النشأة والتكوين والصفة الروحية التى اتسمت بها عند مولدها وظروف الزمان والمكان وروابط الشعوب جعلت الفارق كبيراً فى حالة المقاومة .

وإذا كان حكام الشام من بنى أيوب قد اهتزوا أمام خطر التتار وقرروا الاستسلام اعتقاداً منهم بأنهم أمام قوة يتعذر عليهم مواجهتها، فإن المماليك الذين كانوا قد استولوا عندئذ على زمام الحكم فى مصر أثبتوا بسرعة أنهم فرسان الإسلام الجدد وأنهم قادرون ليس على حماية أهله وأرضه فحسب ، بل أيضاً حضارته . ولم ينجح المماليك فى تخليص مصر من حملة صليبية كبرى بزعامة لويس التاسع فحسب ، وإنما نجحوا أيضاً فى إنزال هزيمة كبرى بالتتار فى عين جالوت على أرض فلسطين وطاردوهم حتى أجلوهم تماماً عن بلاد الشام ، وبذلك أدخلوا هذه البلاد تحت حكمهم وأكسب ذلك دولتهم فى التاريخ اسم : دولة البرَّيْن والبحرين لأنها تشمل مصر وبر الشام ولسلطانها السيادة على مياه البحر المتوسط (بحر الروم) والأحمر (بحر القلزم) ، وإبان سلطان المماليك من أواسط القرن ١٣ إلى أوائل القرن ١٦ (خلال ثلاثة قرون) تمكن المماليك من دحر التتار وطرد الصليبيين من بلاد الشام .

وكذلك فى نفس الوقت الذى أخذت الهزائم تحل بالمسلمين فى الأندلس وشمال أفريقيا أصبحت لمصر زعامة روحية كبرى جاءت نتيجة لإحياء الخلافة العباسية فيها وعمل سلاطين المماليك على إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

وحصلوا على تفويض بالحكم من الخلفاء العباسيين الجدد وقامت فى مصر مدرسة فكرية ضخمة تعبر عن روح الدين الجديد (مدرسة الفسطاط) وقد أدى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى هجرة كثير من علماء المسلمين إلى مصر بالذات .

كما سيطرت دولة سلاطين المماليك على التجارة العالمية بين المشرق والمغرب .

٢ - وقد فتحت قبرص فى عصر المماليك بعد أن اتخذها الصليبيون قاعدة رئيسية للانقضاض على سواحل الشام ومصر بعد إخراجهم نهائياً من الشام فى عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ورغم توقيع عقد الصلح بين المماليك والقبارصة (٧٢٠ هـ - ١٢٧٠م) فإن القبارصة لم يحترموا شروط الصلح احتراماً كليًّا، واتخذت موانى قبرص ملجأ للسفن المغيرة على سواحل مصر والشام، كما أن القبارصة أنفسهم كانوا يشاركون فى هذه الغارات العدوانية .. بل إن ملك قبرص قام بغارة مع آخرين (٨٠٧ هـ - ١٤٠٤م) وتوالت غاراتهم مما دفع المماليك إلى الإغارة على الجزيرة عامى ٨١٣م، ٨١٤م ، ولكنهم عادوا وأغاروا على ساحل الشام جنوب بيروت ٨١٧م ولما أحسوا بعزم المسلمين على غزو الجزيرة سارع ملكهم إلى عرض الصلح ، ورغم انعقاد الصلح فإن القبارصة عادوا إلى سياستهم العدوانية فى العام التالى مما حدا بالسلطان إلى غزو الجزيرة الذى تم عام ٨٢٩م .

٣ - قال ابن تيمية عن دولة المماليك :

إن عسكر المماليك هم كتيبة الإسلام ، وعزهم عز الإسلام ، فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة تظاهره عالية يخافها أهل الأرض تقاتل عنه ، فهم المماليك من أحق الناس دولاً فى الطائفة المنصورة التى ذكرها النبى ﷺ فى قوله فى الأحاديث المستفيضة عنه « لا تزال طائفة من أمتى » [الحديث] .

وقال ابن تيمية : لقد كان هناك تحالف تترى صليبى ضد عالم الإسلام ، وكان هناك عجز عن مواجهة هذا التحدى المدمر فى أغلب بلاد الشام واليمن والحجاز وإفريقية والمغرب الأقصى ، ولم يكن هناك سوى فرسان المماليك ممن تعلق عليهم الآمال فى مواجهة التحدى التترى الصليبى فلذلك وجبت نصرة المماليك .

* * *

الباب الرابع

من الأندلس إلى قلب أوروبا

الأحداث الكبرى

عبور طارق نهر الزقاق ٩٢هـ - ٧١١م

الغافقي في جيش إلى فرنسا ١١٠هـ - ٧٣٢م

الغزوة الأولى لروما من مسلمي الأندلس وشمال إفريقيا وكريت وصقلية ٢٣١هـ - ٨٤٦م

هزيمة نصارى الأندلس في معركة الزلاقة ٤٧٦هـ-١٠٨٦م

الزلاقة ويوسف بن تاشفين ٤٧٩هـ - ١٠٨٨م

ظلّت الأندلس إسلامية إلى عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م



من الأندلس إلى قلب أوربا

مدخل ..

١ – انطلق الإسلام من قلب الجزيرة العربية حتى بلغ حدود دولة الروم شمالاً ، ثم انطلق غرباً عن طريق الأندلس فاقتحم أوربا وأقام سبعة قرون ، ثم تراجع ليعاود اقتحام أوربا من ناحية المشرق فوصل إلى قلب القسطنطينية ، وأقام فى أوربا أربعمائة سنة وصل فيها إلى أسوار فيينا .

وكان أول أعمال الغرب المسيحى فى مواجهة الفتح الإسلامى الزاحف؛ هو صده ووقفه وتحطيم خطته التى تتمثل فى تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية ، ومنذ أن دخل المسلمون الأندلس كان إيمانهم بأنهم سيصلون إلى دمشق عن طريق إيطاليا والبلقان والقسطنطينية .

وقد ردد ذلك موسى بن نصير وأعد له ، لولا أن عوامل كثيرة حالت بين المسلمين وبين تحقيق هذا الهدف ، فى مقدمتها خوف إمام المسلمين على المسلمين من دخول عالم ليس لهم به مواصلة أو علم : هو عالم الغرب .

ولكن المسلمين لم يتوقفوا عن الجهاد بالرغم من تجمع الغرب فى وجههم لوقف تقدمهم، ومهما كانت الضربة الأولى فى (بلاط الشهداء) بقيادة كارل مارتل قاسية ، وقد ظن الغرب أنه قد أوقف زحف القوة الإسلامية ولكن لم يكن ذلك إلا لوقت قصير عاود المسلمون بعده زحفهم عن طريق فرنسا وإيطاليا حتى وصلوا إلى حدود سويسرا .

وكانت الأندلس هى الجبهة الثانية فى المواجهة مع الغرب بعد الجبهة الأولى بيزنطة .

وفى خلال أربع سنوات كانت الأندلس قد سقطت جميعها فى أيدى المسلمين الذين وصلوا إلى جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا .

عبر طارق من نهر الزقاق عام ٩٢ هـ – ٧١١م ونزل فى البقعة التى تحمل اليوم اسمه : جبل طارق .. وهزم كل من تصدى له وتابع سيره صوب عاصمة القوط الذين كانوا فى مائة ألف، ثم أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف ، وانتصر المسلمون وهزم القوط هزيمة منكرة فى معركة (شنونة) الفاصلة ، وواصل طارق سيره فاقتحم طليطلة عاصمة المملكة القوطية ثم قرطبة وغرناطة والبيرة ومالقة ودوسية .

وعبر موسى بن نصير البحر فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر وأمكن

إتمام فتح الجزيرة .

وكان موسى بن نصير يطمع في اقتحام أوربا حتى يعود إلى الشام من القسطنطينية غير أن معاقل جليقية التى اعتصمت بها فلول القوط لم تطهّر تماماً .

وكان موسى قد اخترق معظم قلاعها ومعاقلها ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ولم يبق بها إلا شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلا جيوش أدبلايو .

ونفذ موسى إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون حتى مدينة ليون .

وقد ظلت الأندلس (أسبانيا) دولة إسلامية منذ عام ٩٢ هـ - ٧١١م إلى عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢م وهو عام سقوط غرناطة التى كانت تعتبر آخر قلعة إسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

وقد بلغت الأندلس أوج الازدهار عام ١٠٠٠م حيث كانت قرطبة - عاصمة الأمويين العربية - معقل الثقافة فى العالم وقلبها النابض إلى الحد الذى نافست فيه بغداد بل فاقتها فى كثير من النواحى .

وكان سكان قرطبة نصف مليون نسمة ، وبها أكثر من مائة ألف منزل وبضع مئات من المساجد ، وسبعون مكتبة ، وعدد من القصور والحمامات .

وقد جعل الله تبارك وتعالى الأندلس حقلاً للحضارة الإسلامية فى قلب أوربا فقد نقل المسلمون إليها طرق الزراعة والعلوم وثمرات الحضارة كلها . . الزروع والكروم والبرتقال وقصب السكر .

وكان تعريب شبه الجزيرة الأيبيرية فى القرن الثامن الميلادى إلى القرن الخامس عشر من أهم عوامل نهضة أوربا الغربية .

تم للمسلمين الاستيلاء على الأندلس شبه الجزيرة الأيبيرية إلا جزءاً صغيراً فى الشمال الغربى لأسبانيا ، واجتازوا جبال البرنية ووصلوا إلى مدينة تور فى فرنسا - ٧٣٢ هـ غير أنهم اضطروا إلى الانسحاب إلى جنوب فرنسا وأسبانيا على أثر استشهاد قائدهم عبد الرحمن الغافقى فى معركة الشهداء (معركة بواتييه) .

جاءت معركة بواتيه بعد مائة عام من انتقال النبى ﷺ للرفيق الأعلى وكانت فى تقدير المؤرخين خاتمة مطاف موقوتة انتهت عندها الوثبة الأولى .

ففى خلال قرن من الزمان . . إذا رجعنا إلى إحصاء عدد جنود المسلمين فى تلك المعارك

لم نجده يزيد على مائة ألف مقاتل يفتحون هذه الدنيا الواسعة التى استقر الإسلام فى معظم أقطارها .

هُزِمَ المسلمون فى معركة بلاط الشهداء لعدة أمور أهمها :

١- أنهم بعدوا كثيراً عن مراكز تجمعهم الأولى والثانية فى الأندلس ، وثانياً لأنهم انشغلوا بحماية الغنائم عن الهدف الأساسى من الفتح، حين استطاع (شارل مارتل) أن يفتح ثغرة فى صفوف المسلمين صوب معسكر الغنائم حيث ارتفعت صيحة فتركت قوة كبيرة من فرسان المسلمين المعركة وتقهقرت للدفاع عن الغنائم فكانت الهزيمة المرة ، ولكن المسلمين لم يتوقفوا إلا قليلاً فقد عبروا جبال البرانس فنزلوا جنوب إيطاليا وأرض غاليا (فرنسا) واحتلوا جزيرتى كريت وصقلية .

٢ - كان استيلاء المسلمين على جزيرتى كريت وصقلية وغيرهما من جزر البحر المتوسط مرحلة تمهد للاتساع فى سهول أوربا الواسعة ، وكان الرومان قد حرصوا على احتلال صقلية ليمارسوا الإغارات الشرسة على تونس وشمال أفريقيا، فأغار المسلمون على الجزيرة فى حملات متوالية ، مما اضطر بَطْرِيقها إلى عقد صلح لمدة عشر سنوات مع والى إفريقيا إبراهيم ابن الأغلب ، وعندما ضج أهلِ الجزيرة من ظلم الحكام الرومان واستنجدوا بحكام تونس من قبَل العباسيين سيروا جيشاً مقداره عشرة آلاف مقاتل بقيادة القاضى أسد بن الفرات وتوالت انتصارات الجيش الإسلامى على جحافل الرومان حتى تم فتح الجزيرة .

وهكذا مضى المسلمون يقتحمون أوربا ومنهم الذين اندفعوا إلى سويسرا رافعين أصواتهم بالتكبير على جبل عُرف فيما بعد باسم جبل المغربين ، حيث حكم المسلمون منطقة الألب السويسرية مائة وخمسين عاماً من (٨٥٠ - ١٠٠٠م) وإن آثارهم لا تزال موجودة فى بعض الأماكن وبعض المؤسسات وبعض العادات واللهجات .

ومن بين الملايين الستة والنصف من سكان سويسرا اليوم الذين ينتمى ٩٠ فى المائة منهم إلى البروتستانتية يوجد ما يقرب من ستة آلاف مسلم من أصل سويسرى .

ويحجم كثير من المؤرخين السويسريين المعاصرين عن إعطاء أى تفاصيل عن المرحلة الإسلامية فى التاريخ السويسرى فى مؤلفاتهم ويكتفون بالإشارة إلى الغارات العربية والغارات الهونية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى ، وقد يعترفون أن المنطقة الرياضية المشهورة عالمياً باسم (بونترنسينا) التى أخذ اسمها من اللاتينية التى تعنى (يجوز جسر العرب المسلمين) فقد كانت معقلاً قوياً للمسلمين مثلما كانت (ساس أميحال) التى

انشقت من المعقل المجاور للمنطقة السياحية المشهورة .

ويقول أحد الباحثين المعاصرين : إن على المرء أن يرجع إلى المؤلفات التاريخية المتخصصة ليكتشف حقائق مذهلة عن التاريخ العربى الإسلامى فى سويسرا (٦٨٥ - ٧٤١م) حيث تزعم الأسطورة بأن العرب قد انهزموا هزيمة ساحقة فى معركة بواتيية أو بلاط الشهداء ٧٣٢م إذْ إن حقيقة الأمر أن المسيحيين لم يَهْزِمُوا فى بلاط الشهداء سوى طلائع صغيرة من العرب المسلمين بينما استمرالتهديد الإسلامى لأوربا أكثر من قرنين بعد ذلك التاريخ وقد حكم المسلمون أسبانيا وجنوب إيطاليا وأجزاء كبيرة من فرنسا إلى جانب جبال الألب السويسرية ، ولم يكن حكمهم بأية حال مجرد غارات وقطع طريق - كما تريد أن تقنعنا مصادر القرون الوسطى - وإنما كانت خطة إسلامية شاملة (استراتيجية) للسيطرة على أوربا .

وقد كان خطر هذه الخطة على الأوربيين كبيراً إلى درجة أن البابا فى روما دعا عام ٨٥٠م إلى حملات صليبية ضد أتباع محمد ﷺ فى منطقة الألب .. غير أن الخطة الإسلامية الكبرى للسيطرة على أوربا قد فشلت لأسباب تبدو معاصرة وهى (فرقة العرب والمسلمين فى ذلك الوقت) .

لقد أسهمت الصراعات السياسية داخل الصف الإسلامى فى إضعاف طلائع الفتح الإسلامى وتعطلت الإمدادات من أسبانيا وشمال أفريقيا عن المجاهدين فى أوربا فكان مصيرهم الهلاك فى بعض الأحيان. عندما أذهب إلى الجبال السويسرية أرى كما يحلم النائم صورة الفاتحين المسلمين منقضين عبر الحقول المكسوة بالثلج وهم يرددون صيحات (الله أكبر الله أكبر) فهل ترى سيعودون يوماً ما ؟(أحمد هوبر) .

وتتحدث المصادر الإسلامية مثل فتوح البلدان للبلاذرى عن دخول المسلمين إلى إيطاليا أو الأرض الكبيرة وهى أرض تقابل صقلية ومدينة بارة على بحر الأدرياتيك ، وكان لبنى الأغلب حكام تونس أشرف الجهاد فى سبيل رفع الراية الإسلامية (راية لا إله إلا الله محمد رسول الله) خفاقة عالية فوق قلب القارة الأوربية وفى عام (٢٢٨ هـ) أرسل إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب من صقلية أسطولاً قوياً عدته رجال شديد إيمانهم بالله وبالإسلام وبرغبتهم فى الاستشهاد فى سبيل الله والجهاد فى نصرة دينه ، ونزل الجند الإسلامى فى جنوب إيطاليا.. كذلك فقد قام مسلمو جزيرة صقلية بغزو إيطاليا من جهة الشرق ، ولم يتوقف هذا النضال سنوات طويلة .

ولم يكتف المسلمون بالقتال حول الأجزاء الجنوبية من إيطاليا بل كانوا يسعون من أجل السيطرة على روما عاصمة المسيحية فكانت الغزوة الأولى لروما من مسلمى الأندلس وشمال أفريقيا وكريت وصقلية عام ٢٣١ هـ ٨٤٦م وتقدم الأسطول الإسلامى الضخم ففتح إمارات طارنت ويزيدنيرى وهزم أسطول القسطنطينية الذى تحرك للدفاع عن الجنوب الإيطالى .

* * *

(٢)

هز دخول المسلمين إلى أرض الأندلس أوربا، وأزعج القوى المسيحية والكنيسة الكاثوليكية إزعاجاً شديداً حيث كانت لا تزال بيزنطة فى الشرق مشتبكة مع الحدود العربية فى طرسوس من أرض الشام وقد تراوحت الحملات الإسلامية الطامحة إلى فتح القسطنطينية .

ففى عام ٩٢ من الهجرة فتحت جبهة جديدة قوامها البربر والعرب سرعان ما وصلت قواها المسلمة تحت راية لا إله إلا الله إلى قلب جزيرة أيبريا فاحتشد الأمراء ورؤساء الكنيسة فى الغرب فى تجمع عسكرى محارب لمواجهة الدولة الإسلامية الجديدة التى قامت فى الأندلس .

تركزت نقطة البدء فى تلك الجماعات التى اعتصمت بالجبال فى شمال أسبانيا فى السنوات الأولى للفتح، والتى تجمعت من بعد للمقاومة عندما يحين الوقت المناسب ، وقد ظلت هذه القوى تناوئ الوجود الإسلامى وتتآمر عليه وتثير الفتن والخلافات بين العرب والبربر ، ومضت تعمل حتى لا تدع الدولة الإسلامية فى أمن ، وقد تحقق لها فى الجولة الأولى إقامة إمارتين (قشتاله وليون) ، وزحفت تستعين بمدائن الأندلس حتى وصلت إلى السيطرة على طليطلة . ومن يطالع تاريخ الأندلس فى هذه الفترة لا يرى إلا معارك وفتناً وحركات عصيان وصراع وتصادم وقتال خطير بين العرب والمولدين فى عدة أقاليم فى نفس الوقت الذى تتسع فيه الحضارة الإسلامية وتنمو فى شتى ميادين العمران .

ولقد وجه ولاة الأندلس جهدهم كله لمحاربة الفرنج والتوغل فى جنوب فرنسا، وأهملوا أمر العصاة من النصارى لضعف أمرهم عندئذ ، ولكن ثوار الشمال تجمعوا ونما شأنهم واشتد ساعدهم حتى بدأوا فى عهد عبد الرحمن الداخل يغيرون على الحدود الإسلامية . ولم يأت عهد عبد الرحمن الناصر حتى كانت لهم ممالك وإمارات ذات قوة ، فقد كون

الفرنج شرق جبل البرنيه إمارة صغيرة ونشأت مملكتا قشتالة وليون اللتان اتحدتا فيما بعد صارتا مهد العصبية النصرانية فى أسبانيا .

وقد ظلت الدولة الإسلامية تصعد إلى العلا حتى تألقت فى سماء المجد باسم الإسلام ومن خلال منهجه واجتمعت لها كل علوم المسلمين من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة .

ولكن ملوك أسبانيا المسيحية بذلوا جهوداً ضخمة لتمزيق أوصال الخلافة حتى تقسمت إلى دول الطوائف ، وخضعت هذه الدويلات للملوك المسيحيين الذين كانوا يتقاضون من بعضها جزية باهظة .

وقد بدأت الهزيمة والانحدار عندما تمزقت وحدة رؤساء المسلمين واختلفوا وغلبتهم مطامع الدنيا وضربهم الترف والانحلال ، وغفلوا عن بعض العناصر التى سيطرت .

وكان تدخل الصقالبة فى سياسة الدولة وقيادة الجيوش مصدر انهيار شديد (فقد بلغ عددهم فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يزيد على عشرة آلاف رجل وصلوا إلى المراكز الرئيسية فى الدولة الأموية ، واعتمد عليهم الأمويون للحد من نفوذ الأرستقراطية العربية فى الحكم وإضعاف سيطرة العرب والبربر حتى وصلوا إلى حد إقامة الخلفاء وعزلهم) .

ثم تقسمت الدولة الإسلامية الكبرى بعد ذلك إلى دويلات وكانت هذه هى علامة الخطر ثم جاءت المرحلة الأخيرة لسقوط الأندلس كلها فى أيدى القوى المتربصة والمتآمرة على الإسلام فلم يبق إلا مملكة غرناطة التى استمرت قرنين ونصف قرن .

* * *

(٣)

اندفع المسلمون إلى الفتح تحدوهم روح الإيمان بالإسلام والجهاد فى سبيله ونشر كلمته فى الخافقين ، ولم يكن دافعهم هو المطمع المادى ، ولم يكن قد ذلل لهم النصر ضعفُ هذه الدول أو انهيارها فقد كانت كلها فى حالات من القوة مكنتها من أن تحشد الجيوش الضخمة ، ولكنها لم تكن تحمل عقيدة تستميت فى سبيل حمايتها أو الدفاع عنها كما يحمل المسلمون ، فقد أصاب عقيدتها التضارب ، وقامت حضارتها على الظلم والاستبداد واسترقاق الإنسان . . فضلاً عن أنها كانت قد بلغت حداً كبيراً من التحلل الخلقى والفساد الاجتماعى ، فكان لابد من أن تسقط أمام قوة الحق البازغة .

وكـذلك كان الموقـف تماماً عندمـا وصلـت المجتمعات الإسـلامية إلى التحلل والضعف والفساد فقد كان لابد لها أن تنهار وتسقط وتجتاحها القوى الصلبة .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يجعل من تجربة الأندلس درساً وعظة للمسلمين على امتداد تاريخهم كله ، فهى الأرض التى خرج المسلمون منها بعد أن أقاموا دولتهم ثمانية قرون ونصف القرن ، فعليهم دراسة العبرة من الحدث حتى يزدادوا إيماناً بأن الاستمساك بالمنهج الإسلامى هو وحده القادر على إبقاء إرادة الحياة فى يدهم، فإذا ما تهاونوا فى هذه الرسالة أو ضعفوا عنها ضربهم الله بالذل أو سلط عليهم عدوهم ليسيطر عليهم وينتقم منهم حتى يعـودوا مـرة أخرى إلى الحق ويستمسكوا به ، ويؤمنوا بأنه لا سبيل لهم إلا طريق الله تبارك وتعالى ومنهجه .

وقد ظل تاريخ الإسلام – فى شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) – صراعاً مستمراً بين قوى الحق والباطل ، ولم ينهزم الحق وإنما أهله هم الذين تخلوا عنه فى سبيل متاع الحياة الفانية .

ولذا كـانت الأندلس فى نظر المسلـمين ثغـراً للإسـلام ، وأرض جـهـاد ورباط ، تعتورها بأوصـاف تـعبـر عن شـعـورهم ، وكـان الـشـعـور الدائم بالخطر والتـرقب هو غـالـب شـعـور الأندلسيين ، فهم يُحَذِّرون أبناءهم من الصغر ليكونوا على أهبة الاستعداد فى كل لحظة ، فكان الصـبـيـان يُدَرَّبون على العـمـل بـالسـلاح كـمـا يُعَلَّم القـرآن فى الألـواح ، وقـد مـهـر الأندلسيون فى استعمال القوس والنشاب ، وترييش السهام وركوب الخيل وقوة ضربات السيوف إلى غير ذلك من فنون القتال التى تعلموها منذ صغرهم .

وقد أعد الأندلسيون ليكونوا شعباً محارباً قد ترسبت فى نفوسهم فكرة الجهاد حتى صارت جزءاً من كيانهم .

هذه الفترة التى حققوا فيها الانتصارات وأخافوا العدو وحفظوا أرضهم وأوطانهم .

ثم سيطروا على مفاهيم العلم فانتقلت إلى الأندلس جامعاته وعلومه المختلفة من دمشق وبغداد والقاهرة ، وأصبحت الأندلس منارة مضيئة فى قلب أوربا التى كانت لا تزال غارقة فى ظلمات العصور الوسطى .

لقد فتحت أسبانيا جناحيها للمسلمين إيماناً منها بأنهم سيخلصونها من ظلم القوط الطاغى الذى امتد ألف سنة وكان موقفهم أشبه بموقف سكان الشام ومصر وإفريقية .

وكـان الإسـلام كـريماً مع أهل أسبـانيـا غـاية الكـرم ، فـقـد ترك لـهـم كنائسـهـم وأديرتهم وحـريتـهـم .. كـمـا رفع الاضطهـاد عن اليـهـود ومـا لبث الاطمـئنان أن عـاد إلى النفوس

المسيحيين فى أسبانيا ، وفضلوا الحكم الإسلامى على الحكم القوطى .

كذلك فقد أدخل الإسلام إلى الأندلس الصناعات والزراعة فاستثمروا أرضها الخصبة ونقلوا إليها العلوم التجريبية .

وانتقل طلاب العلم من كل مكان فى أوربا إلى جامعات الإسلام فى الأندلس خلال ثمانية قرون كاملة .. حيث أقام المسلمون حضارة باهرة ، غير أن الخلاف ما لبث أن وقع بين القادة وأهل الحكم ، واستعان كل فريق بالعدو الذى كان قد استشرى واتسع نطاق ملكه، وانتفع الأسبانيون بذلك الانقسام ، فأخذوا يحرضون أمراء المسلمين بعضهم ضد بعض .

وبينما كانت الأندلس تموج بالصراعات بين الفئات المختلفة كانت الحملات الصليبية قد تعرضت من جبهة بيزنطة إلى بيت المقدس فلم يمض على تمزق الخلافة الأموية وسيطرة ملوك الطوائف (٤٦٦ هـ - ١٠٨٥م) أقل من ثلاثين عاماً حتى كانت الحملات الصليبية قد فتحت جبهة جديدة فى قلب عالم الإسلام .

* * *

(٤)

يقول الدكتور أحمد مختار العبادى :

لم يكن الفتح العربى لأسبانيا مجرد احتلال عسكرى صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال ، ثم هبطت إلى أقصى الجنوب بل كان حدثاً حضارياً امتزجت فيه حضارات سابقة كالرومانية والقوطية مع حضارة جديدة لاحقة : هى الحضارة الإسلامية ، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الغربى الأوربى المجاور وأثرت فيه ، فالفتح الإسلامى لأسبانيا كان ختاماً لدور سابق وبداية لدور إسلامى لاحق ، تغلغل فى الحياة الإنسانية وترك آثاراً عميقة ما زالت معالمها واضحة حتى اليوم .

ومنذ سقطت طليطلة الإسلامية فى يد الأسبان ٤٧٧ هـ - ١٠٨٥م بدأت حركة نقل العلوم الإسلامية إلى أوربا والغرب عن طريق الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية (الأسبانية) حيث ترجم الطب والفلك والكيمياء والرياضة .

وبقيت طليطلة على هذا الوضع طيلة ثلاثة قرون قبل خروج المسلمين من غرناطة آخر معاقلهم .

بل لقد استمر الدور الإسلامى فى بناء الحضارة أكثر من قرن من الزمان بعد سقوط آخر

المعاقل الإسلامية ، لأن الشعب المسلم كان هو الذى يضطلع بالشطر الأعظم من النشاط الحيوى فى أسبانيا من زراعة وصناعة وتجارة .

هـذا التأييد الحضارى والثقافى الذى استمر نحواً من تسعة قرون عن طريق المعابر الثلاثة :

١ – بالرمو وصقلية .

٢ – الأندلس (طليطلة) .

٣ – الحروب الصليبية .

وهذه هى عبرة انتقال المسلمين إلى أوربا التى تتمثل فى حمل الأمانة إلى العالم كله ، وبعد أن اتسع نطاق الإسلام فى آسيا وأفريقيا كان لابد أن يحمل رسالته إلى أوربا المسيحية التى كانت قد أصابها الجمود والتخلف تحت اسم الرهبانية بعد تحولها من الوثنية اليونانية إلى المسيحية الغربية التى تختلف تماماً عن المسيحية المنزلة .

كان لابد للمسلمين من أن يؤدوا هذا الدور فى تمدين البشرية ، وهذا ما شهد به المؤرخون الغربيون أنفسهم الذين عارضوا موقعة بلاط الشهداء حين ظن الغرب أنه استطاع القضاء على القوة الإسلامية وهى التى كانت تحمل له الضياء من خلال رسالة السماء ، وتحمل له الحضارة التى عرفتها الأندلس وامتدت منها خلال ثمانية قرون ونصف القرن إلى أوربا كلها عن طريق جامعاتها .

كانت إرادة الله تبارك وتعالى الغالبة هى التى بسطت كلمة التوحيد والإيمان فى قلب أوربا عن طريق الأندلس من ناحية وعن طريق جزيرتى بالرمو وصقلية .

وتشابكت عمليات الفتح الإسلامى مع عمليات التراجع ، ففى الوقت الذى تراجعت فيه الحروب الصليبية كان نجم الدولة العثمانية يبزغ ، وحين قيل إنه سيئول نجم الأندلس إلى الأفول كان فتح القسطنطينية هو الحدث الذى غير الموازين .

* * *

(٥)

بدأ الانهيار من ذلك الجيب المنعزل فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة الذى يعرف بإقليم جليقية ، والذى نبتت فيه بذرة الدولة الأسبانية حيث أخذ الأسبانيون يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم ، فلما وقعت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبين البربر من

ناحية أخرى انتهز النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويرة واحتلوا مدينة لبون ، وجعلوها عاصمتهم وظل أمرها يتسع رويداً رويداً فى المنطقة التى خلت بنزوح البربر إلى الجنوب أو بعودتهم إلى إفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب حتى إذا ما وصلت إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث الملقب بالكبير نجد هذه الإمارة تحتل مدينة سمورة ، وأصبحت حصن الإمارة المواجهة للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى وقد هاجمها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت عندهم (سمورة الخراب) .

وقد تضامنت هذه الإمارات المسيحية فى شبه حصار لأسبانيا الإسلامية حتى لا تتوسع من الناحية الشمالية ضد مملكة الفرنجة ، وأيدها فى ذلك العالم الكاثوليكى والبابوية .

وكانت الخطوة التالية هى الاستيلاء على طليطلة الإسلام (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥م) حيث بدأت حركة الانقضاض على التراث الإسلامى وترجمته مما مكنها من أن تؤدى دورها فى نقل الحضاة الإسلامية إلى عالم الغرب .

وفى هذه المرحلة نقلت من المشرق أمهات الكتب إلى الأندلس ووصلت مكتبة الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر إلى ستمائة ألف مجلد .. فى حين كانت أعظم مكتبة فى العالم المسيحى تضم مائة وخمسين مجلداً .

وتميزت كتب المسلمين بأنها حملت علوم المجريطى والزرقانى وابن البيطار وقد نقلت إلى طليطلة مكتبة المستنصر قبل سقوطها ومنها بدأت حركة الترجمة التى قادها (ريموندو) رئيس أساقفة طليطلة ، وبدأت المرحلة الأولى فى الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وترجم المجسطى كتب اليونان القديمة عن العربية .

واطلع العالم الغربى لأول مرة على كتاب الشفاء لابن سينا ، وهكذا قام المسلمون بأداء الأمانة ، ونقلوا إلى الغرب نتاج علمهم وحضارتهم ، وكانت طليطلة أداة وصل بين هذه الثقافة وبين الشعوب الأوربية ، ولولا الأندلس لظلت الثقافة الإسلامية محصورة فى البلاد العربية ولما أتيح لها أن تؤدى الدور الخطير الذى قامت به فى بناء الحضارة العالمية .

* * *

(٦)

يقول دكتور حسين مؤنس : عندما بدأ العصر الذهبى للأندلس ابتداء من حكم عبد الرحمن الناصر (٩١٢م) هاجر ألوف من النصارى الشماليين إلى بلاد الأندلس لينعموا بالأمان والعدل فى دولة الإسلام وكان زحفاً بطيئاً لم يشعر به أحد ، وكان أولئك المهاجرون

يستقرون فى شرق الأندلس .

وكان المسلمون راضين بهذه الهجرة لأن البلاد كانت فى حاجة إلى أيد عاملة، ولكن النتيجة كانت وبالاً فى القرن التالى عندما سقطت دولة الخلافة ، وانقسم الأندلس إلى ممالك الطوائف وتبين أن أعداد النصارى فى الأندلس كانت تزيد على أعداد المسلمين فى الجملة وكان لهذا أثره البعيد فى مصير الأندلس .

* * *

(٧)

ودخلت الأندلس فى مرحلة الضعف بانهيار دولة الخلافة الأموية وتمزق الأندلس إلى ولايات صغيرة أطلق عليها (أمراء الطوائف) ، وكان ملوك النصارى فى فترة ضعف خلافة قرطبة قد انتهزوا الفرصة فوسع كل منهم ملكه على حساب المسلمين ، فانحدرت خلافة الأندلس إلى نهر باجة (أى أن الأندلس لم تعد تشتمل إلا على نصف شبه الجزيرة الأيبيرية، ثم كان استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة .

وهنا استنجد الأندلسيون بأهل المغرب حيث كانت دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الذى قدم إلى الأندلس وهزم الفونسو فى معركة الزلاقة ٤٧٦ هـ – ١٠٨٦م ، ثم فى معركة أفليس ٥١٢ هـ – ١١١٨م ولما استولى ملك أراجون على الثغر الأعلى (سرقسطة) عبر الموحدون إلى الأندلس ١١٥٠م ، وانتصروا على النصارى فى معركة الآرك ١١٩٥م ثم انهزموا فى معركة العقاب ١٢١٤م .

وهكذا – كما يقول المؤرخون – إن المغرب قد أنقذ الأندلس من الفناء المحقق حينما اشتدت وطأة الجيوش النصرانية عقب سقوط طليطلة وحين شعر ملوك الطوائف بالكارثة واستنجدوا بإخوانهم المرابطين فيما وراء البحر – سادة المغرب ، واستجاب المرابطون وعبروا البحر إلى أسبانيا ، والتقوا بالجيوش النصرانية إلى جانب الطوائف فى موقعة الزلأقة الكبرى ، وأحرزوا فيها نصرهم الباهر بسحق الجيوش النصرانية ، وأنقذت الأندلس بذلك من الفناء المحقق وكان ذلك بقيادة يوسف بن تاشفين .

ولما سقطت طليطلة ارتجت الأندلس فرقاً ورعباً وبعد سقوط طليطلة ونصر الزلأقة الساحق أحرز الموحدون بقيادة عاهلهم (أبو يعقوب المنصور) نصرهم الحاسم على أسبانيا النصرانية فى موقعة الآرك الشهيرة (٥٩١ هـ – ١١٩٥م) فكانت زلأقة أخرى ، ولكن الأندلس ما لبثت أن لقيت هزائمها الحاسمة على يد أسبانيا النصرانية فى موقعة العقاب

المشئومة ٦٠٩ هـ - ١٢٠٢م وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولأسبانيا المسلمة معاً .

* * *

(٨)

كان عبور جموع البربر المسلمين إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ثم الموحدين من بعدهم لإنقاذ الأندلس من خطر الفناء ولتجديد عهد الجهاد، هذا العمل أثار القوى النصرانية ، فاستصرخت أوربا المسيحية باسم الدين ، وشملت روما هذه الحركة برعايتها ، وأذن البابا جريجورى السابع للمتطوعين فى الحرب باسم الدين أن يحكموا الأرض المفتوحة باسم البابوية .

تلك مرحلة الاستنصار بالمسلمين المغاربة الذين عبروا مرتين وجددوا شباب الأندلس وأعطوها حياة جديدة امتدت أربعة قرون أخرى .

وكانت مملكة غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبالرغم من العمر الطويل الذى قدرلها كانت تستشعر الخطر الداهم دائماً ، وتترقب تآمر جارتها المملكة النصرانية الأسبانية فى خوف وفزع .

وإن كانت قد لقيت من بنى مرين سادة المغرب العون والنجدة باستمرار ، وترك ملوك غرناطة لبنى مرين ثلاث قواعد أندلسية - لتكون مراكز الدفاع وتدفق قوى النجدة - هى : جبل طارق (جبل الفتح)، ونده، والجزيرة الخضراء .

وقد أبدى بنو مرين فى هذه المهمة الدفاعية اهتماماً وإخلاصاً ومقدرة واستعادوا جبل طارق من يد النصارى .

غير أن مملكة بنى مرين ما لبثت منذ أواخر القرن الثامن الهجرى أن أصابها الضعف ولم يعد فى وسعها أن تهرع إلى نجدة شقيقتها فيما وراء البحر وشعرت مملكة غرناطة أنه لم يبق فى وسعها أن تعتمد على هذا الجانب الذى كان ينجدها وأيقنت أنها لابد من أن تعتمد على نفسها .

ومضت غرناطة فى الصمود لهجمات الممالك المسيحية خلال قرنين ونصف .

ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان .

لقد تجمع الغرب كله بعد أن اتحدت مملكتا أرجون وقشتالة ، وتزوج ملكاهما

الكاثوليكيان : فرناند وآزبيلا .

قال المؤرخ باركر : إن السبب فى سقوط غرناطة بسهولة أمام المسيحيين بعد أن ظلت تقاوم بنجاح سبعة قرون يرجع إلى أن فرناند وآزابيلا استطاعا إحضار قوة تتكون من مائة وثمانين مدفعا من مدافع الحصار لمقاومة حصون غرناطة ، وذلك لأن تفوق المدفعية يحسم الهجوم على الحصون القديمة حول المدن ، وهذا هو الدرس الذى وعاه محمد الفاتح ونقله عن أصحاب غرناطة وبين المعركتين أربعون سنة .

* * *

(٩)

لم يُسَلِّم الأوربيون يوماً واحداً بالوجود الإسلامى بالرغم من كل ما قدمه لهم من حضارة ونظم سياسية واجتماعية .

وظل الفرنجة يقاتلون ويتآمرون ولم يتوقفوا عن ذلك طوال عهد الدولة الإسلامية ، ولما دخلت مرحلة الضعف زاد تآمرهم وعاونتهم البابوية وبعض ضعاف النفوس الذين وعدوا بالمناصب ، وظلوا يقتطعون من الوطن الإسلامى قطعاً حتى كانت غرناطة التى صمدت أكثر من قرنين ثم جاء دورها بعد أن بلغ الترف والفساد غايته .

وتحققت الهزيمة كما جاء قانونها فى القرآن الكريم من أن الأمة التى تخرج على سنن الله وقانونه ومنهجه لابد من أن تنهار ، وكان من أسباب الهزيمة :

١ - الصراع الداخلى بين القوى الإسلامية واستعانة كل منها بالعدو فى سبيل الانتصار على الآخر فجعل الله بأسهم بينهم شديدا ، ولو اتحدت كلمتهم على مقاومة العدو لاستطاعت أن تقيم سداً منيعاً فى وجه أسبانيا النصرانية غير أنها شغلت عن الخطر العام الذى يهدد حياتها جميعاً بالمنازعات الشخصية والمعارك الداخلية ولم يحجم البعض أن يظاهر ملوك الشمال على إخوته فى الإسلام .

٢ - جعلوا الدنيا ومطامعها وترفها وزخرفها هو الغاية .

٣ - تمزق الوحدة الجامعة بين المسلمين عرباً وبربراً وعناصر أخرى تجمعها كلمة لا إله إلا الله .

٤ - لم يتمكن المسلمون من إرساء قواعد الإيمان ، وشغل الفاتحون بالتمتع بخيرات البلاد المفتوحة ، وخدمهم أبناء الروم ، وأكثروا من زواج الأجنبيات فضرب الله قلوب

بعضهم ببعض ، فنالت منهم عوامل العصبيات القبلية والعرقية .

٥ – ترك المسلمون تلك الثغرة القديمة حتى تجمع حولها أعداؤها ومنها ضربوا كيان الدولة الإسلامية فى الصميم وكانت موضع الإغارة عليهم ، وظلوا عناصر غريبة عن المجتمع الجديد لم يتذوقهم ولم يهضموه إلى أن تم إخراجهم نهائياً ، هذا ولايمنع من أن نذكر أن الفقهاء والمجاهدين قاتلوا واستشهدوا ولكن غلبهم سلطان الغزو والترف والصراع بين الأخوين . وهل توقف الأمر عند استرداد الأندلس وتنصير المسلمين الموجودين فيها ؟

لقد نفذت أسبانيا المسيحية خطة غاية فى الانتقام من المسلمين الذين قدموا الحضارة والعلم التجريبى لأوربا والذين أخرجتهم أوربا مقتولين أو مهاجرين ، واستولت على قواعد الجامعات والحضارة والعلوم جميعاً .

لقد بدأت خطة الالتفاف حول العالم الإسلامى .

لقد أوصت وصية الملكة آزبيلا الملوك والرؤساء الأسبان الذين يتعاقبون الحكم فيما بعد باحتلال شمال أفريقيا وإخضاعها للصليب .

ومن ثم كانت حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا .

* * *

ملاحق البحث

أولاً : أقام الإسلام فى الأندلس ثمانية قرون ٩٣ – ٧١١ هـ إلى ٩٩٨ – ١٤٩٤م ، انتقل فيها بين ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : حتى نهاية الخلافة الأموية .

المرحلة الثانية : قيام المرابطين ثم الموحدين بنصرة مسلمى الأندلس .

المرحلة الثالثة : مملكة غرناطة لمدة قرنين من الزمان .

١- انتهت المرحلة الأولى فى أواخر القرن الرابع الهجرى بوفاة الحاجب المنصور ، ومنذ أوائل القرن الخامس تحولت الأندلس إلى دول الطوائف حيث لا حت الفرصة لأسبانيا النصرانية أن يترامى ملكها على أعتاب بلاط قشتالة .

وكان سقوط طليطلة (٤٧٦هـ) أول حاضرة أندلسية كبرى تسقط فى أيدى النصارى هو نذير الخطر الداهم على سائر ممالك الطوائف ، فكانت استغاثة الطوائف بإخوانهم المسلمين وراء البحر ، وبعاهل المغرب وزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين وكانت موقعة الزلاقة ٤٧٩ هـ – ١٠٨٦م ، ثم استيلاء المرابطين على دول الطوائف وبسط سيادتهم على الأندلس ، ثم جاء الموحدون بعد ذلك واستمرت الأندلس زهاء قرن ونصف تحت حكم الدولتين المغربيتين (المرابطين والموحدين) ووقعت مواقع حاسمة بين الجيوش الإسلامية وبين الجيوش النصرانية (أفليش – افراغة – الآرك) وفى الآرك (٥٩١ هـ – ١١٩٤م) بقيادة الخليفة يعقوب المنصور انهزمت جيوش أسبانيا النصرانية مرة أخرى أمام المسلمين ، ثم كانت هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب (٦٠٩ هـ) ، وعلى أثرها انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، واضطربت بالفتن ونشبت الخلافات ، واستطاعت أسبانيا النصرانية أن تنتزع القواعد الأندلسية الكبرى (قرطبة – بلنسية – شاطبة – مرسية – أشبيلية – بطليوس) ثم جاءت المرحلة الثالثة بقيام مملكة غرناطة لمدة قرنين من الزمان وكان بنو مرين فى المغرب معضدين لغرناطة وقاموا بالدورالذى قامت به دولتا المرابطين والموحدين ، وكانت معاونة بنى مرين لمملكة غرناطة عند حد الاتحاد والتحالف الأخوى والرغبة الخالصة فى الجهاد الإسلامى (محمد عبد الله عنان) .

٢ – بعد سقوط غرناطة فى أيدى القشتاليين (٨٩٧ هـ – ١٤٩٢م) ، وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس انسابت جيوش أسبانيا النصرانية وأساطيلها على الأثر على الضفة الأخرى من البحر لغزو الشواطئ المغربية الشمالية والاستيلاء على معظم ثغورها فى حملات

صليبية برية وبحرية .

وفى الوقت نفسه قامت حملة إكراه للمسلمين المقيمين فى الأندلس على التنصر بأبشع الوسائل وأفظعها وحرمانهم من التخاطب بالعربية والتسمى بالأسماء العربية ولبس الثياب العربية ومن سائر تقاليدهم القديمة ، فضلاً عما أصابهم من التعذيب والتحريق على يد محاكم التفتيش الشهيرة التى أنشئت للعمل على إبادة بقايا الأمة الأندلسية ، ولم يمض على سقوط غرناطة زهاء خمسين عاماً حتى استحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طائفة من الموريسكيين المتنصرة .

٣ – والموريسكيون هم بقايا المسلمين الذين بقوا بالأندلس بعد زوال الدولة الإسلامية وتعرضوا للاضطهاد وحافظ قسم كبير منهم على دينه وعقيدته .

٤ – ظهر فى غربى البحر المتوسط عنصر جديد من تطور الحوادث يتمثل فى جهود البحارة الترك وعلى رأسهم عروج وخير الدين .. حيث تم الاستيلاء على الجزائر ١٥١٧م وعينه السلطان سليم حاكماً على تلك الأنحاء وقام بغاراته الجريئة المثيرة على شواطئ أسبانيا الشرقية واتصل بالموريسكيين فى بلنسية وغيرها ، واستطاع أن ينقل منهم أعداداً كبيرة إلى الثغور المغربية تقدر بنحو سبعين ألفاً .

وقد استأنفوا غاراتهم على الشواطئ الأسبانية بقيادة أمير البحر طرغود الذى خلف خير الدين .

٥ – المرابطون : قوة ناشئة خرجت من وسط أفريقيا مندفعة بحرارة إيمانها تقطع رمال الصحراء الكبرى الخاضعة (وادى درعه وواحات سلجاسة) فإذا وهاد المغرب ونجاده تقبل بأعناق المهارى قد تمكنت من غواربها أجسام بشرية ملتحفة الأثواب الزرق وملثمة بها ، يلين الحديد ولا تلين ، وتخبو النار ولا تنطفئ حرارة تلك النظرات المتقدة بين أطباق اللثام

أولئك هم المرابطون الذين انبعثوا ينشئون عاصمة المغرب الجديد (مدينة مراكش) ويمدون رواق سلطانها على طول العدوة الأفريقية ببلاد المغرب ثم يرمون بحبل النجاة إلى العدوة الأندلسية فى يوم الزلاقة العظيم لتقوم الشوكة وتحيا الدولة تحت ظل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقد أنقذت الإسلام من الخطر الذى داهم بلاد الأندلس .

* * *

ثانياً : حول طارق بن زياد وفتح الأندلس :

قام الأسطول الإسلامى زمن الفتوحات للشمال الافريقى بدور هام ورئيسى وظهرت فعاليته ضد غارات الأساطيل البيزنطية ومواجهتها فى معارك مكشوفة مثلاً : معركة ذات الصوارى بالقرب من الإسكندرية عام ٤٥ هـ ، وفى إنهاء قواعد البيزنطيين البحرية وفتح العديد منها : قبرص – جرية .

وعندما فتح المسلمون تونس أسس القائد حسان بن النعمان عام ٨٠ دار صناعة لإنشاء السفن ، جلب لها العدة المناسبة ، وأقر حولها ألف قبطى بعيالهم نقلهم من مصر بموافقة الخليفة بدمشق وتدبيره . (ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا : حسن حبشى) .

والملاحظ ضخامة هذه القوات التى بلغ تعدادها فى المدة الأولى سبعة آلاف مجاهد ، ولا تذكر أمهات المصادر شيئاً عن إحراق طارق للأسطول ولا عن الخطبة .

ومن هذه المصادر : الواقدى المتوفى ٢٠٧هـ – البلاذرى المتوفى ٢٧٩هـ – ابن عبد الحكم ٢٥٧ هـ – الطبرى ٣١٠ هـ – ابن القوطية الأندلسى ٣٦٧ هـ .

ومن المصادر التى تعرضت لإحراق الأسطول والخطبة : المقرى فى نفح الطيب .

وقد عاش المقرى بعد فتح الأندلس بتسعة قرون فى حين أن المؤرخ التونسى المعاصر له ابن أبى دينار فى كتابه المؤسس فى أخبار أفريقية وتونس لم يتعرض لذكرهما .

ومن جهة أخرى فإن ابن عبد الحكم أكد مدى يقظة طارق وحذره قبل مهاجمة الأندلس وأنه كان يُولِى خط الرجعة اهتماماً خاصاً فيما لو حصل ما لا تحمد عقباه فمر طارق بجزيرة فى البحر مخلفاً بها نفراً من جنده .

كما تجمع المصادر على أن طارق بن زياد قد بعث بطلب النجدة بعد انتصاره الأول جنوب قرطبة ، فأمده القائد موسى بن نصير بقوات عدتها خمسة آلاف مجاهد تمكن بها طارق من خوض المعركة الثانية بإقليم أشبيلية .

وبلغ الخبر (لذريق) فزحف إليهم من طليطلة فالتقوا بموضع يقال له (شدرونه) فاقتتلوا قتالاً شديداً فَقُتِلَ لذريق ومن معه .

(فتوح بن عبد الحكم)

ومما يؤكد انتحال الخطبة أن المراجع التى ذكرت بها تختلف فى رواياتها لنص الخطبة وأن بعض ما جاء فيها مخالف للأهداف الحقيقية للفتوحات الإسلامية .

* * *

ثالثاً : معركة بواتييه وعبد الرحمن الغافقى :

يقول سلمان قطاية فى بحث له : جاوز العرب جبال البرانس وانبثوا غرباً وشمالاً وإلى الشرق أيضاً فاحتلوا كل الشاطئ اللازوردى التونسى ودخلوا إيطاليا بل إنهم جهزوا حملة لاحتلال روما وفريق منهم ذهب شمالاً حتى مقاطعة السافوا العالية على الحدود السويسرية، وغرباً فى منطقة الأكسيتين واللانفدول حيث لا تزال آثارهم فى اللغة والفنون باقية ، ومضى آخرون شمالاً فاحتلوا مدناً كثيرة حتى وصلوا بواتييه .

ويعنى ذلك أنهم احتلوا قرابة ربع مساحة فرنسا وقطعوا من جبال البرانس حوالى ٧٠٠ كيلو متر ، وكان من عادتهم أن يصحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم. وإلى جانب بواتييه المدينة يوجد سهل كبير واسع يفصله عن المدينة نهر صغير .. حيث ضرب العرب خيامهم فى السهل استعداداً للمعركة إذ بلغهم أن العدو قد جمع جموعاً غفيرة من عساكر القتال ، وقد تميز العرب على حد قول المؤرخين الفرنسيين باستهانتهم بالموت والجوع والعطش ، وبإيمانهم بأن الشهادة مفتاح الجنة ، كما تميزوا بسيوفهم الفولاذية وبخيولهم التى لا مثيل لها .

وقد برزت شخصية الغافقى للمرة الأولى على أثر هزيمة المسلمين أمام قوات الفرنجة مع موقعة (تولوشة) تولوز الشهيرة ومقتل قائدهم السمح بن مالك أمير الأندلس فى أواخر ١٠٢ هـ / ٧٢١م ، وكان المسلمون فى ذلك الوقت قد عبروا جبال البرنيه غير مرة واقتحموا ولايات فرنسا الجنوبية واحتلوا ثغر (أربونة) وعدة مدن هامة أخرى من ولاية سبتمانيا واختاره الزعماء للقيادة على أثر النكبة ثم أصبح والياً للأندلس .

وكانت مهمته غزو الأمم الشمالية وحمل رسالة الإسلام إليها ولم ينس أن ما قام به الإسلام من (حرب الفرنج قد أضحى فى خطر السقوط وكان يتوق إلى الانتقام لغزوة تولوشة) ومقتل السمح بن مالك) .

وقد سار فى جيش ضخم من العرب والبربر (١١٠ هـ - ٧٣٢م) إلى غاليس فرنسا واخترق جبال البرنية ووصل إلى فرنسا ربيع ٧٣٢م وزحف توا على إمارة أكوتين جنوب غرب فرنسا .

(كما استولى على بوردو وسار الجيش شرقاً نحو الرون واخترق ولاية سرجوتيه ، ووصل إلى صانص التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط ثم تحول غرباً إلى ضفاف نهر اللوار وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من المشرق إلى المغرب فى بضعة أشهر .

وفى معركة بواتيه مع كارل هاريل أصابه سهم فنشر الرعب فى الجيش وتخاذل الأمراء الفرنسيون حيث التقوا به عند مدينة تور (بلاط الشهداء) .

رابعاً : يوسف بن تاشفين – زعيم المرابطين :

(بطل معركة الزلاقة – تلميذ عبد الله بن ياسين) .

لقد كان المرابطون مضطرمين بروح الجهاد ، وهذه الروح هى التى جعلتهم ينتصرون فى معركة الزلاقة وغيرها . . هذه الروح هى التى جعلت المرابطين يحرزون الانتصارات الباهرة ضد أسبانيا النصرانية ويحافظون على الأندلس ولم يبدأ نجمهم بالأفول إلا بعد قيام الثورات عليهم من إخوانهم فى الدين وعبور الموحدين إلى الأندلس .

أما الموحدون فعلى الرغم من أن دافعهم للجهاد كان كدافع المرابطين إلا أنهم لم ينالوا فى حروبهم ضد أسبانيا النصرانية ما ناله المرابطون من نصر فى الجهاد وسبب هذا اختلال نظام الجيوش الموحدية وضعف قيادتها .

ولم تبرز الجيوش الموحدية فى جهادها ضد النصارى إلا فى معركة (الآرك) العظيمة التى أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور انتصاره الباهر على القشتاليين ٥٩١ هـ ١١٩٥م ولكن هذا النصر لم يثبت إذ محت آثاره معركة (العقاب) التى انتصر فيها القشتاليون ولم يمض على هذه المعركة سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين أمير المغرب وكان ملوك الأندلس قد استنجدوا به لنصرتهم فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية يعلمه بحال الأندلس وما آل إليه من تغلب العدو على أكثر ثغورها وبلادها ويسأله النصر والإعانة .

وقد جاء يوسف بن تاشفين فى جيش كثيف وكانت معركة (الزلاقة) هذه المعركة الحاسمة التى جرت بين المسلمين والأسبان فى الأندلس إذ قتل فيها معظم جيش العدو الذى لم يكن يقل عن مائة ألف شخص وكسرت شوكة الأسبان إلى حين طويل وأمد الله تبارك وتعالى بسببها فى حياة الأندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن .

وكان الأسبان قد أجمعوا أمرهم على إخراج المسلمين من شبه الجزر الأندلسية فى هذه الفترة التى بلغت فيها دولتهم منتهى الضعف تحت حكم ملوك الطوائف ، ولكن الله خيب آمالهم وأبطل تدبيرهم وأعاد لدولة الإسلام عزها وصولتها .

وكانت (الزلاقة) يوم الجمعة ١١ رجب ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م) ، وفى عام

٤٨١ هـ جاز يوسف إلى الأندلس جوازه الثانى برسم الجهاد وقد انطلقت فرسان العدو من حصن (لبسيط) المتاخم لمملكة ابن عباد انتقاماً منه لأنه كان السبب فى دخول المرابطين إلى الأندلس .

وحاصر يوسف الحصن أربعة شهور وجاء المدد إلى الحصن فأقلع عنه يوسف ورجع إلى المغرب وقد تغير على ملوك الأندلس لكونهم تخلفوا عن دعوته .

ثم جاز إلى الأندلس جوازه الثالث برسم الجهاد ٤٨٣ هـ ، وسار حتى نزل طليطلة وحاصرها والفونس فيها فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناصيتها فلم يأبه أى ملك من ملوك الأندلس فلما شفى غيظه من طليطلة سار إلى غرناطة وكان ملكها المسلم قد ظاهر الفونس على يوسف فأخذها من يده ، ثم ضم يوسف الأندلس إلى ملكه ٤٨٤ هـ حيث استصفى ملوك الطوائف وخضعت البلاد كلها ليوسف ثم كان انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية فى محرم ٥٠٠ هـ بعد إنقاذه للأندلس .

وكان الأسبان قد بدأوا حملة اكتساح قوية لبلاد المسلمين أو ما يسمونه حرب الاسترداد، واستخفوا كثيراً بملوك الطوائف الذين ورثوا خلافة قرطبة لما رأوا تنازعهم وقلة عنايتهم فى الدفاع عن حوزتهم حتى أنهم رضوا بدفع الإتاوة للعدو لقاء كفه عن قتالهم .

وكان الفونس السادس ملك قشتالة ، قد شق بلاد الأندلس شقاً وسقطت طليطلة فى يده .

وهكذا استولى يوسف بن تاشفين على دول الطوائف فى مدة لا تزيد على عشرين عاماً ٤٨٣هـ - ٥٠٣ هـ وبهذا أصبحت الأندلس ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش وتحتلها القبائل البربرية المغربية بعد أن كانت المغرب ولاية أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية قبل هذا التاريخ بقرن من الزمان .

وقد حكم المرابطون نصف قرن وخلفهم الموحدون الذين حكموها أكثر من قرن وكان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين وزعيم الموحدين عبد المؤمن بن على ، وكلا المرابطين والموحدين ينتمى إلى طائفة من القبائل البربرية وقامت كلتاهما على أسس دينية وعلى يد فقيه : عبد الله بن ياسين للمرابطين والمهدى بن نومرت للموحدين ، وتجمعهما فكرة الجهاد وحماية الأندلس من عدوان الممالك الأسبانية النصرانية ، وكانت روح الجهاد تضطرم فى نفوس المرابطين وهى التى جعلتهم ينتصرون فى معركة الزلاقة وغيرها ، وهذه الروح هى التى جعلت المرابطين يحرزون الانتصارات الباهرة ضد أسبانيا

النصرانية ويحافظون على الأندلس .

أين هذا من جنود الأندلس المترفين الذين نسوا مهمة الحرب وغرقوا فى ملذات الدنيا حتى إنهم جاءوا إلى الحرب بثياب حريرية عدها البربر غير لائقة إلا بالنساء ؟

[عن محمد عبد الله عنان – وآخرين]

* * *



البابُ الخامِس

تطويق عالم الإسلام



قاوم المسلمون عمليات تنصيرهم وصمدوا طويلاً فى وجه الاجتياح، وغدر الحكام الجدد فلم ينفذوا العهود والمواثيق التى ارتضوها بإعطاء أهالى البلاد المسلمين حقهم فى الحياة وحريتهم فى العبادة .

وظلت هذه المقاومة مستمرة لم تتوقف من ١٤٩٢ إلى ١٦٠٨م عندما قام الأسبانيون بطردهم نهائياً ، حيث جمعوا مئات الألوف منهم فى عملية تهجير بشعة حيث قذف بهم على الشاطئ الآخر من تطوان والجزائر وتونس ، وحيل بين الأبناء وبين الآباء والأمهات، ومنع كل من دون البلوغ من الهجرة لسهولة تنصير هؤلاء .

لقد كانت الخطة خطيرة شديدة الخطر . . لم تكن هى استرداد الأندلس وإخراج المسلمين والعرب بعد الاستيلاء على كل مقدراتهم وجامعاتهم ومفاهيمهم العلمية وحدها، ولكن استغلال هذه القوة كلها فى متابعتهم ومطاردتهم بعد أن يعبروا البحر إلى الساحل الآخر والذهاب إلى أقصى الأرض فى سبيل القضاء عليهم .

يقول الأستاذ محمود الغول :

كان البرتغاليون قد أخرجوا العرب من بلادهم فى غرب الأندلس فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد وشغلوا بعدها وقتاً بحروبهم فى مملكة ليون إحدى مملكتى أسبانيا إذ ذاك .

وفى مطلع القرن الخامس عشر بدأوا يتجهون إلى البحر ، إذ أن سبيل التوسع فى البرِّ كان مسدوداً بسبب إحاطة أسبانيا بالبرتغال من سائر الجهات .

وكان البرتغاليون قد أنشأوا أسطولاً تجارياً يتاجر مع سواحل أوربا الغربية ، ولكنهم ابتدأوا فى القرن الخامس عشر تحت قيادة الأمير هنرى الملاح يبحرون حذاء ساحل أفريقيا على المحيط الأطلنطى تدفعهم رغبة فى أن يصلوا إلى مملكة القسيس يوحنا (وهو الاسم الغريب الذى كانوا يطلقونه على مملكة نصرانية فى شرق أفريقيا لا يعرفون حقيقتها إلى أن تبين لهم فيما بعد أنها مملكة الحبشة) .

كانوا يطمعون فى أن يصلوا إلى هذه المملكة الغامضة ، فيتحدوا معها ويطبقوا مثلها على المسلمين فى الشرق ومضوا يزحفون على سواحل أفريقيا الغربية على مهل حتى بلغ بهم سعيهم إلى رأس الرجاء الصالح . . أقصى نقطة جنوباً فى أفريقيا عام ١٤٨٦م .

كان وصول البرتغاليين إلى رأس الرجاء الصالح لا يقل أهمية عن اكتشاف كولمبس لأمريكا عام ١٤٩٢ م لحساب أسبانيا، فكلا الاكتشافين كان بعيد الأثر فى تطوير الاستعمار الغربى وتطور التاريخ الحديث .

ولكن اكتشاف رأس الرجاء الصالح يزيد أهمية بالنسبة للعرب عن عام سقوط غرناطة بالأندلس ، فقد كان أمرها يكاد يكون محتوماً .

كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أكبر ضربة للعرب فى الشرق بعد أن تضعضع مركز العرب فى الغرب ، فقد كان قدوم البرتغاليين إلى المحيط الهندى فادح الأثر على العرب والإسلام فى سواحل أفريقيا وجزيرة العرب والبحر الأحمر وشمال المحيط الهندى .

بل أنه هو الذى سهل القضاء على دولة المماليك فى مصر حين عجزت عن حماية مياه المحيط الهندى .

بدأ البرتغاليون يعدون الأساطيل للسفر إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، حيث وصل فاسكودى جاما إلى مالندى وفاليقوط فى الهند ، وعاد إلى البرتغال من نفس الطريق ثم عاد ١٥٠٢م واحتل زنجبار ، ثم سفاله ، وممباسا .

ولما احتل البرتغاليون هذه البلاد نهبوها ثم أحرقوها ، وتوالت الحملات إلى هذه المناطق وقاوم أهلها مقاومة شديدة ، وأوقعوا بالبرتغاليين الخسائر ، ولكنهم عجزوا آخر الأمر عن حمايتها .

ومن ممباسا إلى مقديشيو فجزيرة سومطرة ، وأقاموا فيها قاعدة لعملياتهم، الحربية البحرية فى خليج عدن والبحر الأحمر .

ثم هاجموا مسقط واحتلوا هرمز ودمروا أسطولاً إسلامياً كبيراً بقيادة أسطول المماليك، وساروا إلى عدن ، وقد عجزوا عن احتلالها ولكنهم استطاعوا فى عشر سنوات أن يحتلوا السواحل الأفريقية إلا مقديشيو وجزر القمر ومدغشقر .

وهكذا ضاع سلطان العرب والمسلمين على سواحل المحيط الهندى ومياهه الشرقية .

وفى هذا الوقت كان الاستعمار الأوربى كله قد ذهب لاقتسام الغنيمة فتواردت على المنطقة أساطيل الإنجليز والهولنديين والفرنسيين الذين احتلُّوا أخيراً محل البرتغاليين والأسبان .

ولقد قاوم العرب قوى البرتغاليين مقاومة شديدة ومستمرة .

وحل الإنجليز مكانهم فى الهند والهولنديون فى سيلان ثم تمكن العثمانيون من مقاومة البرتغاليين وتدمير قوتهم البحرية وسلطانهم السياسى ، وقد بلغت قوة أسطولهم فى السواحل وشمال المحيط الهندى فى مطلع القرن الثامن عشر مبلغاً أرهب الأوربيين جميعاً بما فيهم الإنجليز والهولنديون ، فكانوا يتجنبون المرور بالعثمانيين فى عرض البحر ، ثم تمكنوا من طرد البرتغاليين نهائياً .

* * *

ويمكن القول إنه بسقوط الأندلس فى أيدى الأسبان ١٤٩٢م بدأ عصر القرصنة الأوربية الخطيرة التى حاولت ضرب مراكب المسلمين فى البحر المتوسط فى ثغور تونس والجزائر وهو العصر الذى يسمونه عصر الكشوف الجغرافية كذباً وتضليلاً؛ فإن هذه المناطق التى ذهبت إليها حملات التبشير المدججة بالسلاح فى قلب أفريقيا كانت كلها معروفة للمسلمين ، وقد أورد عنها تفصيلات ضافية كثير من مؤرخى الإسلام ورحالتهم وفى مقدمتهم ابن بطوطة .

فمصطلح الكشف Explartion قد أطلق على الحملات الانتقامية التى شنتها أسبانيا والبرتغال على الشاطئ الإسلامى العربى حسب الوصية التى أوصى بها متعصبو الفرنجة من ملوك وقسس ، وذلك فى محاولة لإزالة الإسلام من حوض البحر الأبيض بدعوى الثأر من سيطرته على أملاك الدولة الرومانية التى لم تكن إلا دولة مستعمرة لشواطئ الشام ومصر وأفريقيا ، فقد كان أهل هذه المناطق كلهم عرباً وبربراً مستعبدين قد تسلطت عليهم الإمبراطورية الرومانية ووجدوا فى الإسلام مُخَلِّصاً لهم ومحرراً من عبودية الفرد وعبودية الدين .

وقد قاد هذه الحملات مجموعة من متعصبى الفرنجة أمثال ولفنجستون وصموئيل بيكر الذين جاسوا فى البلاد ودمروا وخربوا .

وكان ابن بطوطة قد وصل إلى أعالى نهر النيجر وإلى تمكنو ، وسكوتو، قبل أن يصل إليها الرواد الأوربيون وهو أول من أشار إليها ، ذلك قبل ثلاثة قرون من وصول البعثات التبشيرية .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وأن يفرضوها على كتب المدارس فى البلاد المستعمرة مدعين أنهم اكتشفوا الهند مع أن الهند كانت معروفة فى القارة الأوربية فى العصور القديمة وذلك قبل وصول ماركبولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤م) الذى وصل إلى فارس

وأفغانستان ، وبكين والتبت، أو فاسكودى جاما الذى أبحر حول أفريقيا عام ١٤٩٧ م ومنها إلى الهند .

يضاف إلى هذا الكذب الادعاء الذى ردده الاستعمار من أن صموئيل بيكر هو الذى اكتشف منابع النيل الأبيض مع أن هذه المنابع لم تكن مجهولة فى وقت ما .

والواقع أن ما وصف بأنه رحلات الكشف هذه لم يكن إلا خطة الاستعمار التى فرضتها الدول الأوربية ، وفى مقدمتها أسبانيا والبرتغال - بعد تحررها من النفوذ العربى الإسلامى فى الأندلس - فى محاولة لتطويق عالم الإسلام .

وقد أشار ولفنجستون فى إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال :

(إن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى ، فإن الإرساليات التبشيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحالة الذين كانوا فى الأصل دعاة ومبشرين) .

وليس هذا استنتاجاً وإنما هو نص من مصادر تاريخية مدعومة بالأسانيد حيث يقول رولاند أوليفر فى كتابه : (العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا) ما يلى بالنص :

(ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاغل التبشير الخاصة بأفريقيا الاستوائية وبالعمل بين شعوب فطرية فى بلاد لم يكن قد سكنها الأوربيون) .

(وفى عام ١٨٤١م كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولاً وقبل كل شىء مبشراً مسيحياً فلقد اختار - كعضو فى هذه الحركة التبشيرية - أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمر فيه إلى داخل البلاد . لقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طرقاً فى أفريقيا للمبشرين لا للمدنية .. كان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ، ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية) .أ.هـ.

أما فاسكودى جاما فقد لقى فى كتبنا المدرسية اهتماماً كبيراً وصور بصورة البطولة بينما تنكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعماله وغيره من طلائع الفتح والاستعمار وما قاموا به من ظلم وبطش .

وتصف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه كان من أشد خصوم الإسلام والمسلمين قسوة ؛ ففى رحلاته إلى آسيا ضرب بمدفعيته الثقيلة المراكب

العزلاء التى تنقـل الحجاج إلى مكـة فاحرقهـا بعـد أن نقـل أموال أهليهـا وأمتعتهـم إلى أسـطوله ، وبعد أن حظر على رجاله إنقاذ الغرقى ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلاً بعث بهم (دى جاما) إلى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية .

هذه حقيقة ما تصور به كتب التاريخ المكتشف العظيم بينما لم يكتشف شيئاً ، فهو لم يصل فى حياته إلى كالكوتا ولم يستقبله الحاكم الهندى ، لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قد بلغ رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودى جاما بعشر سنين ، فضلاً عن أن عبور المحيط الهندى من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من التجار العرب والهنود منذ قرون .

أما هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤ - ١٤٦٠م) فإن حقده على العرب والمسلمين واضح وصريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة سبتة التى انطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس ، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أعقابه وأسس مدرسة بحرية ضمت رجالاً حملوا لواء تجديد الحروب الصليبية ، وخوله البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء على جميع البلاد حتى الهند ، أما الرحالة البوكرك فقد كتب إلى مَلكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة جوا وجعلهم أكداساً فى المساجد ، ثم أحرقهم ، وأنه أشعل النار فى سفن المسلمين ، ومع ذلك فإن هذا السفاح يذكر فى كتب التاريخ العربية على أنه فاتح منتصر .

* * *

كان وراء عصر الكشوف الجغرافية محاولة تطويق عالم الإسلام بقيادة القوى الكاثوليكية فى أسبانيا والبرتغال ومن ورائها البابوية والروح الصليبية التى كانت تهدف إلى حصار الإسلام إن لم يمكن القضاء عليه .

ويمكن القول إن أسبانيا قد اختطت خطة مختلفة عن خطة البرتغال ولكن فى نفس الاتجاه إذ بدأت حرباً استمرت ثلاثمائة سنة على الجزائر (١٤٩٢ - ١٧٩٢م) .

يقول المؤرخ الجزائرى أحمد توفيق المدنى : لقد قضت هذه الدولة فى ميادين الكفاح والجهاد ثلاثة قرون ونيفاً مرفوعة الرأس خفاقة الأعلام سائرة ضمن دائرة الخلافة العثمانية نحو استكمال السيادة المطلقة وتحقيق السلام العام حتى ضربها الاستعمار الفرنسى حيناً من الدهر .

لقد برزت الدولة الجزائرية الأولى نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء كانت أرض

الجزائر بعد أرض الأندلس هدف هذه الحملة وميدان عملياتها الدامية ، فالأسبان الذين تولوا أكبر هذه الحملات كانوا يمثلون المسيحية رسمياً ، ويعملون باسمها ، ويحملون شعارها ، يؤيدهم فى ذلك باباوات أوربا .

أما الجزائريون ، فقد جاء لنصرتهم من جمع شملهم وتولى قيادتهم من الأتراك ، فقد كانوا يمثلون الإسلام ويجاهدون فى سبيله ، ويردون العادية عنه ويتقربون إلى الله بالاستشهاد تحت لوائه ، فاقترن الدفاع عن الوطن بالدفاع عن الدين حتى إذا ما اتخذوا مدينة الجزائر عاصمة لهذه الدولة أطلقوا عليها اسم (الجزائر دار الجهاد) وظل اسمها كذلك من ١٥١٦ إلى ١٨٣٠م .

لقد تدخل الأتراك فى هذه المعركة الحاسمة والملابسات التى أوجدتها ، ولا نزال نذكر الدور البطولى الذى قام به الأتراك خلال عصر الانحلال والتدهور والغزو المسيحى فى قيادة الشعب وشد أزره ضد العدو المهاجم .

ويتحدث الأستاذ أحمد توفيق المدنى فى شأن الاستعمار الغربى (أسبانيا والبرتغال) قبل أن يشتد ساعد الهلال الأوربى فى سماء أوربا ، وتقضى معاهدة ١٥٠٩م على أن يكون المغرب الأقصى للبرتغال، ولأسبانيا المغرب الأوسط (الجزائر) ثم انطلقتا تفتكان بالمسلمين فتكاً ذريعاً .

جاء ذلك بعد تحطيم مملكة غرناطة وقيام أسبانيا المسيحية الموحدة وإبعاد مليونين من المسلمين ١٤٩٢م .

ومن جميل صنع الله تبارك وتعالى أنه عندما كان نجم المسلمين يأفل فى بلاد المغرب الإسلامى الأوربى كان هناك نجم إسلامى ساطع يتألق نوره فى بلاد المشرق الإسلامى ، هو نجم الدولة التركية العثمانية التى نمت فى أوربا وفى بلاد الأناضول ، ثم تدفقت سيلاً عارماً على ما يليها من أقطار أوربا وأفريقيا وآسيا .

ثم جاء فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح .

وكانت فكرة الدولة العثمانية أن الإسلام كله فى حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها .. لا يستثنى من ذلك الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتى تدفع الجزية .

وقامت الدولة الجزائرية سنة ١٥١٦م .

وقد وجه السلاطين العثمانيون كل جهدهم لفتح أوربا ونشر لواء الإسلام فيها فدخلوا :

البلقان .. والمجر .. والبلاد الروسية حول البحر الأسود ووقفوا عند جدران مدينة فيينا وأسوار مدينة البندقية .

وفى مواجهة القرصنة الأوربية أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولاً يحارب من حارب سلطانهم ويسالم من سالمه ، وعظم شأن هذه القرصنة الإسلامية ، وقد بدأت القرصنة الإسلامية من وهران ، وظهر أبطالها عروج وخير الدين وأوقالش على وحوار عود وسنان وأضرابهم .

وجرى ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة أو الواردة .

وكان القراصنة البرتغال والأسبان يتعرضون فى كل البحار للسفن الإسلامية وخاصة على سواحل المغرب العربى وازدادت هذه القرصنة جرأة عندما تم القضاء على مسلمى الأندلس وأخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر فارة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها إلى سواحل الشمال الإفريقى فكانت سفن القراصنة الأسبان والبرتغاليين تستحوذ على السفن الإسلامية وتسبى من فيها من رجال ونساء وتأخذها مع ما فيها من متاع .

وقد اشتد عضد المسلمين فى المغرب الغربى بمن جاءهم من مهاجرى الأندلس العارفين بالملاحة وفنونها الماهرين فى صناعة السفن ، فأخذت المدن الساحلية فى المغرب تنشئ سفن القرصنة دفاعاً وتقابل العدو بالمثل ، وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا ، ومن وهران وشرشال والجزائر وبجاية وجيجل تخرج جريئة إلى سواحل أسبانيا تقابل فيها العدوان بمثله، فتضرب معاقل العدو وتأخذ ما استطاعت من خيرات وأرزاق وتسبى ما استطاعت من رجال ونساء .

وكان لمدينة وهران اثنتا عشرة سفينة قرصان بلغ من قوتها وجرأتها أن هاجمت سواحل العدو وأخذت منها الغنائم والأسلاب ، ثم سارت إلى مرسى مدينة مالقة الأسبانية فدخلته وأحرقت داخله كل السفن المعادية التى كانت به .

وازدادت القرصنة الإسلامية ضراوة فى الشمال الأفريقى بعد إنقاذ مسلمى أسبانيا واضطرارهم إلى الالتجاء لهذا الشمال .

* * *

ويعتبر الوجود العسكرى البرتغالى فى جنوب الجزيرة العربية والخليج العربى والذى امتد لأكثر من قرن من الزمان ١٥٠٠ - ١٦٣٠م امتداداً طبيعياً للحروب الصليبية تلك التى دعا إليها البابا إيريان الثانى عام ١٠٩٥م فحمل الصليب ونادى : (هذه هى إرادة الله) .

ومما سجله التاريخ أن البوكرك (أحد قادة هذه الغزوة البرتغالية) وضع خططاً للهجوم على المدينة المنورة ترمى إلى قيام السفن البرتغالية باحتلال ميناء (ينبع) فإذا تم ذلك تقوم قوة من الفرسان البرتغاليين المدرعين بالحديد مكونة من أربعمائة رجل بقيادة البوكرك نفسه بشن غارة ليلية صاعقة على المدينة المنورة يقتحم فيها مسجد الرسول ﷺ وتصل إلى القبر الشريف وتقوم بنبشه ونقل الرفات الطاهرة والهرب عائدين إلى ينبع ثم إلى السفن فإذا تم ذلك قام البوكرك بمقايضة الرفات الطاهر بكنيسة القيامة التى كانت تحت حماية مماليك مصر وإعادتها إلى الكنيسة المسيحية فى روما .

وقد فشلت هذه الخطة ودمرت تدميراً ورجع البوكرك مهزوماً .

* * *

ومما يذكر فى هذا المقال أن أسبانيا والبرتغال حرصتا بعد غياب شمس الأندلس الإسلامية على محو كل آثارها من مساجد ومدارس الأندلس .. كما حولت جامع قرطبة إلى كنيسة والذى ما زال قائماً بأعمدته وشرفاته وسائر أبنيته فى أجود حالة من الحفظ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته وهو الجناح الذى بناه عبد الرحمن الداخل الأموى قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائة عام .

أما المسلمون فإنهم لم يقوموا عند الفتح بهدم جميع الكنائس التى كانت قائمة بالمدن المفتوحة أو تحويلها إلى مساجد بل تركوها كما هى، وبنوا مساجد إلى جوارها كما فعلوا فى قرطبة وطليطلة .

كما أنهم تركوا فى الوقت نفسه فى سائر المدن الأندلسية كثيراً من الكنائس لكى يزاول فيها النصارى شعائرهم أحراراً كإخوانهم المسلمين .

ومن دعاوى متعصبة الغرب أن جامع قرطبة كان كنيسة ، مع أنه لا يوجد دليل واحد على أنه كان كنيسة ذات يوم ، ذلك أن الهندسة التى كانت تبنى عليها الكنائس تختلف وتتنافى والهندسة الإسلامية فى المساجد وجامع قرطبة مسجد فريد خلص فى بنائه وطبيعته وفى محاريبه وعدم ارتفاعه وأشياء أخرى لا تجدها إلا فى المسجد .

ولو دخل أى فرد الآن هذا المسجد القديم الذى حول إلى كنيسة لعرف منذ اللحظة الأولى أن طبيعة الكنيسة تختلف عن طبيعة المسجد وهذا واضح جداً فى هذا البناء .

وبالرغم مما فعله الأسبان بالمسجد لم يتمكنوا من تغيير محرابه العملاق العظيم لأن روعة جماله وزخرفته أخذت بألبابهم فلم يتمكنوا كما يقول الأستاذ حسن السائح من أن يهدموا

الحضارة المشعة ووقفت أيديهم مشلولة عند هذا الحد .

وكثير مما كتبه المؤرخون الغربيون كان صادراً عن أحقادهم على انتصار المسلمين فى هذه البلاد وانتشار الإسلام بها .

وكل الكنائس التى كانت فى أسبانيا هى كنائس قديمة احتفظت بهويتها ، وبنيت المساجد الإسلامية بجانبها ، ولكن العجيب أنه فى حركة الاسترداد أخذ النصارى المساجد وجعلوها كنائس ، كما فعلوا فى أشبيلية ومناطق أخرى .

* * *

حول الكشوف الجغرافية ، والتوسع البرتغالى ، والجهاد البحرى فى مواجهة القرصنة الأوربية :

١ - الكشوف الجغرافية :

لم تكن حركة الكشوف الجغرافية سوى وسيلة من وسائل مطاردة المسلمين ومحاولة حصارهم للقضاء على الإسلام نفسه .

قال المؤرخ البريطانى فاسكودو كارا فللو :

«إن الواجب يحتم على النصارى ألا يتركوا المسلمين الأندلسيين ينعمون بالمقام فى الشمال الأفريقى وعليهم أن يتعقبوهم حيث وصلوا » .

وهكذا فإن روح الخصومة والكراهية والحقد الكامنة فى نفوس النصارى ضد الإسلام هى التى دفعتهم إلى إطفاء جذوة الإسلام فى صدور المسلمين بتفريغهم من الغيرة على بلادهم ومن الجهاد ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن الحفاظ على ذاتيتهم الخاصة والعمل على انهيارهم وتراخيهم حتى يجرى احتواؤهم وصهرهم فى بوتقة الأممية وبذلك يفقدون وجودهم الحقيقى .

وقد تبين من الدراسات التاريخية المحايدة والمنصفة أن حركة الكشوف الجغرافية لم تكن سوى محاولة للسيطرة تحت اسم الكشف عن المواقع الجغرافية والادعاء بكشفها لأول مرة ، مع أنها كانت معروفة للعرب وموجودة فى كتب الرحالة المسلمين .

وقد لوحظ أن تزييفاً كبيراً فى تاريخ العالم الإسلامى قد وقع فى فترة القرن العاشر الهجرى (١٦م) وذلك عندما خططت البابوية للالتفاف حول العالم الإسلامى من الشرق ومحاصرته من أطرافه الشرقية ، ونجحت فى هذا وساهمت البرتغال وأسبانيا فى هذا المخطط .

وأن الزحف الأوربى جاء للعمل على زلزلة العالم الإسلامى فى الميادين السياسية والاقتصادية والعقائدية ، وبدأت هذه الدول كذلك تحكم سيطرتها على مقدرات بعض الدول الإسلامية .

وإنه على مدى سنوات متعددة تغلغلت الامتيازات الأوربية فى البلاد الإسلامية لتشجيع الغزو الفكرى الغربى الذى كان كل همه ولا يزال تمزيق وحدة الفكر الإسلامى ، لتظهر

الاحتكارات الغربية فى دول إسلامية متعددة ، ومن هنا كانت أهمية الدعوات التى كانت تدعو إلى وحدة المسلمين .

والمعروف أن الاستعمار واجه الدول الإسلامية وعاملها دائماً باستراتيجية موحدة استطاعت أن تكتنف بأوضاع جائرة خاصة بعد الحرب العالمية دون مراعاة خطورة تمزيق العناصر البشرية الموحدة .

بل قصد إلى تمزيق العملاق الإسلامى الكبير الرابض فى وسط العالم القديم من حدود الصين واليابان إلى المحيط الأطلسى .

الحقيقة أن الكشوف الجغرافية لم تكن إلا عنواناً كاذباً للزحف الصليبى الذى كان يطمع فى البحث عن موانى على الأنهار ومواقع على الشواطئ ، ليستطيع من خلالها نقل جيوشه كمقدمة للغزو .

* * *

إضافـــة

١ - من التوسع البرتغالى إلى السيطرة الهولندية :

كان التوسع البرتغالى بعد سقوط الأندلس فى قبضة الغرب مرة أخرى بعد ثمانمائة سنة من إسلامها منطلقاً للثأر الخطير الذى رتبته الكنيسة والقوى المسيحية والاستعمارية الغربية لغزو شواطئ إفريقيا الإسلامية والوصول إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه النفوذ الغربى لأمرين :

١ - لتطويق العالم الإسلامى وحضارته توطئة للقضاء عليه .

٢ - للسيطرة على موارده وتجارته وثرواته .

يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى : كان الضغط البرتغالى تجارياً فى أساسه إلى حد كبير وقد امتزج به هدف دينى ، خاصة أن بابا روما كان يود توجيهه لتطويق العالم الإسلامى وتوطيد أقدام المسيحية فى الشرق الأوسط والهند (انظر مقاومة التوسع البرتغالى فى نهاية الباب القادم) .

ولقد كانت الحملات الصليبية تمثل رد فعل أوربا النصرانية ضد آسيا المسلمة ، وهى حملات هجومية بدأت على أثر بعثة محمد ﷺ فى القرن السابع الميلادى وبقيت كذلك لأكثر من ألف عام .

وقد ظهر السلوك الصليبى على حقيقته فى عهد ما يسمى الاستكشافات الجغرافية ، وكان هو الدافع الذى قاد إلى تلك الاستكشافات فى عهد الاستعمار الغربى التجارى المبكر، ، كما كان واضحاً فى الطريقة التى حكم بها الأسبان والبرتغاليون والأوروبيون والأمريكيون .

وقد بدأ الاستعمار الأوربى فى مجموعة الهند وجنوب شرق أوربا .

وكان الإسلام قد وصل إلى جزر الفلبين وتغلغل فى مانيلا شمالاً حتى جاء فاسكودى جاما ، ودار حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى الهند ١٤٩٨م ، وعندما وصل البرتغاليون إلى مانيلا والأنديز شنوا حرباً فى نشر النصرانية بالقوة بين سكان جزيرة الأنديز .

وكانت البرتغال قد استقلت عن الحكم الإسلامى فى القرن الخامس عشر الميلادى

١٤٦٠م وفى الوقت نفسه أنشأ هنرى الملاح مدرسة الملاحة لتتابع الحملات الصليبية فى محاولة الالتفاف حول دار الإسلام استراتيجياً وتجارياً وإقامة الاتصالات بين النصارى الأثيوبيين (الحبشة) والإغارة معاً على المسلمين فى الجنوب .

وعندما وصل فاسكودى جاما إلى الهند وإلى الأنديز ١٤٩٨م كان ذلك بداية الركود التجارى والاقتصادى الإسلامى فى حوض البحرالمتوسط لأكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة .

ووصل البرتغاليون إلى مداخل الخليج العربى ١٥٠٦م والبحر الأحمر ومضيق بين سومطرة ومالايو .

واستمرت الحملات الصليبية ضد مسلمى جزيرة الفلبين حتى وصل الأسبان إليها ١٥٢٠م بقيادة ماجلان وأصبحت مانيلا ١٥٧٠م مركز الحملات الصليبية ضد مختلف سلاطين الجزر المسلمين .

وفى القرن السابع عشر ورث الهولنديون جزر الإنديز من البرتغاليين ١٦٤١م وكان الهولنديون قد طردوا البرتغال والأسبان والإنجليز واحتلوا مدينة مالاكا .

وعندما برزت القوة العثمانية فى شرق البحر المتوسط بعد القرن الخامس عشر كان ذلك له أثره فى احتفاظ الأوربيين بطريقة التفكير الصليبى حتى اليوم ، حيث بدأت المنافسة بين بريطانيا والنمسا على أرض الدولة العثمانية .

* * *

٢ – ويركز المؤرخون على أن التوسع البرتغالى كان بعيد الأثر فى تراجع التجارة الإسلامية يقول : دكتور أحمد أبوحاكمة :

لقد حلت بالتجارة فى الهند والصين والملايو بين التجار العرب نكسة أصابت التجارة العربية ، عندما عرف الأوربيون طريق الهند بعد أن قاد الملاح العربى (أحمد بن ماجد) سفن البرتغاليين من مالندى على ساحل أفريقيا الشرقية إلى الهند (أبريل ١٤٩٨م) .

ذلك أن قدوم البرتغاليين إلى الهند يعتبر نقطة التحول فى تجارة الهند والصين والملايو بالنسبة للعرب .. ذلك أن البرتغاليين بأساطيلهم البحرية التجارية والحربية وبما عرف عنهم من شراسة استعمارية وجشع كانوا ينتهجون سياسة قائمة على البطش والفتك بسفن غيرهم من التجار، ولا سيما سفن العرب المسلمين ، ولم يكتفوا بمطاردتهم من البحر بل نزلوا موانيهم واحتكروها ودمروها وأنشأوا فيها القلاع منذ مطلع

القرن السادس عشر الميلادى ، ولا يكاد أى ميناء بحرى عربى يطل على الخليج العربى أن يخلو حتى يومنا هذا من بقايا القلاع البرتغالية ومدافعهم النحاسية التى نصبوها فى تلك القلاع .

فى (مسقط بعمان – المنامة بالبحرين – القطيف فى الأحساء – البصرة بالعراق) .

وقد امتدت مدة بقاء البرتغاليين فى تلك الموانى ، ولم يكسر شوكتهم غير أسطول مسقط العربى . . ذلك أن العمانيين وكانوا سادة البحار عند قدوم البرتغاليين قد تعلموا صناعة السفن على الطريق الأوربية التى تثبت فيها ألواح الخشب بمسامير حديدية قوية بعد أن كانوا – حتى قدوم البرتغاليين – يخيطون أخشابها .

وكانت السفن العربية والحالة هذه لا تستطيع الصمود أمام أية قنبلة قد تصيبها من مدافع الأعداء .

ثم كذلك بعد أن تسلحوا بمدافع من طراز مدافع البرتغال النحاسية وهى مدافع غنموها فى القتال ثم صنعوها بأنفسهم .

وقد شهدت بداية القرن السابع عشر هزائم متعددة للبرتغال حتى اضطروا أخيراً إلى الجلاء عن الخليج العربى نهائياً .

غير أن اندحار البرتغاليين لم يعن بحال من الأحوال زوال الخطر الأوربى على تجارة الخليج، وبالتالى سيطرة العرب عليها من جديد .

ذلك أن الهولنديين كانوا قد أسهموا بدور فعال فى القضاء على نفوذ البرتغاليين فى مياه الخليج، وبالفعل ازداد نفوذ الهولنديين التجارى فى الخليج طوال القرن السابع عشر الميلادى . ولم يزعزعهم عن مكانتهم سوى قوة أوربية أخرى تتمثل فى شركة الهند الشرقية الإنجليزية . . كما ظهر الفرنسيون فى مياه المحيط الهندى والخليج العربى فى هذه الفترة غير أن علاقاتهم بالخليج وتجارته لم تكن كعلاقات الهولنديين والإنجليز . . وبقيت الوكالات التجارية الهولندية والإنجليزية تعمل مع موانى الخليج العربى جنباً إلى جنب إلى عام ١٧٦٥م، حين طرد الهولنديون من جزيرة خارج الجزر الواقعة فى طرف الخليج العربى الشمالى الشرقى .

والسر فى تدهور سلطان الأوربيين التجارى على الخليج فى القرن ١٨م مردُّه أمران : أولهما إفلاس الهولنديين فى المنطقة فى مطلع ذلك القرن وخروجهم نهائيًا كتجار من الخليج عام ١٧٦٥ م والثانى انهماك الإنجليز فى حرب استعمارية مع الفرنسيين .

وقد امتد النفوذ البريطانى فى الخليج فى القرن التاسع عشرمع ما انطوى عليه من احتكار كلى شامل لتجارة الخليج طوال القرن وما أعقبه من احتلال مباشر أو غير مباشر لبعض أرجائه خلال ذلك القرن ومطلع القرن العشرين .

٣ - مخطوط التاجر سليمان :

طبع فى باريس ١٨٤٥م مخطوط فريد تحت عنوان (مخطوط التاجر سليمان) يضم أخباراً قديمة من الهند والصين أوردها اثنان من الرحالة العرب سافرا إلى هناك فى القرن التاسع الميلادى تحدثا عن أثر العرب فى اكتشاف المحيط الهندى والتعرف على الشعوب التى تعيش حول شواطئه .

وربما كانت هذه المذكرات هى الأثر العربى الوحيد الذى تحدث عن سواحل البحر الشرقى الكبير والطريق الملاحى فى الخليج الفارسى العربى إلى الصين على أساس الخبرة الشرقية .

وقد أورد التاجر سليمان أخبار بلاد الهند وسرنديب والملايو وإندونيسيا والصين وفصَّل عادات أهلها وملوكهم وطباعهم ومعاملاتهم .

وبعد ذلك تحدث ابن جزدازابه والإصطخرى والمسعودى على أساس المعرفة الشخصية لبعض المواقع التى يذكرونها .

وفى منتصف القرن ١٤ أملى أبو عبد الله بن محمد المغربى الطنجى المعروف بابن بطوطة نص رحلته التى قام بها من المغرب الأقصى حتى أقاصى الصين .

* * *

الباب السادس

من فتح القسطنطينية إلى سقوط الخلافة

الأحداث الكبرى

ولادة الدولة العثمانية ٦٨٧هـ - ١٢٨٨م

دخول محمد الخامس القسطنطينيه ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م

الهجرة إلى سواحل المغرب ١٠١٨م - ١٦٠٩م

دخول الاتراك أوربا ١٣٦٠م

العثمانيون يحاصرون فيينا ١٥٢٩م

عزل السلطان عبد الحميد ١٩٠٨م

الدولة العثمانية فياوح اتساعها ١٥٢٠م



من فتح القسطنطينية
إلى سقوط الخلافة

(١)

ولدت الدولة العثمانية عام ٦٨٧ هـ – ١٢٨٨م .. وهو تاريخ حاسم الدلالة فقد جاء بعد نصر عين جالوت (٦٥٨ هـ – ١٢٦٠م) . وفى خلال معارك تصفية الوجود الصليبى والتترى فى البلاد العربية حيث تحرر آخر جيب من جيوب الصليبيين ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م وكان بمثابة نصر جديد للإسلام .

دام حكمها ستة قرون وربع القرن،وامتدت رقعة حكمها من فيينا عاصمة النمسا ، وأوربا الشرقية والشرق العربى إلى حدود المغرب وظهر ملوك يفخر بهم الإسلام أمثال محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية وبايزيد الذى غزا هنغاريا والنمسا حتى وصلت جيوشه إلى فيينا (عاصمة النمسا) فدخلت تحت حكمه هنغاريا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وجزيرة كريت وألبانيا من البلدان الأوربية .

وكان دخول العرب فى الدولة العثمانية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ١٥١٧م ضرورة تاريخية حتمت انتقال السلطة فى الوطن الإسلامى وخاصة فى آسيا الغربية وشمال أفريقيا إلى أكبر قوة عسكرية من أبناء الإسلام لصد خطر الإفناء الصليبى الذى صاحب نهضة الإفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح وبداية ما يسمى عصر الكشف وهو عصر النهب الاستعمارى .

وقد دخل أمراء لبنان وشريف مكة تحت الحكم العثمانى باختيارهم ، أما دخول الجزائر تحت هذا الحكم فقد تم دون حرب بل بمحض إرادة حاكمها خير الدين المعروف ببارا باروما .

ولا ريب فى تقدير أكثر المؤرخين العالميين إنصافاً واعتدالاً أن انضمام العرب إلى الدولة العثمانية (دولة الخلافة الإسلامية) قد أخر سقوط البلاد العربية فى قبضة الاستعمار أربعة قرون ، فقد دفعت عن الإسلام والمسلمين ضربات دول أوربا مجتمعة من بريطانيا إلى روسيا ومن النمسا إلى البرتغال ، هذه الدول التى استخدمت كل أساليب التآمر والفتن وشراء الذمم والغزو المسلح الصريح ، ولم يكن هذا الانضمام استعماراً كما يدعى بعض تلاميذ

الاستشراق .

(وكان المرابطون والموحدون والمرنيون قد أخروا سقوط الأندلس فى قبضة النفوذ الأوربى طيلة أربعة قرون) .

ويقول جلال كشك : استطاع الترك أن يبعدوا الخطر عن العالم الإسلامى وأخروا احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون ، ولهم بذلك فى ذمة الإسلام والمسلمين دَيْن لايُنْقَضُ ولا يُشَوَّه .

وقد قامت الدولة العثمانية فى غمرة أحداث تاريخية رهيبة لم يشهد المسلمون لها مثيلاً، بعد أن زرع المغول والصليبيون الموت والدمار فى ربوع العالم الإسلامى .

وقد واجهت الدولة العثمانية وصول البرتغاليين الصليبيين إلى شرقى الجزيرة العربية ومحاولتهم مرتين ١٥١٧ - ١٥٢٠م دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبى للاستيلاء على جدة والزحف إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة ، ويعتبر هذا الغزو أخطر غزو أوربى صليبى فى التاريخ الحديث لأقاليم عربية وإسلامية تحت شعار الصليب أو المدفع .

لقد نشأت الدولة العثمانية إسلامية المنطلق والراية والهدف ، وأوصى مؤسسها عثمان بن أرطغرل ابنه أورخان بأن ينشر الإسلام هداية للناس ، وحمايةأعراض المسلمين وأموالهم فى عنقه أمانة يسأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة .

وقد تمكنت الدولة العثمانية فى أقل من قرنين من الزمان أن تمد جناحيها شرقاً وغرباً لتصل إلى أبواب فيينا رافعة راية الإسلام على ما يعرف الآن بدول أوربا الشرقية واليونانية وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا . . كذلك امتدت إلى شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوباً وحدود المغرب الأقصى ، كما أنها وصلت إلى بلاد فارس وجبال كردستان .

وفى الدولة العثمانية كانت الشريعة الإسلامية هى شريعة البلاد الأولى ، والقانون المدنى الذى طبق بها تحت اسم المجلة عام ١٨٦٩م كان عبارة عن تقنين لأحكام تلك الشريعة أخذاً بمذهب الإمام أبى حنيفة ، وكان تطبيق الأحكام على جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين .

* * *

(٢)

يقول الدكتور محمد حرب عبد الحميد : إن طبيعة الدولة العثمانية عسكرية جهادية كما يعرفها المؤرخون ، فقد بدأت إمارة ثغر ثم تحولت إلى سلطنة ثم إلى خلافة وسلطنة ، وقد بدأ التاريخ العثمانى فى الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى وكانت تسود العالم وقتئذ رهبة وذعر من الإمبراطورية المغولية التى أقامها جنكيز خان ، وكان هذا قد استولى على شمال الصين ثم بدأ زحفه نحو تركستان ، والمغول على دين الشامانية ، وكان سكان تركستان أتراكاً مسلمين فى ذلك الوقت .

وكان السلطان علاء الدين السلجوقى حاكم قونية قد أقطع الأمير فخر الدين عثمان قطعة من الأرض على حدوده مع بيزنطة بعد مساعدة له فى إحدى حروبه ، وكانت إمارة الثغر هذه عسكرية جهادية ، واستطاع الأمير عثمان أن يوسع ثغره على حساب القوى البيزنطية ، ثم توالى التوسع حتى وصل العثمانيون إلى بلجراد .

ثم جاء محمد الفاتح فسيطر على القسطنطينية .

وكان ظهور العثمانيين قد ملأ فراغاً فى التاريخ والجغرافيا الإسلامية إذ إنه قد تزامن مع ظهور وانتصار القوى الصليبية فى غرب العالم الإسلامى حيث سقطت الأندلس وكادت تتبعها بقية دول المغرب العربى ، ولكن فى الوقت الذى سقطت فيه حواضر المسلمين فى الأندلس فتحت القسطنطينية ، وفى الوقت الذى اندفع فيه صليبيو أسبانيا نحو العالم الإسلامى من الغرب اندفع فيه الفاتحون العثمانيون نحو أوربا من الشرق وهكذا اندفعت دماء جديدة فى الشرايين الإسلامية ، وبفضلها بقى الشمال الإفريقى عربياً مسلماً حتى الآن .

* * *

(٣)

يقول الدكتور عبد الكريم مشهدانى : بعد قيام الدولة العثمانية تابع الأتراك جهادهم ضد الروم وما لبث الأناضول أن أصبح إسلاميًّا خالصاً ، فقد نقل الأتراك ساحة الجهاد إلى البر الأوربى محققين للإسلام أمجاداً عظمى فى ميدان الحرب والبطولة والحضارة .

وأصبحت الدولة العثمانية حامية حمى الإسلام والمدافع عن شرفه ومقدساته فى البر

والبحر ، ومنذ ذلك الوقت وليس لأوربا النصرانية هم أوهاجس إلا دولة الخلافة العثمانية .

وكانت كبرى الانتصارات الإسلامية فتح القسطنطينية فما أن تولى محمد الفاتح العرش ١٤٥١م فى أدرنه (عاصمة الدولة العثمانية) حتى طالبه الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية بمضاعفة مبلغ الجزية السنوية الذى كان يدفعه والده مراد الثانى للبيزنطيين .

وكان رده على هذه المطالبة هو المبادرة بتشييد قلعة (روم أبلى حصار) المنيعة على بعد سبعة كيلو مترات من أبواب القسطنطينية عند أضيق نقطة من البسفور ، وعندما بعث الإمبراطور بسفرائه إليه للاحتجاج على هذا العمل ، كان رد الأمير العثمانى أن قطع رؤوسهم .

وكان ذلك إيذاناً بقيام الحرب .

ولم تستطع حصون العاصمة البيزنطية أن تثبت أمام هجمات جيش السلطان محمد حتى دخل القسطنطينية عام ١٤٥٣م وهو فى سن الرابعة والعشرين وقد توجه فور دخوله إلى كنيسة آيا صوفيا المشهورة فاستولى عليها رسمياً باسم الإسلام وجعلها جامع العاصمة الرئيسى .

أما القبلة فقد أدخلت فى قلب تصميم هذا البناء الكنسى بواسطة محراب اصطنع فى وسط جناح الكنيسة الجنوبى وأقيم المنبر عن يمين المحراب كما بنيت إلى الخارج مئذنة أضاف إليها -خلفاؤه ثلاث مآذن أخرى ، وسرعان ما أصبحت إستانبول المركز الفكرى الأول للعالم الإسلامى .

وكان أهم أهدافه تقرير سيطرة العثمانيين على شبه جزيرة البلقان (خاصة فى الشمال) تمهيداً للانطلاق منها لحرب المجر أخطر أعدائه فى أوربا وأقربهم إلى حدود دولته ، فكان لابد له من أجل ذلك أن يستولى على بلاد الصرب حتى يضمن لجيشه قاعدة ثابتة فيها وقد تم له ما أراد حين استولى عام ١٤٥٨م على بلغراد ثم على ألبانيا عام ١٤٦٨م وأرغم البندقية على عقد معاهدة معه عام ١٤٧٩م .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يستولى محمد الفاتح على القسطنطينية - ١٤٥٣م قبل أن يستولى فرديناند وإيزابلا على مملكة غرناطة آخر ممالك المسلمين فى الأندلس ١٤٩٢م .

وقد أوصد فتح القسطنطينية المنفذ الرئيسى من أوربا إلى الشرق فى وجه الأوربيين وأوصد فتح مملكة غرناطة باب أوربا من الجنوب إلى الشمال فى وجه المسلمين .

وقد اصطلح المؤرخون المحدثون على اتخاذ فتح القسطنطينية من طرف العثمانيين (٨٥٧ هـ - ١٤٥٣م) بداية العصر الحديث .

* * *

(٤)

ومنذ أن بزغ فجر الإسلام ومد رواقه على المنطقة العربية فزحف إلى العراق والشام ومصر وأفريقية وأنهى ألف سنة من نفوذ الإمبراطورية الرومانية وظلماتها وقساوتها بدأت المعركة ، فكانت منطقة طرسوس بؤرة الصراع بين بيزنطة والإسلام وامتدت المعركة سنوات طوالاً ، وشهدت مواقف بطولة سجلها المتنبى وأبو فراس ثم توالت غزوات المسلمين للسيطرة على القسطنطينية سنوات طوالاً حتى تحقق ذلك بعد مائة وسبعين عاماً من قيام الدولة العثمانية بقيادة السلطان محمد الفاتح الذى اقتحم القسطنطينية فدخلت فى الإسلام وهزت الغرب هزًّا شديداً .

وقد مضى السلطان محمد الفاتح على سُنَّة الإسلام فى معاملة أهل الذمة والمحافظة على شعائرهم وشرائعهم .

ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلاً حليماً وكان مسلماً صادقاً تركه للنصارى المقهورين الحرية فى انتخاب بَطْرِيقهم ، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم .

وقد أشار فولتير الفيلسوف الفرنسى إلى هذا المعنى حين قال : إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن .

ولقد كان فتح القسطنطينية من أعف الفتوح وأقلها غرماً وأبعدها عن الفتك والفساد شأن كل فتوح المسلمين ، فقد كانوا فى انتصارهم أشرف الناس وأميلهم إلى الرحمة .

فسقوط الخلافة فى بغداد على أيدى التتار تم وسط مذابح هائلة ، أما سقوط القسطنطينية فلم يتجاوز القتل فيه حدود ميدان القتال وحده .

وكانت الحملات الصليبية تهدف إلى إبادة المسلمين جملة وتفصيلاً فماذا فعل محمد الفاتح عندما استولى على عاصمة الروم ؟ .

يقول الشيخ محمد زيادة المؤرخ الأزهرى الدقيق :

إنه مضى على سنة الإسلام فى معاملة أهل الذمة والمحافظة على شعائرهم وما كانت أمة من الأمم المسيحية لتسمح أن يكون للمسلمين مسجد فى بلادها .. أما الأتراك فإنهم سمحوا لليونان المقهورين أن تكون لهم كنائسهم .

يقول الشيخ محمد الغزالى : إن مقارنة إسقاط القسطنطينية بإسقاط بغداد يكشف عن مدى الخلق الإسلامى الكريم الذى رفض حرب الإبادة الشاملة وآثر العفو والسماحة .

وخلال مرتين قابل المسلمون عدوان أهل الكتاب بالسماحة ، فى معركة حطين وفى معركة فتح القسطنطينية .

وقد رفض عمر أن يصلى فى الكنيسة فماذا لقى أحفاد عمر من النصارى الصليبيين بعد بضعة قرون ؟ .. لقد جرت دماؤهم أنهاراً .

لقد أزال محمد الفاتح إمبراطورية الروم الشرقية التى دامت أحد عشر قرناً من الزمان منها ثمانية قرون كانت خلالها وطوالها بمثابة العدو الرئيسى للمسلمين ، وأصبحت الآستانة بمآذنها موئلاً للحضارة الإسلامية خير شاهد صدق على حديث رسول الله ﷺ : **«لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»** .

لقد كان سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك حدثاً تاريخيًّا خطيراً هز أوربا هزاً عنيفاً ثم جاء أتاتورك الماسونى الذى أغلق مسجد آيا صوفيا الجامع الكبير فى الآستانة وحوله إلى متحف .

ولقد كانت وصية السلطان محمد الفاتح إلى ابنه ترسم منهجه : هانذا أموت ولكنى غير آسف لأنى تارك خلفاً مثلك .. كن عادلاً ورحيماً بالناس ولا تستخدم من لا يهتمون بالدين . وسع رقعة البلاد بالجهاد واضمن للمعوزين قوتهم ، ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك فإن الدين غايتنا والشريعة منهجنا .

حضرت إلى هذا البلد كنملة صغيرة فأعطانى الله هذا .. اعمل على تقرير الدين المحمدى وانشر الدعوة المحمدية، فإن هذا هو أوجب واجبات الملوك اليوم .

* * *

(٥)

عوامل الضعف والتراجع :

بلغت الدولة العثمانية ذروة قوتها ووصلت إلى قلب أوربا وحملت معها الإسلام إلى

أسوار فيينا واستطاعت أن تحمل لواء الأمانة الإسلامية أربعة قرون كاملة .. كان الموقف بالنسبة للغرب والنصرانية بالغ الاضطراب، فقد كانت تلك القوى تتجمع وتخطط وتتآمر في سبيل صد هذا النفوذ الإسلامى بعد أن وحدت الدولة العثمانية - دولة الخلافة - قوى المسلمين وجمعت كلمتهم تحت راية الإسلام .

وذلك بعد أن أقلق العثمانيون مضاجع حكام الغرب بسبب ما حققوه من انتصارات سجلها المؤرخون الصادقون .

كل هذا كان عاملاً هاماً فى تنفيذ مخططات ترمى إلى إضعاف الدولة العثمانية وتفكيكها ، ولما زادت عوامل الضغط على الدولة العثمانية حاولت كسب الدول الأجنبية .

العامل الأول :

ويرد كثير من الباحثين أهم تلك العوامل إلى منح الدولة العثمانية امتيازات للدول الأجنبية تحت اسم التسامح الإسلامى والإيمان بالمساواة مما مكن القوميات البلقانية من النمو والتطور إلى حد امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسية وجيوش وأموال القيصر، بينما استطاع الاستعمار الروسى أن يقصم ظهر الولايات الإسلامية ويمتص فيها كل حيوية وهى أعرق ثقافة وأكثر تحضراً من شعوب البلقان .

ويتحدث باول شميت فى كتابه (الإسلام قوة الغد العالمية) كيف كانت سماحة الأتراك الدينية فى أمور الأقليات سبباً فى ضربها من الداخل ، ويرى أن فيها كل نقض لقوانين الإسلام، فكان السماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعبادته ، وإعلان حرية الأديان، وإعطاء كل طائفة الحق فى إنشاء مدارس خاصة بها . وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى الذى نبع فى الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر الممالك التى فتحتها أوربا إلى الشرق ، لقد بدأت حقبة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذى سيقرر مصير العالم الإسلامى بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة فى تاريخ الاسلام يسوى بين المسيحى والمسلم فى قانون مدنى فى دولة اسلامية .. لقد قصد الباب العالى بهذه التسوية ١٨٥٦م إلى أن يلعب دوراً فى الأرجوحة السياسية فى عالم الصراع بين القوى الكبرى غير أنها كلفته كثيرا . فقد انتقصت من سلطاته المطلقة فأضعفت هيبته داخل المملكة وفى أوساط المواطنين المسلمين ودفعتهم إلى التحرك ، وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا ففى أواخر العقد الخامس فوجئ الشعب بإصلاحات فى القضاء وفى أجهزة الدولة المالية ، ولم يتوقف عند هذا الحد بل

واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم .

إن العقل الأوربى الذى استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ البرامج الإصلاحية كى تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها، لا يستطيع أحد التخلص منه أبداً . فقد أعطى الامتيازات ونال من الفرص ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض، فقد ضمنت الحكومة لكل الطوائف حرية ممارسة شعائرها ومزاولة طقوسها وحرية النشر وحرية التعليم . ولم تلق هذه الإصلاحات أى صدى لدى المواطنين ، بل فتحت أبواباً أخرى أمام قوى البلاد الأجنبية نفذت من خلالها إلى البرلمان (١١٦ منهم ٤٠ مسيحياً) ، وقد تعثر سير النموذج الأوربى لعدم فهمه فلم يستمر سوى سنتين فقط حيث كانت الإصلاحات مدفوعة بمحاكاة النظم الأوربية .

وهكذا يثبت خطأ التجربة التى أرادها السلطان محمود بنقل الحضارة الغربية إلى تركيا حيث جرت محاولات لكسب صداقة كل القوى عن طريق منح كل الامتيازات الممكنة للدول الأجنبية ، ولعب حرص كل دولة فى الحصول على امتيازات مثل الأخرى دوراً له وزنه فى الحفاظ على الوضع القائم للدولة العثمانية .

العامل الثانى :

استطاع اليهود والأرمن الوصول إلى بعض المناصب عن طريق الامتيازات الأجنبية مما مكنهم من إقامة المنظمات السرية وهدفها الأساسى تخريب الدول الإسلامية على أيدى الأتراك أنفسهم .

وكانت (الدونمة) وهى مجموعة اليهود المقيمين فى سالونيك هم الذين أقاموا المحافل الماسونية واستدرجوا إليها – تحت اسم الإصلاح – بعض الشباب التركى الذين شكلوا خلايا جمعية الاتحاد والترقى وقد حملوا لواء الدعوة إلى الطورانية القديمة فى مواجهة الجامعة الإسلامية .

وقد عمدت أوربا المسيحية إلى تغذية هذه الدعوة فانقسم المسلمون تحت لواء الدولة العثمانية واندفع الأتراك فى عملية فرض لغتهم وقوميتهم على العرب (تتريك العرب) مما دفع العرب إلى رفع راية القومية العربية .

* * *

(٦)

شنت روسيا القيصرية حملات ضخمة على الدولة العثمانية وكان ذلك بناء على وصية بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ – ١٧٤٥م) التى جاء فيها :

من واجبنا أن نتوسع باستمرار على طول بحر بلطيق وشواطئ البحر الأسود إذ علينا أن ننتهز كل الفرص التى تمكننا من الزحف صوب القسطنطينية (إستانبول) والهند، فمن

يستطع الاستيلاء على تلك النقاط يمكنه أن يتحكم بالفعل فى مصير العالم .

وقد استمرت الحرب الروسية التركية طوال قرنين كاملين ، وكانت عاملاً هاماً فى تقسيم تركيا التى أحصى منها المؤرخ جوفارا مائة مشروع تقدم به ساسة وتجار ورجال دين بعد هزيمة تركيا أمام أسوار فيينا للمرة الثانية .

وقد استغل المبشرون المسيحيون فرصة الامتيازات الأجنبية التى عقدتها تركيا مع الدول الكبرى فأرسلوا أعداداً ضخمة إلى عواصم الدولة العثمانية وأنشأوا الإرساليات فى بيروت والقاهرة والقسطنطينية .

* * *

(٧)

وقد حمل لواء الدعوة إلى الطورانية جماعة من مثقفى الأتراك الذين تربوا فى أحضان المحافل الماسونية فى سالونيك واعتنقوا أفكار الثورة الفرنسية وفى مقدمتهم ضياء كوك ألب وأحمد أغايف ويوسف أقشورا وغيرهم ، فأخذوا يروجون لهذه الفكرة وكونوا رأيا عاماً لها تبنته حركة الاتحاد والترقى التى ظلت تنمو فى الخفاء حتى سيطرت بعد ذلك على الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد .

وكان ذلك مدعاة لظهور التمزق بين عنصرى الدولة العثمانية وهم العرب والترك، ووقوع الأزمة بينهما حيث كانت الدعوة إلى الطوارنية هى العامل الأكبر فى تدمير الوحدة الإسلامية .

* * *

(٨)

لقد أثار نجاح العثمانيين وتوسعهم حفيظة أوربا المسيحية ، وعلى رأسها البابا الذى دبر حملات صليبية مدمرة ضد الخلافة العثمانية بغية تقويضها ورد المسلمين عن عقائدهم خاصة مسلمى أوربا فى بلغاريا والمجر واليونان وألبانيا وقد أثرت هذه الحروب فى قوة العثمانيين إلى جوار العوامل الخفية المدمرة خاصة بعد ضعفهم عسكرياً . وتسابق الأوربيون إلى القوة العسكرية مما أدى إلى هزيمتهم فى لبانتو ١٥٧١م وقد استغل الروس حالة الضعف التى ألمت بالدولة العثمانية فكالوا لها الضربات طوال القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

وقد استغلت أوربا المسيحية كل ما يتصور من وسائل لتحجيم الدولة العثمانية والإدالة منها انطلاقاً من طبيعة راسخة على حد تعبير جمال الدين الأفغانى حين قال :

(إن الـروح الصليبية لـم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الـرماد، وروح التعصب لم تـنفك حية معتلجـة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسـك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصـب مستـقراً فى عناصرها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت .

ولقـد تعـاهـدت بريطانيا وفرنسا وروسيا على ضرب الدولة العثمانية فشكلت هذه الدول قوة صليبية دولية جددت بها الحملات الصليبية التى كان قد مر عليها أكثر من أربعمائة عام لم تنس فيها أوربا يوماً واحداً خصومتها مع الإسلام .

لقـد حاولت الدولة العـثمـانيـة الوصول إلى فيـينا ١٥٢٩م ، ١٦٨٣م، ولكن لـم يكلل مسعاها بالنجاح فكانت علامة التراجع .

ويكفى فى تقـدير هذه المؤامرة ما كتبه شاهد من أهلها ، هو الوزير دوجافار فى كتابه مائة مشروع لتقسيم تركيا حيث قال :

إن أصل العـداوة المزمنة التى يشـعر بها الأوربيـون للأتراك ويمـيلون أبداً من أجلهـا إلى حصرهم فى آسيا هى راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام .

إن المسلمين كانوا أرعبوا أوربا وخضعت لهم أسبانيا مع عظمتـها، وفى أواخر القرن الثانى عشر امتد سلطان العرب من الهند إلى الأطلنطى وصارت حضارة بغداد والبصرة أرقى من حضـارة أكس لاشابل وباريس وكـان الفرنج تحت قيـادة شارل مارتل هم الذين كسروا المسلمين فى (بواتيه) وأنقذوا النصرانية فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوربا إلا تحت اسم بلاد الفرنج .

وكان أول من دعا الأوربيين إلى حرب صليبية هو البابا سلفستر الثانى وذلك سنة ألف واثنتين ولم يوفق إلى تحقيق ما أراده ، ثم جاء البابا غريغوريوس السابع فاستنفر جميع ملوك أوربا لحرب دينية ضـد الإسلام وذلك سنة ١٠٧٥م إلا أنها هذه المرة أيضـاً لم تتحـقق هذه الأمنية وتأخرت نحو عشرين سنة من ذلك التاريخ ، ثم بدأت الحروب الصليبية فأخرت فتح الأتراك للقسـطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة، وانتهت الحروب الصليبية سنة ١٢٧٠ ميلادية إلى سنة ١٢٩١م بسقوط عكا وخسر المسيحيون عدا ما كانوا فتحوه فى بلاد الإسلام مملكتين مسيحيتين هما قبرص وأرمينية ، ثم دخل الأتراك إلى أوربا سنة ١٣٥٦هـ بعبورهم مضيق الدردنيل وافتتحوا أدرنة عام ١٣٦٠م ، وفى جميع الأزمنة ومن قبل أن يدخل الأتـراك إلى أوربا كـان كُـتَّـاب النصـارى والمفكرون منهم لا يريـدون أن يتـعـزوا عن

إخفـاق الحـروب الصليبية، ولا يفتـأون يهيجـون خـواطر الشـعـوب الأوربية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام ولا سيما عن فلسطين ، واشتهر من بين هؤلاء المحرضين (بيردوبوا) ومارنيو وسانوتو وهاتيون وريموند لول وغليوم دونو غارى وكذلك الشعراء مثل بترارك؛ كانوا فى مقدمة المحرضين على قتال المسلمين .

قال : ولما سقطت عكا وصور كتب البابا نيقولا الرابع كتاباً تاريخه ٢٣ أغسطس ١٢٩١ إلى فيليب لوبيل ملك فرنسا يظهر له به أمله ويستنجده ليجمع كلمة ملوك النصارى وينتقم من الإسلام ولكن البابا مات قبل تحقيق أمله ، وكان قد تلقى برنامجى حرب أحدهما من ملك صقلية كارلوس الثانى ، والثانى من راهب يقال له (فيدانس دونادو) .

وكان برنامج كارلوس الثانى العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى مقاتلتهم بالتجارة - وقال : لأنهم إذا زحف الأوربيون إلى بلادهم تركوهم يطأون السواحل ويعمل فيهم تأثير الإقليم فيضعفون فكان الأولى قطع الطريق على متاجرهم وإعداد أساطيل لهذا المقصد ، وتوحيد القيادة ويسمى هذا المشروع فى حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثانى ملك صقلية .. أما مشروع (فيدانس دو نادو) فلم يكن مقصوراً على حرب تجارية بل كان يشير بتجريد جيش يطأ البر ويكون وراءه أسطول من ثلاثين إلى خمسين بارجة حربية وأن ينزل الجنود على سواحل أنطاكية ثم يجعل الصليبيون أنطاكية معتصماً لهم وقاعدة لغزواتهم ، وقد انتقد بعضهم هذا المشروع وحكموا باستحالته .

وتوالت هذه المشاريع لا تتوقف ، ومنها أن البابا سيفلوس كتب إلى السلطان محمد الفاتح ١٤٦٣م يدعوه أن يتنَصَّر ويقول له : بقليل من الماء على بدنك تتعمد وتصير نصرانياً خادماً للإنجيل ، فإن فعلت هذا فلا يكون على وجه الأرض ملك يمكنه أن يفوقك فى المجد والاقتدار .

وكان مشروع ريموند لول ١٣٠٦م الفيلسوف المسيحى يقترح تجريدتين صليبيتين إحداهما تزحف إلى مراكش فتونس فطرابلس والثانية تزحف إلى القسطنطينية ومنها إلى سورية .

وألف غليودم دادان الدومينكانى ١٣١٠م كتاباً سماه (كيفية استئصال شأفة المسلمين) وأشار فيه بإيجاد أسطول مسيحى فى خليج فارس .

ثم توقفت هذه المشروعات بعد فتح القسطنطينية واستؤنفت فى أواخر القرن السادس عشر بعد موقعة ليبانت البحرية الشهيرة التى هزم فيها العثمانيون .

وتوالت الخطط التى كان من أهمها ما قام به البابا لاون العاشر ١٥١٧ الذى أقنع الإمبراطور ماكسيحيليان بلزوم محاربة الترك .

وقال الإمبراطور : إننا بالاتفاق مع سائر ملوك المسيحيين نفكر فى حملتنا المقدسة على الترك التى يشترك فيها ملوك النصارى والبرتغال وفرنسا وبولونيا والمجر .

وجاءت بعد ذلك مشروعات عديدة يعدها رهبان وفلاسفة، وانتهى ذلك كله إلى عقد التحالف المقدس (٢٥ مايو ١٥٧١) حيث احتشدت أساطيل الحلفاء (٢٢٥ سفينة) وكان الأسطول العثمانى ٢٤٥ سفينة فى خليج ليبانت ونشبت الموقعة البحرية الشهيرة وقضى الله تبارك وتعالى بتمحيص المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وأخذ الأوربيون منهم ١٣٠ سفينة و١٠ آلاف أسير .

وكانت هذه المعركة مبدأ تقهقر السلطنة العثمانية كما يشير إلى ذلك الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) ولكن الدولة العثمانية عاشت بعد ذلك ثلاثمائة سنة حامية للإسلام بالرغم من تراجعها فى أوربا .

ولم تتوقف المؤامرات على الدولة العثمانية بل توالت وازداد توغل القناصل فى الدولة العثمانية من وراء المحافل الماسونية والدور الذى قامت به العناصرالأجنبية (المسيحية واليهودية) ذات الجذور البعيدة فى البلقان وغيرها [١] .

وكانت هذه المخططات ترسم (أولاً) خطط مهاجمة الدولة العثمانية (ثانيا) اقتسام ممتلكات السلطنة بعد الظفر بها وكان استعادة مناطق أوربا هو الأهم أولاً .

يقول الأمير شكيب أرسلان إنه من بين تسعة وأربعين مشروعاً من مشروعات تقسيم تركيا لا نجد مشروعاً واحداً يتضمن فكرة استبقاء المسلمين بل جميعها كانت تدابير مقصوداً بها محو تركيا والإسلام بأسره .

يقول المسيو دوجوفارا : إنه فى مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يهيئون برامج تقسيم هذه السلطنة .

فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية لم تزل الناس تتقول على سقوط آل عثمان ، وكانت الدول العظام لا تفكر أن هذه الأمم التى تتألف منها السلطنة العثمانية يمكنها أن

---

(١) تقهقرت الدولة العثمانية بعد موقعة ليبانت ١٥٧١ ونزعت منها المجر ١٦٩٩ والقرم ١٧٧٤ واليونان ١٨٢٩ وجزائر الغرب ١٨٣١ .

تدير أنفسها بأنفسها ، بل كان عندها أن هذه الشعوب لم توجد إلا لتكون تحت حكم الأجنبى وبقى هذا الفكر عند الدول الطامحة العظيمة إلى أيامنا هذه .

على أن السلطنة العثمانية إن لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة فى مدة هذه الأعصر الطوال التى كانت أوربا تناصبها فيها العداء .

فما السبب؟ الأسباب كثيرة ومنها السبب الذى نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى وهو سعة الممالك المفتوحة .. تلك الخارقة للعادة ، واحتلال الأمم الخاضعة ، واستحالة إذابتها فى بوتقة واحدة وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة ، ثم فساد الإدارة وارتخاء النظام وتردى القوة العسكرية .

أضف إلى ذلك اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية مستندة إلى شرع سماوى ، ولم يكن القرآن مانعاً من العلوم ولا من المعارف ولا من الصناعات ، ولو كان كذلك لما كانت المدنية العربية الباهرة ممكنة .

كذلك لولا التسامح الدينى العظيم عند الأتراك لكان تساكن المسيحيين مع المسلمين متعذراً ، ولكن الدولة العثمانية أعطت المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم الحرية المدرسية مع حرية التعليم وهى التى كفلت نموهم وترقيهم وجعلتهم يسيرون فى طريق الاستقلال المطلق ، وكانت عداوة النصارى للمسلمين قائمة رغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينية التى كان يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية .

إن دوجوفارا الوزير الرومانى قد ركز على أن السبب الأول والحقيقى فى تراجع الدولة العثمانية هو الغزو الفكرى الذى تمكن منه أهل القوميات الأخرى إذ استطاعوا استقطاب شباب الدولة العثمانية فى اللغات الأجنبية والفكر القومى والعلمانى والإلحادى ، واعتناق العلمانية والعودة إلى الفكر العرقى المتمثل فى الدعوة الطورانية .. لقد كان فى السلطنة العثمانية عشرات الملايين من المسيحيين واليهود الذين كانوا أشبه بمجندين فى سبيل هذه الدعوة .

وكان الدونمة هم الذين صنعوا المؤامرة أساساً ، وكان الاتحاديون هم الذين تولوا تطبيقها والمضى بها فى حماية الدول الغربية المتآمرة للوصول إلى الغاية الخطيرة التى وصلت إليها .

أولاً : سقوط السلطان عبد الحميد .

ثانياً : سقوط الدولة العثمانية .

ثالثاً : سقوط الخلافة الإسلامية .

* * *

(٩)

حين بدأت الدعوة إلى الطورانية ، وجاءت المرحلة الحاسمة كانت المؤامرة قد رسمت فى المحافل الماسونية ووضعت خطتها فى مؤتمر بازل ١٨٩٧ فى إبان حكم السلطان عبد الحميد الذى ظل قائماً حتى عزل ١٩٠٨ .

كانت الصهيونية قد رسمت مخططها بإسقاط الخلافة وإقامة هيكل سليمان بعد السيطرة على فلسطين وبيت المقدس بالذات وهذه هى القضية التى ما زالت مستمرة حتى اليوم ١٩٩٨م .

وقد كشفت بروتوكولات صهيون التى ظلت خفية عن العرب والمسلمين سنوات طوالاً عن هذا المخطط .

وكان اليهود قد أخرجوا من الأندلس فى نهاية الحكم الإسلامى فاختارت جماعة كبرى منهم الإقامة فى الدولة العثمانية واختاروا مدينة سالونيك بالذات فكانوا هم حملة لواء هذه المؤامرة .

وقد ارتبطت جمعية الاتحاد والترقى بالماسونية العالمية تحت أسماء براقة هى الحرية والإخاء والمساواة ، ليكونوا أداة فى يد الصهيونية لتنفيذ مخططها الذى يرمى إلى تدمير القوة الإسلامية الممثلة فى الخلافة والدولة العثمانية ، من أجل إنفاذ مخطط السيطرة على فلسطين وبناء هيكل سليمان بديلاً عن بيت المقدس .

وكانت المؤامرة قد أعدت لمواجهة السلطان عبد الحميد فى محاولة لاحتوائه ، والحصول على تصريح بدخول اليهود إلى فلسطين وإلى القدس.

وقد حمل لواءهذه المعاهدة (هرتزل) بعد أن قتل اليهود قيصر روسيا إسكندر الثانى ١٨٨١ ، واشتدت الحملة عليهم فكانت هجرتهم إلى قلب أوربا ، حيث بدأ تنفيذ مشروع توطينهم فى فلسطين من خلال نصوص أوردتها التوراة التى كتبها (عزرا) فى منفى بابل .

وقد حشد هرتزل كثيراً من الوسطاء للاتصال بالسلطان عارضاً عليه تسديد ديون الدولة

العثمانية .

وقد تنبه السلطان إلى أبعاد المؤامرة فأغلق باب فلسطين فى وجه اليهود وأرسل إلى هرتزل خطابه التاريخي :

(أنصح الدكتور هرتزل ألا يسير أبداً فى هذا الأمر . . لا أقدر أن أبيع ولو قدما مربعة واحدة من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبى ، ولقد حصل شعبى على هذه الإمبراطورية بإراقة الدماء وقد غذوها بدمائهم وسوف نغذيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا . ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل .

إننا لن نقسم إلا على جثثنا ، ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأى غرض كان ، وقد ظل السلطان طوال مدة حكمه عقبة كئودا فى وجه المشاريع اليهودية وبخاصة الصهيونية فى فلسطين .

وإذ فشلت الصهيونية مع السلطان فقد عمدت إلى خطة لعزل السلطان عبد الحميد عن الحكم عام ١٩٠٨ فلما سيطرت جمعية الاتحاد والترقى على الحكم حققت كل أهداف الماسونية والصهيونية جميعاً حيث كان كل عناصر الحكم من يهود الدونمة الذين تستروا بالإسلام ولعبوا دوراً بارزاً فى الثورة على السلطان .

وكان ثلاثة من يهود الدونمة يحتلون المناصب الكبرى فى الحكومة العثمانية (حاويد وزير المالية – يساريا وزير النافعة – نسيم مازلياج وزير التجارة والزراعة) .

ومن ثم حملت جمعية الاتحاد والترقى قيادة وجهة الدولة العثمانية ، فأعطت طرابلس الغرب لإيطاليا وأدخلت الدولة الحرب العالمية الأولى فى صف المحور الذى هزم ، وكانت هزيمتها هى ساعة تمزيق وجودها . وقد أظهرت حكومة الاتحاديين عطفها البالغ على الحركة الصهيونية بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية واحتلال الأراضى .

وبذلك حققت الماسونية أولى أهدافها وهو إسقاط السلطان عبد الحميد الذى حمل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وسعى سعيه الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية داخل الدولة العثمانية وخارجها فى وجه النفوذ الأجنبى .

ولا ريب كان اتفاق الصهيونية العالمية مع القوى الاستعمارية قد رتب من قبل ، فقد كان الغرب المسيحى حريصاً على أن يتخلص من اليهود فى محاولة للسيطرة على فلسطين العربية المسلمة تحت أى عنوان ، سواء أكان ذلك فى سبيل إعطاء هذه المنطقة الحساسة

لقوى مؤيدة أم كان تنفيذاً لمخططات وضع جسم غريب فى قلب المنطقة يحول دون توحدها ودون استطاعتها حمل لواء النهضة الإسلامية كما ورد فى التقرير .

وكان أكبر عوامل نجاح هذه القوى مجتمعة فى ضرب الجامعة الإسلامية والدولة العثمانية - الجامعة لعنصرى الترك والعرب - هو إغراء الحكام بإقامة كيانات إقليمية لها طابع عنصرى أو عرقى أو مرتبط بتاريخ قديم سابق للإسلام ، كدعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية وغيرها .

وكانت الخطة الأولى هى إيقاظ دعوة الطورانية فى تركيا الإسلامية ومحاولة حمل العرب عليها باسم خطة تتريك الدولة وهو الدور الخطير الذى قام به الاتحاديون إبان حكمهم بعد سقوط السلطان عبد الحميد إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩٠٨ - ١٩١٦) .

وقد وضعت خطة المرحلة التالية من مجموعة أخرى من الاتحاديين على رأسهم مصطفى كمال أتاتورك لتنفيذ خطة القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية نهائياً بعد الحرب .

وقد مضى ذلك كله فى طريق منسق مع خطة البروتوكولات التى وضعها حكماء صهيون للسيطرة على الدولة العثمانية والبلاد العربية ، وكان اليهود قد حققوا خطوة واسعة بإشعال نار الثورة الفرنسية التى حققت لهم كسر قيود الوحدة المسيحية الأوربية وفتح الطريق أمام الجنس اليهودى للسيطرة على مقادير السياسة والفن والاجتماع ، على النحو الذى حمل لواء الحملة الإلحادية المدمرة التى شنها اليهود والصهيونية ضد المسيحية والأديان، والتى قادها قبل الثورة الفرنسية فولتير وروسو وأصحاب الموسوعة وبذلك أمكن احتواء المسيحية وتوجيهها لخدمة أهداف الصهيونية .

وكان ذلك من أكبر انتصارات المحافل الماسونية .

كما انتشر - بعد ذلك - الأدب الإباحى وأدب الفراش واللامعقول والعبث والوجودية والحداثة وكلها من نتاج التوجيه الصهيونى لتدمير العالم الإسلامى .

واستطاعت الصهيونية أن تفرض على المسلمين والعرب مناهجهم المدمرة التى ترمى إلى عدم العودة إلى الوحدة الإسلامية وهى القومية والليبرالية والعلمانية والاشتراكية والديمقراطية .

لقد أزال اليهود مفهوم الدين الحقيقى من الغرب لفرض مفهومهم الذى يحقق لهم قيام دولتهم .. ولقد ورثوا الحضارة الغربية وتسلموها ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً ثم فرضوا أنفسهم على الفكر الغربى ، وسيطروا عليه سيطرة كاملة وأباحوا اللادينية

واللاأخلاقية والإلحادية والإباحية وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمى براق، ولما هدمت اليهودية الفكر الغربى أولاً سربت هذا الحطام إلى العالم الإسلامى مستهدفة من ذلك تحقيق غايتها فى إقامة الإمبراطورية اليهودية فى فلسطين من النيل إلى الفرات وإقامة هيكل سليمان بديلاً للمسجد الأقصى .

لقد حقق اليهود الانقلاب العثمانى فى مراجعه الثلاث (السلطان عبد الحميد – الدولة – الخلافة) هذا الانقلاب الذى رتب له يهود سالونيك منذ نصف قرن حتى تم على أيدى مسلمين كانوا يهوداً فى الأصل فأسلموا لأجل هذه الغاية ، ثم تلاه الانقلاب الروسى الهائل وكان أنصار لينين كلهم يهوداً .

كان إسقاط الدولة العثمانية وإقامة القوميات للحيلولة دون قيام وحدة المسلمين، مقدمة للسيطرة الكاملة على المنطقة .

ولقد تجمع العالم الغربى المسيحى كله لتحقيق هذه الغاية حتى وجه أحد شعراء الغرب فى الآستانة نداء إلى حكام أوربا يقول لهم بالحرف : (إن السلطان عبد الحميد هو من طراز السلطان محمد الفاتح الذى سبق له أن طرق بجيوشه أبواب أوربا، وإن عبد الحميد يهدف إلى إعادة عظمة الدولة ، وإعادة مجد المسلمين فعليكم بتناسى خلافاتكم ومعرفة أى شخصية تواجهون) .

وكان عبد الحميد بسبيل إحياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان ، وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة ، ثم السعى لتعريب الخلافة نفسها فضلاً عن مشروعاته الكبرى لربط الدولة برباط عصرى وهو بناء سكة حديد الحجاز وكل هذا مما أسرع بإسقاطه .

قال اليهودى (قرصو) للسلطان عبد الحميد عندما رفض عرض هرتزل : سترى كم يكلفك هذا الرفض .

وفى هذا معنى الدور الذى قامت به الصهيونية لإسقاط الخلافة ، وكم شهد الباحثون والمؤرخون لشخص السلطان عبد الحميد وحكمته وبراعته فى إدارة دفة الأمور ، وفى مواجهة مؤامرات أوربا ضده ، وفى معرفته لخفايا الخطط التى رسمتها الماسونية عن طريق الاتحاديين فى سبيل اقتلاع وجوده وتدمير مشروعه الضخم (وحدة المسلمين جميعاً) .

ولا ننسى أن الاتحاديين بعد إسقاط عبد الحميد فرضوا سياسة ديكتاتورية متسلطة وتنكروا لجميع الشعوب العربية التى تعيش فى نطاق الإمبراطورية وحاولوا علمنة وتتريك جميع العناصر، وكان من ذلك أولئك الذين علقهم الأتراك من زعماء العرب على المشانق .

(١٠)

لقد كانت الخطة هى الإطباق على الدولة العثمانية : دولة الخلافة بواسطة أرثوذكس روسيا وكاثوليك وبروتستانت بريطانيا ، لردها إلى الوراء بإثارة النعرة الطورانية التى كان ينتمى إليها يهود الدونمة وعلى رأسهم مصطفى كمال أتاتورك ثم اتخاذ الدب الأكبر شعاراً لتركيا .

وكان الدب هو المعبود الذى يعبده الأتراك قبل دخولهم الإسلام ، ولقد كانت المرحلة التالية بعد إسقاط السلطان عبد الحميد هي إسقاط الدولة العثمانية ، وقد جاء ذلك بإدخال الاتحاديين تركيا الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها فى ذلك أى مشاركة حقيقية ، ولكنهم أرادوا ذلك حتى تنهزم ، وبذلك تدخل فى دائرة التقسيم الذى قام به الحلفاء للدول التى حاربت ضدهم .

وقد فرضت على الدولة العثمانية على أثر خروجها من الحرب العالمية الأولى معاهدة لوزان التى وقعت مع الحلفاء وهدنة رودس ١٩١٨م ، وقتها أملى الحلفاء شروطهم فى فتح الدردنيل والبسفور ، ونزع سلاح الجيش التركى ، وتسليم البواخر الحربية التركية ، واستعمال البواخر للموانى التركية ، واستسلام الحاميات التركية فى الحجاز واليمن وسوريا والعراق ، ثم جاءت محاولة احتلال اليونان لأزمير .

وقد أقرت معاهدة الصلح مع تركيا انفصال تركيا عن الامبراطورية (سوريا والعراق) وتنازل تركيا عن حقوقها فى الأراضى الواقعة خارج الحدود (مصر والسودان وليبيا) .

ثم وقعت الدولة العثمانية معاهدة سيفر ١٩٢٠م التى أملاها الحلفاء على حكومة السلطان العثمانية وقد نصت على الاحتفاظ بالقسطنطينية عاصمة علمانية مع تدويل الأراضى المجاورة لها .

- إعلان كردستان دولة ذات استقلال .
- إدارة اليونان لأزمير لمدة خمس سنوات .
- تنازل تركيا عن بعض الأراضى والجزر لليونان وإيطاليا .
- إعلان أرمينيا دولة مستقلة .
- اعتراف تركيا بالانتداب على سوريا والعراق وفلسطين .

- استقلال الحجاز ومصر والسودان .
- تنازل تركيا عن حقوقها فى قبرص ومراكش وتونس وليبيا .
- حماية الأقليات .
- إعادة تأسيس نظام الامتيازات .

وكان واضحاً مدى الإجحاف والظلم الذى فرضه الحلفاء على الدولة العثمانية . . يقول الأمير شكيب أرسلان : لقد تحقق تقسيم تركيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وجاءت معاهدة سيفر التى أرادت دول الحلفاء أن تجبر تركيا على إمضائها والتى نزعت من تركيا جميع البلدان العربية ، وجعلت بلاد الأناضول مناطق مقسمة بين دول الحلفاء .

فهذه المعاهدة لو نفذت لكانت تركيا أثراً بعد عين ولكن الأتراك ثاروا واعتصموا بالأناضول وجعلوا مركزهم أنقرة وقاوموا جيش اليونان ودحروهم ثم كان أن عقدت مع تركيا معاهدة لوزان التى أبقت لتركيا الأناضول والقسطنطينية وأدرنة وأخرجت من يدها البلاد العربية كلها وكل ما كان لها فى أفريقيا وجزائر بحر الأرخبيل .

وهكذا تم تصفية الدولة العثمانية .

وقد قبلت تركيا الكمالية شروط الصلح الذى عقده الحلفاء معها فى لوزان والمعروفة بشروط كرزون الأربعة وهى :

أولاً : قطع كل صلة بالإسلام .

ثانياً : إلغاء الخلافة .

ثالثاً : إخراج أنصار الخلافة من البلاد .

رابعاً : اتخاذ دستور مدنى بدلاً من دستور تركيا القديم .

وهكذا دخلت تركيا التى قادها مصطفى كمال أتاتورك إلى مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية ، وبذلك يتحقق الهدف الثالث الذى رسمته مؤامرة الدول الأوربية المسيحية بالاشتراك مع الصهيونية العالمية .

* * *

(١١)

سقوط الخلافة الإسلامية

استولى مصطفى كمال أتاتورك على مقاليد الأمور فى الدولة التركية - ليرسم حدودها وأوضاعها اتفاقا لوزان وسيفر - والتى قامت على أساس العلمانية، وحققت مطامع الغرب واليهود الماسون فى إسقاط الخلافة ، وتحويل وجهة الدولة العثمانية التى حمت الإسلام خمسمائة عام إلى دولة لادينية ، ثم كانت البادرة الكمالية هى إسقاط الخلافة الإسلامية ، وبذلك فتح الطريق أمام استعلاء الإقليميات والقوميات بما يحقق هدف الصهيونية العالمية بإقامة كيان يهودى فى فلسطين على النحو الذى تحقق بعد الحرب العالمية مباشرة عندما أعلنت بريطانيا وعد بلفور ١٩١٧م بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ولم يتوقف الأمر عند تحجيم تركيا ، بل انطلقت الدعاوى بالهدم والتدمير لتاريخها كله واتهامها بأنها سبب تأخر البلاد العربية .

ولقد مضى كمال أتاتورك فى تحقيق هدف التغريب كاملاً :

١ - جعل روح القومية التركية مستقلاً عن الإسلام .

٢ - جعل التركى علمانيا أولاً ومسلماً ثانياً .

٣ - تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية .

وكان من أخطر ما قام به أتاتورك أنه حاول رسم منهج العلمانية للعالم الإسلامي كله ، وقد سار على خطاه حكام إيران وأفغانستان ومصر ، ولقد أخذت تركيا المدنية بقانون سويسرا المدنى وقانون الجزاء الإيطالى وكلها بعيدة عن عقائد المسلمين وذوقهم ومنازعهم ومشاربهم .

فالقانون المدنى الأوربى يصدر من منبعين أحدهما رومانى والآخر مسيحى وليس فى هذين القانونين ما يتفق مع حاجة الزمان أو المكان ، وفرق فى هذا بين تركيا من ناحية وبين سويسرا وإيطاليا .

ومعنى هذا أن النصر الذى حققه التغريب فى تركيا الكمالية كان هزيمة كبرى على مستوى العالم الإسلامى ، فقد رأى المسلمون كيف تُحَطَّم أمة مسلمة ثم لا تجد سبيلها مرة أخرى إلا بعد زمن .

وقد فرح الغربيون فرحاً شديداً للاتجاه الذى انحدرت إليه تركيا حتى قالت جريدة التيمس (١٢ يناير ١٩٢٩) :

لقد حان الوقت الذى تغرب فيه شمس الإسلام فى تركيا لتحل محلها البروتستانتية أو أى مذهب قادر . . إن الناس يتكلمون عن قرب اليوم الذى تلغى فيه الدعاية الإسلامية فى تركيا ، وأنه لابد من أن يقع تغيير هام فى دين تركيا فى أى وقت وإن كان غير قريب ، ومن العجب أن الذى نقل هذا مسلم تركى هو (عمر رضا) .

وقد تعالت صيحات التمجيد والاستحسان من جميع جوانب العالم الغربى للخطة التى نفذها مصطفى كمال أتاتورك والتى رسمتها كل القوى المسيحية واليهودية من أجل تدمير مقومات الأمة الإسلامية وكيانها .

ولقد سار مصطفى كمال بتركيا سيرة من يجعل الدين الإسلامى أجنبياً عن الحكومة التركية .

كما ألغى ما يشم منه رائحة الإسلام من أوضاع الحكومة التركية ، وأبطل المحاكم الشرعية بعد أن أبطل العمل بالشريعة وألغى الوزارة التى أسستها مشيخة الإسلام، وجعل مكانها دائرة صغيرة لأمور الديانة وحذف من دستور تركيا المادة التى فيها : أن الإسلام هو دين الدولة التركية ، وأبطل إقامة مراسم العيدين ، كذلك ألغى الكتابة بالحروف العربية ، وفيه ما فيه من إقصاء الترك عن العرب ، وأبطل قراءة القرآن تدريجياً ، وأقنع أوربا أن تركيا قد تفرنجت تماماً ، وأنه صار من العدل أن تدخل فى العائلة الأوربية .

ولهذا الغرض نفسه حمل مصطفى كمال أتاتورك على لبس القبعة ، وكان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة لتركيا فى حياتها العلمية والاقتصادية .

* * *

وقد كان لحادث إلغاء الخلافة الإسلامية دوى شديد فى مختلف الأقطار ، وتساءل الناس عن أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة على المسلمين ، ومدى وقعها على الذين استظلوا بها ، وهل هى آخر المعارك أم أولاها حين يسقط هذا الحصن الذى كان يجمع المسلمين ويحميهم ويرد عنهم ، ويدفعهم إلى التجمع فى وجه الحملة الكاسحة والإعصار الزاحف الذى يعمل على تمزيق وحدة المسلمين وتفتيتهم .

وكان هذا الحدث الخطير نذيراً بحدث آخر أشد خطورة هو سقوط القدس مسرى رسول

الله ﷺ فى يد الصهيونية العالمية بعد ذلك بأربعين عاماً .

وقد أصبحت تركيا من الناحية الدستورية دولة علمانية لا دخل للإسلام فى تحديد سياستها الداخلية والخارجية ، وأن هذه العلمانية قد فرضتها عليها الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى بموجب معاهدتى سيفر ولوزان لقاء الاعتراف بها كجمهورية قائمة على أنقاض الخلافة لا يتعدى سلطانها حدود الأناضول .

ولقد كان لسقوط الخلافة وتحول الدولة التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك نحو العلمانية والغرب، أبعد الأثر فى البلاد العربية وخاصة فى مصر .. غير أن الباحثين والمراقبين استبعدوا سقوط البلاد العربية فى هذا الاتجاه فقد أخذت البلاد العربية تبحث فى إعادة الخلافة زمناً ثم نشأت جمعيات إسلامية كثيرة تحمل أمانة إعادة الخلافة أساساً لعملها .

وقد انطلقت الدعوة الإسلامية بعد سنوات قليلة تستقطب الشباب المسلم حول مفهوم الإسلام ديناً ودولةً، والعودة إلى الشريعة الإسلامية، والتحرر من نفوذ العلمانية والإقليمية والقومية والاشتراكية جميعاً .

وقد نجحت هذه الدعوات واستطاعت أن تحقق نتائج طيبة فى مقدمتها النص فى دساتير الدول العربية على الشريعة الإسلامية .

كما استطاعت أن تحرر مفهوم العروبة من سموم مفهوم القوميات الغربى ، وحدثت ردود أفعال فى تركيا نفسيها على نحو أذهل المراقبين .

وتراجعت تركيا عن الإلحاد وأخذت تمضى فى الطريق نحو العودة إلى أحضان الإسلام .

* * *

(١٢)

تمزق الوحدة الإسلامية وقيام الإقليميات

وقد كان من الضرورى أن تقوم فى البلاد التى انفصلت عن الدولة العثمانية نظم سياسية غربية أو مستوحاة من الغرب بعد أن سقطت سوريا والجزائر والمغرب ولبنان فى قبضة النفوذ الفرنسى ، وسقطت مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين فى قبضة النفوذ البريطانى .

ثم جاء وعد بلفور ليخلق تمزقاً خطيراً يرمى إلى إعداد فلسطين للتقسيم بين العرب

واليهود مما انتهى إلى قيام كيان يهودى عام ١٩٤٨م .

وجاء لورانس على خطا هرتزل ، ففى تقرير سرى رفعه إلى المخابرات البريطانية (كانون ثانى ١٩١٦م) يقول : إن أهدافنا الرئيسية هى تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك ، فسيبقون فى دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك ، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة من أى قوة خارجة .

لقد استطاع لورانس أن يمزق الوحدة الإسلامية وأن يجند العرب لقتال الترك ، وأن يسلم هذه المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية إلى البريطانيين والفرنسيين .

وكان يعمل طوال الوقت فى سبيل الصهيونية مخفياً وجهته ، فهو قد قدم إلى المنطقة قبل الموقعة بسنوات ليدرس المواقع وكان هدفه دراسة آثار الحروب الصليبية معلناً إعجابه بفروسية العصر الصليبى ، وفى تصور واضح بأن الحركة الصهيونية ستتخذ نفس مسرح الحروب الصليبية فى فلسطين والشام ومصر .

يقول : كنت أومن بالحركة العربية (حركة الشريف حسين) إيماناً عميقاً وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هى الفكرة التى ستمزق تركيا شذر مذر (أعمدة الحكمة السبعة) .

وقد انطلق لورانس ومجموعته لإذكاء نار الثورة العربية وتوجيهها ضد تركيا وإثارة النعرات المختلفة داخل الدولة العثمانية ، وكانت أوربا قد بذلت المستحيل لتغذية هذه النعرات الطورانية والعربية والأرمنية ، وكان سعى هرتزل الدائم لتقويض الدولة العثمانية .

وقام بقيادة هذه الحركة لورانس وجلوب وفيلبى وغيرهم أما مصطفى كمال أتاتورك فقد أخفى أنه من يهود الدونمة ولم يكشف أوراقه إلا فى اللحظة الأخيرة، وقد أجاد استخدام الروح الإسلامية فى شحذ عزيمة جيشه واستثمر الروح الإسلامية مرحلياً فانتصر بها ثم انتصر عليها . وعندما جاء لورانس إلى المنطقة عام ١٩١٤م جاء باسم التنقيب عن الآثار وتحول إلى سيناء ورسم خريطة مساحية عسكرية لسيناء من العقبة حتى العريش وقام باستطلاع رأى قادة العرب فى توطين اليهود فى فلسطين والتمهيد لوعد بلفور .

وهكذا مزقت الأمة الإسلامية إلى وحدات صغيرة تحت لواء النفوذ الاستعمارى .

ولكن سرعان ما تنبه المسلمون إلى هدف تمزيق الوحدة الإسلامية وتكشفت الحقائق وبدأت عناصر الأمة الإسلامية تلتقى وتجتمع فى مؤتمرات متعددة ولقاءات عامة فى محاولة

مستمية لهدم كل عوائق الالتئام والتوحد .

وإن كان النفوذ الأجنبى ظل قادراً على التدخل لهدم كل محاولة للوحدة وكانت الخطة الخطيرة فى الحيلولة دون ذلك هى قيام رأس جسر فى قلب الوطن الإسلامى من جنس غريب يتمثل فى الكيان الإسرائيلى .

* * *

ملاحق البحث

أولاً : مقاومة التوسع البرتغالى وتوسع الجهاد البحرى ضد القرصنة الأوربية :

١ – وصلت الدولة العثمانية أوج اتساعها وقوتها فى عهد السلطان سليمان القانونى ١٥٢٠ – ١٥٦٦م الذى تولى عبء مواجهة التوسع الأوربى وبخاصة فى البحر المتوسط شمالى أفريقيا والمياه الشرقية، وفى عهده سيطرت البحرية العثمانية على البحر المتوسط برمته وحولته إلى بحيرة عثمانية إسلامية وقد أبدى السلطان سليمان اهتمامه لموقف التوسع البرتغالى فى المحيط الهندى وكان يعد العدة للقيام بهجوم كبير بهدف إلى وقف التوسع البرتغالى فى الشرق وقد واجه المسلمون التوسع البرتغالى بالمقاومة .

وكان خير الدين بربروسا وإخوته قد استقروا فى الجزائر عام ١٥١٦م واتخذوها قاعدة للصراع المستمر مع قوة أسبانيا البرية ، وكان المسلمون الذين أرغموا على الفرار من الأندلس قد جعلوا من الشمال الأفريقى قاعدة لمهاجتهم للسفن والسواحل الأوربية مما جعل الأوربيين يطلقون على هذه المنطقة اسم (ساحل القرصان) وظلت أوربا تهاجم هذه الأوكار .

بل إن الحجة التى قدمتها فرنسا لأوربا حين احتلت الجزائر عام ١٨٣٠م أنها تنقذ العالم الأوربى من براثن هؤلاء القراصنة المسلمين .

وكانت نشاطات هؤلاء البحارة مما يطلق عليه اسم الجهاد البحرى، أما كلمة القرصنة فقد أطلقها الأوربيون .

وهو جهاد استمر ألف عام من كفاح المغرب ضد القرصنة الأوربية فى البحر المتوسط ، وأصبح هؤلاء الذين قاوموا حملات الغرب أبطالاً قوميين (الأخ عروج) وخضر (خير الدين) المسمى بزوربا أو ذى اللحية الحمراء قبل استقرارهما فى الجزائر ، وقد استطاعا أن يؤسسا فى (جولتتنا) حلق الواد بميناء تونس دولة قراصنة ، وأن يكسبا ولاء معظم الملاحين المسلمين فى المنطقة على أثر قيامهما بهجمات ناجحة على الملاحة والسواحل المسيحية .

وفى خلال المعارك البحرية التى نشبت فى هذه المناطق برزت زعامة عروج، وبعد استشهاده برز خير الدين الذى ولاه السلطان على الجزائر وأذن له بالحصول على التجارة من سواحل الأناضول .

وكان البحارة المسلمون من أبناء سواحل الأناضول يقومون بالغارة على شبه جزيرة البلقان .

وقد قام خير الدين بسبع رحلات من الجزائر إلى ساحل الأندلس أمكنه خلالها نقل ٧٠ ألف مسلم كانوا يتعرضون لاضطهاد (محاكم التفتيش) وفى مقابل ذلك أقام النصارى (فرسان القديس يوحنا) فى جزيرة رودس واتخذوا منها قاعدة للإغارة على الملاحة الإسلامية فى شرق البحر المتوسط .

ثم أجلوا عنها بعد أن استولى العثمانيون على جزيرة مالطة .

واستدعى سليمان القانونى خير الدين ونصبه قائداً عاماً للبحرية العثمانية وذلك عام ١٥٣٣م وشرع فى بناء أسطول جديد يمكنه من التصدى للقوة النصرانية ، ومن قاعدة تونس أغار على جزيرة صقلية وفرض النفوذ العثمانى على غربى البحر المتوسط .

وفى أيام سليمان القانونى تم توقيع المعاهدة المعروفة باسم الامتيازات الأجنبية ١٥٣٦م التى مكنت رعايا فرنسا من تطبيق أحكام البابوية وجعلهم خاضعين لأحكام ممثلى فرنسا وتمتع الفرنسيون بالحرية الدينية داخل أملاك السلطان وحراسة الأماكن المقدسة فى فلسطين .

وكان ذلك من أخطر التجاوزات التى فتحت الباب واسعاً للنفوذ الغربى .

وقد أمكن بفضل نفوذ خير الدين إنقاذ الجزائر وتونس من الاستعمار الأسبانى ، وأصبحت البحرية العثمانية مرهوبة الجانب فى البحر المتوسط الذى تحول إلى بحيرة عثمانية ، ورفع راية الإسلام ، وألقى الرعب فى قلوب الأسبان وغيرهم من الأوربيين وقد دامت سيطرة البحرية الإسلامية على البحر المتوسط حتى معركة ليبانتو ١٥٧١م التى دمر فيها نصف الأسطول العثمانى .

وأخذت الدول الأوربية تسيطر بالتدريج على الملاحة فى البحر المتوسط بفضل ما تأتى لها من تطور فى أسلحتها إلا أن الملاحين المسلمين فى قواعدهم فى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، ظلوا محافظين على التقاليد التى أرساها خير الدين ، فكانوا يعترضون الملاحة ، ويرغمون مختلف الدول الأوربية على أن تدفع لهم إتاوات فى مقابل عدم التعرض لسفنها .

* * *

ثانياً : الحبشة ومملكة القس يوحنا :

وصل البرتغاليون إلى سواحل شرق أفريقيا فى أواخر القرن الخامس عشر وكانت الدوافع الصليبية كامنة فى نفوس البرتغاليين ، وكانت رغبتهم الملحة فى الوصول إلى مملكة القس يوحنا التى يحتمل أن تكون هى مملكة الحبشة المسيحية ، وذلك لإيجاد تحالف وثيق معها يكون موجهاً فى الدرجة الأولى ضد الدول الإسلامية القائمة فى المشرق ، وكما تطلع الأحباش إلى البرتغاليين تطلعت القوى الإسلامية بدورها إلى العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم عبء الدفاع عن العالم الإسلامى منذ النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى من جراء الأخطار الصليبية التى أخذت تبدو فيه من جديد والتى تمثلت فى مطامع البرتغاليين والأسبانيين .

وقد وجد العثمانيون النصرة من أميرهم الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب بجرانيا أى الأعسر الذى استمرت غزواته سبعة عشر عاماً (١٥٢٥ - ١٥٤٢)، وكان لهذه الغزوات أكبر الأثر فى نشر الإسلام وتأجج الحماس الدينى بعد أن قام تحالف برتغالى حبشى ، وأعلن الإمام أحمد بن إبراهيم ثورته على النجاشى (لينا دنقل)، والتف حوله مسلمو الصومال، ونجح فى اكتساح أجزاء كبيرة من الهضبة الأثيوبية وإيقاع الهزيمة بجيش « لينا دنقل » .

وقد سجل المؤرخ أحمد بن عبد القادر شهاب الدين الملقب بعرب فقيه فى كتابه فتوح الحبشة : أن النفوذ الإسلامى وصل إلى الأراضى المتاخمة لبحيرة تانا وكان حماس العثمانيين رد فعل لمساندة البرتغاليين للأحباش بعد أن قام تحالف برتغالى حبشى أيدوا فيه النجاشى بقوات كبيرة ، وقد طلب البرتغاليون من الحبشة اعتناق الكاثوليكية بدلاً من الأرثوذكسية ، وشهدت البلاد نشاطاً واسعاً خلال القرن السابع عشر حيث قامت به الجمعيات الكاثوليكية من طوائف الجزويت والدومنيكان بهدف تحويل الحبشة العريقة فى أرثوذكسيتها إلى المذهب الكاثوليكى .

ومن هنا لجأت الحبشة تستنجد بالمسلمين للتخلص من البرتغاليين فقد طلبت المعونة من جارتها اليمن المسلمة وكتب النجاشى (فاسيلادس) إلى إمام اليمن يبلغه عن رغبته فى فهم الدين الإسلامى لعل الله يهديه إلى اعتناقه، وهكذا لم تذهب الجهود التى قام بها الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر ومن بعده الأمير نور بن مجاهد سدى بل كانت سبباً أساسياً فى انتشار الإسلام فى الهضبة الأثيوبية كما اعتنق قسم كبير من قبائل الجالا الوثنية الدين الإسلامى .

وقد قامت الطرق الصوفية بدور مهم فى الدعوة إلى الإسلام ونشره (الشاذلية والعلوية والحكمية) . . استطاع المسلمون فى الحبشة أن يقيموا بينهم وبين البلدان المجاورة لا سيما

مصر والسودان روابط ثقافية واقتصادية وثيقة . (دكتور جمال زكريا قاسم)

* * *

ثالثاً : غزو القياصرة لبلاد الإسلام :

شن القياصرة حكام روسيا على البلاد الإسلامية فى وسط آسيا فى القرن الماضى حرباً صليبية مروعة، وكان أقسى هذه الحملات : الحملة على تركستان فقد استمات المسلمون فى صد الجيوش الزاحفة وأذهلت بسالتهم المهاجمين ولم يتخلوا عن شبر من الأرض إلا بعد ما تركوا أثراً من دمائهم ، لكنهم عجزوا عن الصمود، وتركهم العالم الإسلامى للقياصرة المتعصبين فاحتلت أرضهم وطوى تاريخهم وردتهم الشيوعية بعد ثورتهم من سبعين سنة .. حيث يمثل المسلمون الآن ربع سكان الاتحاد السوفيتى وتبلغ الأرض المنهوبة نصف مساحة الدولة وقد ضاعفت السلطات فى آسيا الوسطى نشاطها فى مراقبة المسلمين وتعقب حركاتهم ولا سيما عندما تجددت ذكرى وفاة البطل المجاهد (فريان مرد هشام) وهو أحد أشجع القادة الذين قاوموا غزو القياصرة .

وقد قاد الشيخ شامل (شمويل) كما اعتاد أن يوقع رسائله أقوى الحركات الثورية فى مواجهة هجوم روسيا على القرم والقفقاس .. حيث لم يتغلغل الإسلام فى بلاد القفقاس إلا من نحو مائتى سنة فقط وإن كان قد لامس هذه الجبال الوعرة من تقدم آخر ملوك بنى أمية : مروان بن محمد نحو بلاد الكرج وما توالى من غزوات عباسية بعد ذلك .

وقد توقف الزحف الإسلامى فى تلك الجبال الوعرة خلال القرون الوسطى وبخاصة بعد هجمات المغول والتتر وتخريب بغداد وتحطيم الخلافة ، وتعد ثورة شامل إحدى ثورات الإسلام الكبرى ضد الطغيان الاستعمارى النصرانى الأرثوذكسى الروسى .

وكان شامل ينظر إلى الدولة العثمانية على أنها الدولة الأم للمسلمين وينظر إلى الخليفة نظرة إجلال لا تقل عن نظرته إلى الخلفاء الراشدين ، وحاول شامل الاتصال بالسلطان التركى فشعرت به روسيا القيصرية وحالت دون هذا الاتصال ، وأرغمته على قبول القوانين الروسية فى التعامل واللغة الروسية ، وكانت روسيا تخشى الصولة العثمانية وتحارب المسلمين فى التركستان وقازاخستان وفى بخارى وطشقند وسمرقند وتتعدى على الحدود الإيرانية فى غربى بحر الخزر وشرقه وتثير المشاكل ضد الدولة العثمانية فى البلقان والقرم والأناضول وتحرض بلغاريا ورومانيا والجبل الأسود عليها كما شجعت اليونان على الانفصال عنها وغذت الثورات ضدها .

وقد أثبتت بعض الوثائق أن روسيا اتفقت مع بريطانيا فى الهدف، فأثارتا الأكراد والأرمن والدروز ضدها بل كان لهما ضلع كبير فى ثورة النصارى بسوريا ولبنان .

وقد ظل شامل يقاتل الروس ببسالة نحواً من ثلاثين عاماً أمضاها ثائراً فى الأحياء أو مهاجماً مراكز تجمع الجنود يختطف سلاحها ويقاتلها به ، والقليل مما كان يرد إليه من الدولة العثمانية سراً كان يفرقه على أتباعه ولا يحتفظ لنفسه بشىء، ولما أعيته الحرب تفرق عنه الناس بعد ثلاثين عاماً من معارك وجهود ونضال، فركب حصانه وهاجم الجند وحده وألقى بنفسه وبحصانه من أعلى الجبل إلى قعر الوادى كى لا يقع أسيراً فى أيدى أعدائه وتحطم حصانه ونجا ولكنه حوصر وقبض عليه ونقل إلى بطرسبرج انتظاراً لمحاكمته .

ثم سمح له بالحج إلى بيت الله الحرام ومر بدمشق فاستضافه الأمير عبد القادر وجاور فى مدينة الرسول ﷺ حتى توفاه الله .

* * *

رابعاً : موقف الدولة العثمانية من استنجاد أهالى الأندلس المسلمين :

كان فتح القسطنطينية وانتهاء الدولة الرومانية على يد الترك العثمانيين (٨٥٧ هـ - ١٤٥٣م) حادثاً جللاً اهتزت له أوربا من أقصاها إلى أقصاها وكان عاملاً جديداً فى إذكاء هذه الروح .

وكان افتتاح الترك للقسطنطينية ضربة شديدة للكنيسة والنصرانية ، بينما استولى القشتاليون على مملكة غرناطة وانتهت بذلك دولة الإسلام فى الأندلس ، اعتبر الغرب ذلك تعويضاً بمعنى من المعانى عن سقوط القسطنطينية فى يد الإسلام ، ثم كانت الثورة الصليبية التى جاشت فى أسبانيا والتى دفعتهم إلى السيطرة على عدد من قواعد المغرب وثغوره .

ولقد تردد القول عن تراخى موقف الدولة العثمانية بالنسبة لمسلمى الأندلس ، ولكن المؤرخين المنصفين أشاروا إلى تجاوب الدولة العثمانية مع نداءات مسلمى الأندلس بأمرين واضحين :

أولهما : فتح أبواب بلادهم لإيواء المهاجرين من الأندلسيين الذين لم يطيقوا احتمال أزمة الضمير المفروضة والتعذيب والتنكيل وازدادت هجرتهم إليها فى المشرق عندما منعتهم أسبانيا من الخروج من موانيها الشرقية والجنوبية ، وحولت طريق هجرتهم إلى الشمال كى لا

ينضموا إلى صفوف المغاربة الغربيين فيكونوا قوة حاقدة على مشارقها ، وهكذا اتجهت جموعهم إلى ممرات البيرنية وموانى الشمال تنفذ منها إلى فرنسا ومرسيليا وإيطاليا فالبندقية وما وراءها إلى الشرق وممتلكات الدولة العثمانية .

إن هذه الطريقة الطويلة والصعبة والشاقة كانت من أكبر طرق الهجرة الأندلسية ، وهناك عديد من الوثائق حول هذا الموضوع أهمها ما بعث به السفير الأسبانى فى البندقية غارسى هاند نديز إلى ملكه فيليب الثانى يعلمه فيها عن العدد الكبير من الموريسك الفارين الذين نجحوا فى عام ١٥٦٠ بخاصة فى الوصول إلى القسطنطينية عبر البندقية وقد استخدمتهم تركيا جنوداً ومترجمين ويبدو أنهم فى هجرتهم كانوا يكونون جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم .

وهذا لا يعنى انقطاع الهجرة إلى المغرب، فطريق البحر من غرناطة وبلنسية ظلت عاملة سراً ولم تكن السفن الأسبانية قادرة على البقاء باستمرار قرب السواحل لمراقبتها .

والمجال الثانى الذى أظهرت الدولة العثمانية تجاوبها فيه مع صرخات المسلمين المضطهدين هو الغزوات البحرية التى كان يقوم بها الأسطول العثمانى والجزائرى التابع له على السواحل الأسبانية نفسها بالإضافة إلى غزوات (بربروسا) العديدة من أحد قادة - غاكشيا الشيطان - كما لقبوه - استطاع أن يظهر أمام بلنسية أثناء ثورتها وأن يحطم الأسطول الذى بعث به الإمبراطور شارلكان بسرعة من جنوده وفى عام ١٥٤٠م قام الأسطول الجزائرى بغزو جبل طارق واستطاع يحيى ريس وطرغد أن يمزقا سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية عدة مرات وذلك على أثر احتلال المسلمين حصن الفيليبز عام ١٥٥٤م .

وقد كانت هذه الغزوات نوعاً من الجهاد المقدس وكان هدفها إطفاء القوة الأسبانية والحصول على الغنائم ولاسيما الأسرى ، وتفريج كربة المسلمين وتخليص من يريد منهم الهجرة من عذاب البقاء .

وعلى هذا يمكن القول كما تقول المؤرخة التى نقلنا عنها هذا النص (الدكتورة ليلى الصباغ) فى بحثها فى الملتقى الإسلامى فى تلمسان ١٩٧٥ : إن الدولة العثمانية كانت على اتصال دائم مع مسلمى الأندلس عبر سلسلة من المحطات فى أوربا وفى الغرب وعبر أولئك النازحين المشاة المتنقلين عن طريق أوربا والذين لم يكن ليضنيهم السير الطويل على الأقدام .

ومما لا شك فيه أن هذه الصلة وهذه الغزوات كانت دعماً قويًّا للمسلمين الغرباء المضطهدين وتفتيحاً لآمالهم ، إلا أنها بالمقابل كانت مثيراً ملحًّا لقلق أسبانيا مما كان يزيد نقمتها على المسلمين فى الداخل ، فبعد كل نصر عثمانى كبير على المسيحية الأوربية كانت أسبانيا تلتفت إلى داخلها فترى فى المسلمين أعواناً لهذا النصر ، ومن هنا تبين توافق واضح بين عمليات جورها على المسلمين وبين معارك النصر العثمانى، وقد تعددت مواقف النصر العثمانى فى مواجهة النفوذ الأسبانى وكانت انتصاراتها فى رودس وبلغراد والمجر ، وحصار مالطة والنصر الثانى الكاسح على البندقية وغيرها .

* * *

خامساً : الصراع بين الصفويين والعثمانيين :

كان هذا الصراع من أخطر ما لحق بالمسلمين فى الدولة العثمانية وفارس وكلتاهما دولتان مسلمتان وقد استطاع النفوذ الأجنبى أن يوقع بينهما من منطلق تدمير قوة الدولة العثمانية وتحجيمها وعدم تمكينها من الوصول إلى قلب أوربا .

يقول أحمد الخولى فى كتابه الدولة الصفوية :

لقد أقام الصفويون دولتهم وفرضوا عليها المذهب الشيعى الاثنى عشرى فى أوائل القرن السادس عشر ، وبعد توحيد إيران على أيديهم فإن أبصارهم اتجهت إلى محاولة التوسع وبسط الهيمنة فى مواجهة الدولة العثمانية القوية التى امتد سلطانها من وادى الفرات إلى قلب أوربا ، وقد قوبلت طموحات الصفويين بارتياح بالغ من جانب الأوربيين الذين توسموا خيراً فى تنامى قوتهم وقدروا أن الطموح الصفوى كفيل بإرباك العثمانيين وتشتيت قوتهم ، وهم الذين باتوا يشكلون خطراً يهدد أوربا بعد ما زحفت الجيوش العثمانية باتجاهها .

ومختلف المراجع التى تتناول المرحلة الصفوية تثبت هذا البعد ، وتنقل عن أحد السفراء الغربيين لدى البلاط العثمانى واسمه يوسيك قوله : إن الإيرانيين وحدهم هم الفاصل بيننا وبين الهلاك .. لهذا الغرض مد الغربيون يد العون إلى الصفويين، وصاروا بالتالى طرفاً معنيًّا بالصراع .

ويقول الدكتور أحمد الخولى : إنها الدولة التى ساعدت على أن يعرف الأوربيون طريقهم إلى الخليج بخاصة ، والشرق الأوسط بعامة، ففتحت بذلك الباب أمام عصر جديد هو عصر الاستعمار .

وقد احتلت إيران الصفوية بغداد عام ١٥٠٧م ولكن العثمانيين استردوها وسيطروا عليها مرة أخرى ١٥٣٤م . منذ أوائل القرن السادس عشر .

وقد سقطت الدولة الصفوية عام ١٧٢٢م .

وكانت العلاقة بين الصفويين والعثمانيين علاقة حرب ومفاوضات سلام ، وقد تناول هذا الموقف عدد من الباحثين وأشاروا إلى أثر قيام الدولة الصفوية فى فارس فى مواجهة الدولة العثمانية واستغلال بريطانيا للخلاف بين مذهب السنة فى تركيا ومذهب الشيعة فى إيران والعمل على تعميق هذا الخلاف ومحاولة بريطانيا إعطاء هذه الدولة القوة الخطيرة بينما لم يكن عدد الشيعة فى إيران قبل القرن الخامس عشر إلا عدداً قليلاً ، وما كان من أثر ذلك على التطورات التاريخية فى العالم الإسلامى كله حتى اليوم .

وقد شهد العالم الإسلامى فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ظهور أول دولة تقوم على المذهب الشيعى «الاثنى عشرى» أو الجعفرى . وكانت هذه الدولة هى الدولة الصفوية التى أعلنها أول مؤسس لها هو «الشاه إسماعيل الصفوى» وتنتسب الدولة الصفوية إلى الشيخ صفى الدين بيلى وهو أحد رجال الدين المتصوفين الذى اتخذ من أذربيجان مقراً له ، واستطاع حفيده إسماعيل الصفوى الاستفادة من أنصار وأتباع الطريقة ليقيم أول دولة شيعية فى التاريخ الإسلامى ، واتخذ من مدينة تبريز الإيرانية عاصمة لها فى القرن الخامس عشر ، ويرى المؤرخون أن قيام الدولة الصفوية هو الذى دفع آل عثمان إلى التحول صوب الشرق الأوسط بعد أن كانت دولتهم قد اتجهت منذ نشأتها إلى توسيع رقعة دار الإسلام فى أوربا .

* * *

سادساً : الحملة المتجددة على الدولة العثمانية :

إن ظاهرة الحملة المتجددة على الدولة العثمانية فى هذه المرحلة من تاريخنا وبعد تنامى الصحوة الإسلامية إنما هو بمثابة أحد العوامل المتسلطة لإجهاض هذه الصحوة؛ ذلك أن دعاة انتقاص هذا القطاع الخطير من حياة الإسلام وتاريخ المسلمين إنما هو محاولة لتأكيد دعاوى العنصرية والإقليمية والقومية الضيقة التى عملت ولا تزال تعمل دون التئام وحدة المسلمين مرة أخرى بعد سقوط الخلافة .

ويرجع ذلك كله إلى دور اليهود والماسون فى إسقاط الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية واستمرار موالاة هذا الأمر .

ومع أن النظرة المتحاملة على الدولة العثمانية بدأت تنحسر فإن هناك قوى لا تزال تجعل من هذا الأمر منطلقاً للدعوة العنصرية العلمانية الضالة .

وإذا أضفنا هذا الدور الذى يقوم به خلفاء المبشرين والمستشرقين فإن مناهجنا الدراسية العربية والتعليمية تقف موقفاً معارضاً للحقائق التاريخية فيما يختص بالخليفة السلطان عبد الحميد بالذات ، لأنه هو الذى كسر هجمة الصهيونية على الدولة العثمانية وتاريخها، وخاصة ما يحاولون إلصاقه بها مما يسمونه تاريخاً احتلاليًّا استعمارياً .

ولكن الدولة العثمانية التى ظلمها المؤرخون فى الغرب واقتفى آثارهم العرب تستعيد الآن بعض حقائقها بظهور هذا التيار المنصف الذى نرى على رأسه أمثال الدكتور عبد الجليل التميمى والدكتور محمد حرب عبد الحميد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . . هذا التيار المنصف التجديدى الذى بدأ يتسع ويكبر ، وهو تيار يرى أن الدولة العثمانية قامت بأفضل ما تستطيع عمله لمجابهة التيارات الغربية والحفاظ على وحدة الأمة وعلى وحدة لغتها ومقدساتها .

ومن عوامل الإنصاف وتصحيح المفاهيم أن نقول إن الدولة العثمانية تعرضت إلى هزات اقتصادية وسياسية منذ أواخر القرن الثامن عشر ودخلت القرن التاسع عشر فى صورة الرجل المريض بكل أبعاده ، وقد انعكس هذا بالتالى على البلاد العربية، وليست الدولة العثمانية مسئولة عن ذلك ولكنه الإطار العام الذى كانت الدولة تعيشه .

ولم تكن البلاد العربية مهيأة لأن تقوم بنشاط سياسى بعيداً عن الدولة العثمانية، فالجزائر سقطت ١٨٣٠م. وفى ليبيا كانت العائلة الحسينية ومحمد على فى مصر، وهناك عوامل دقيقة وخطيرة جداً هى عوامل التسرب السياسى الغربى ، وهذا التسرب هو الذى غذى النزعة القومية العرقية نوعاً ما فى الشام وأعطى أحقية التحرك الأيديولوجى السيئ ضد الدولة العثمانية كرد فعل ، ولكن المخلصين من رجال الدولة كانوا فى أواخر القرن الماضى يرون تقوية الرابطة الإسلامية ، الأمر الذى سيغذى المد الحضارى العربى الإسلامى للدولة العثمانية ويجنبها التقسيم فيما بعد .

وقد جرى تحريك النزعات القومية فى أواخر القرن ١٩ ، الذى بدأ بالنزعة القومية السوفيتية فى البلقان وكان من وراء ذلك فرنسا وانجلترا بالدرجة الأولى .

ثم جاء الدور الثانى الذى قام به اليهود الماسون فى إسقاط الخلافة وهو دور شنيع كان له أثره فى تفتيت الدولة العثمانية ، وفى كسب الأنصار لذلك ، ولقد كان السلطان عبد

الحميد أحد القلاع الأساسية الثابتة والصامدة أمام سريان توسيع النفوذ اليهودى فى المنطقة، ولأجل هذا أسقط وضرب .

لقد كان العثمانيون يعتبرون أنفسهم محملين بالرسالة وناقلين لها ، ومن يدرس موقف (محمد الفاتح) يفهم أنهم كانوا رجال مسئولية على مستوى البلاد العربية والإسلامية ، لقد قاموا بما لم تقم به أى دولة إسلامية على الإطلاق ، كان هذا قائماً منذ القرن الثامن عشر إلا أنهم بعد ذلك أصبحوا يدافعون عن أنفسهم ولم يعودوا قادرين على حماية المسلمين ، ولذلك لا يمكن لأسباب عديدة تحميل الدولة العثمانية إطلاقاً مسئولية الإضرار أو التجنى مما يقوم به أحد الولاة .

لقد بقى الحَرَمَان الشريفان محط العناية الخاصة من قبل الدولة العثمانية ، وكذلك جوانب أخرى متعلقة بالعلم وأهله فقد كان فى دمشق وحدها أربعمائة مدرسة .

وقد تكشفت أيضاً حقيقة موقف الدولة العثمانية من الوحدة ، فإنها لم تفتح الأراضى الإسلامية للغزو الاقتصادى ، وإنما قرر ذلك طبيعة التبادل، فقد كان هناك تجارة وعامل اقتصادى، فقد عملت الدولة العثمانية على تقوية التبادل الاقتصادى التجارى فى المنطقة العربية كلها .

والخلاصة أن العامل الاقتصادى لم يكن موجوداً فى عملية التوسع والفتح ، وكل تفسير مادى ، أو اقتصادى ، أو متعسف لتلك الفتوح يسىء إلى الحقيقة ويجانب الصواب .

* * *

سابعاً : فيما يتعلق بالجهاد البحرى والصراع العثمانى البرتغالى :

كذلك كشفت المؤتمرات التى عقدت خلال السنوات الماضية وآخرها ١٩٨٨ أنه بعد السيطرة على القسطنطينية تابع العثمانيون حملاتهم الإسلامية فى شرق أوربا وشرق المتوسط ، وبعد سقوط غرناطة تابع الأسبان حملاتهم المسيحية على السواحل المغربية ، وقد اضطر العثمانيون إلى التوقف بفتوحاتهم فى أوربا عند أسوار فيينا لينقلوا نشاطهم إلى مواجهة المد الأسبانى باسم المسيحية على السواحل المغربية لملاحقة المسلمين بهدف توجيه ضربة للعالم الإسلامى من الخلف عن طريق الالتفاف حول أفريقيا .

وقد نجح البرتغاليون فى الدوران حول أفريقيا حتى وصلوا إلى المحيط الهندى وبسطوا سلطانهم على الساحل الغربى للهند وجزر المحيط الهندى والخليج العربى .

وقد اشرأبت أعناق البرتغاليين إلى سواحل البحر الأحمر والتفكير فى هدم الكعبة ونبش

قبر الرسول ﷺ .

وقد سجل ذلك ابن إياس فى (بدائع الزهور) .

ولحق بالبرتغاليين فى الفترات التالية الأسبان والهولنديون والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وكلها محاولات للالتفاف حول قوة الإسلام البرية الخارقة فى الشرق الأوسط، كما أشار إلى ذلك المؤرخ الهندى بانيكار فى كتابه (آسيا والسيطرة الغربية) .

هذا بالإضافة إلى رحلات البحار الغربى (ماجلان البرتغالى) الذى قتل مسلمى الفلبين ١٥٢١م وعمل على نشر المسيحية .

وقد جهز العثمانيون حملة فى السويس أبحرت إلى عُمَان والخليج ١٥٥١م وثانية ١٥٥٤م ، وكانت هذه مسئولية الدولة العثمانية من ناحية المشرق ، أما من ناحية المغرب فقد كان لها دور فى الصراع الإسلامى المسيحى مع أسبانيا وكان لقضية الموريسكيين (بقايا المسلمين بالأندلس) أثرها فى تأجيج الصراع منذ البدء ، فقد اختنق الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة ، واضطر المضطهدون إلى الهجرة إلى سواحل المغرب فراراً بدينهم حتى كان الجلاء الأخير بقرار الطرد النهائى عام ١٠١٨ هـ ١٦٠٩م واندفعت أسبانيا وراء الفارين إلى سواحل المغرب التى كانت تعانى ضعفاً ملحوظاً .

وتمكن الأسبان من احتلال مليلة وبادس بالمغرب الأقصى وبونه أو عنابة والمرسى الكبير ووهران وبجاية بالجزائر وطرابلس وتونس وقد أصرت أسبانيا على هذا المظهر الصليبى فى ملاحقتها للمسلمين فى الأندلس والمغرب ، وظهرت الحاجة إلى قادة بحريين يمكنهم منازلة الأعداء والدفاع عن السواحل ، ومن ثم نشأت تلك القيادة البحرية الإسلامية التى أمكنها مواصلة عمليات الجهاد ضد القوى المعتدية .

وكان مركز العثمانيين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط قد تدعم إلى حد بعيد باستيلاء السلطان سليمان القانونى على جزيرة رودس ١٥٢٢م فقد كانت للعثمانيين من قبل شواطئ مصر والشام والأناضول والبلقان ، وكانت سيطرتهم على هذا الحوض الشرقى سيطرة قوية، أما تدخلهم فى الحوض الغربى فقد تم نتيجة لعدة عوامل .

ولم تكن حركة هذا الجهاد البحرى تركية أو عثمانية خالصة وإنما كانت حركة جهاد إسلامية عامة بما انضم إليها من مسلمى الأندلس المطرودين ومسلمى شمال أفريقيا .

(كتب أحمد توفيق المدنى دراسة موسعة عن حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢م) :

مصطلح القرصنة = غزاة البحر .

إن القرصان فى اللغات الأوربية هو لص البحر وهى دلالة جذرها اللغوى التسابق البحرى، وقد اشتدت الحرب البحرية أيام الأخوين عروج وخير الدين (وهى حرب يطلق عليها لفظ القرصنة فكانت فى الحقيقة من اختراعات الإفرنج لا العرب ، وحتى الكلمة لا يوجد لها مرادف فى اللغة العربية إنما استعربت فى القرن التاسع الهجرى ويسمى من تعاطاها قرصاناً وهم معروفون عند ابن خلدون بغزاة البحر) .

وقد استفحلت القرصنة فى سواحل البحر الأبيض والمحيط الأطلنطى كرد فعل لطرد الأندلسيين من مساقط رءوسهم فى الفردوس المفقود، ويستخدم الأوربيون هذا الاسم للدلالة على نشاط الجهاد البحرى الإسلامى فى حوض المتوسط .

أما الرباط فهو فرع من الجهاد ، ويعنى ملازمة الثغور فيما يلى العدو وهو أدنى صلة بموضوع الجهاد البحرى .

أما فيما يتعلق بالصراع العثمانى البرتغالى فى الخليج العربى فقد كان موقف الدولة العثمانية من الزحف البرتغالى على الخليج العربى حاسماً ، فقد عقد البرتغاليون العزم على فرض سيطرتهم على منطقتى الحجاز والبصرة، أما العثمانيون فكانوا مصممين على ردهم عن هذه المنطقة لحماية وحراسة الحرمين الشريفين والحيلولة دون وقوع طرق نقل السلع الشرقية إلى الغرب فى أيد غير إسلامية .

إن الموقف الحازم الذى وقفه العثمانيون حال دون وقوع الحجاز والبصرة فى أيدى غير المسلمين ، فبقيت تلك المناطق تحت الإشراف العثمانى ، فكان لهم التفوق فى البحر الأبيض المتوسط ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يحققوا ذلك فى بحر الهند لأن ترسانة السويس لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف وعندما لم يتمكنوا من إنشاء ترسانة أقدر فى السويس فتحوا قناة تفسح المجال أمام الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط للعبور إلى البحر الأحمر ومنه إلى بحر الهند .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد فشلت فى إبعاد البرتغاليين عن الخليج العربى والبحر الأحمر فقد نجحت أعمالهم الحربية والسياسية فى إنهاك الفرنج ماديًا ومعنويًا رغم محافظتهم على مراكزهم فى الخليج العربى ، كما عجز البرتغاليون عن منع تدفق السلع الشرقية على منافذ البحر الأبيض عبر الطريقين الغربيين . ومع إطلالة القرن السابع عشر سادت أوضاع دولية جديدة فى بحر الهند والخليج شكلت خطراً على المصالح الاقتصادية العربية ، ومثلت

بداية الاستعمار الأوربى، فقد جاء الإنجليز والهولنديون إلى الخليج وتحالفوا مع شاه فارس «عباس الأول» وقضوا على البرتغاليين وساعدوالشاه الفارسى على احتلال هرمز وصَفَّوا مواقعهم الأخرى .. كما ثَبَّت العثمانيون هيمنتهم على العراق وقسموه إلى ولايات عثمانية : منها البصرة .. كما قامت (عمان) بدور أساسى فى الإجهاز على المواقع البرتغالية فى أراضيها .

واستمرت الحكومة البريطانية منذ ١٨٨٢ تراقب الأوضاع فى المنطقة وخاصة التحركات العثمانية عن طريق حكومة الهند الشرقية الممثلة فى موظفيها فى الخليج العربى ودخلت فى مفاوضات حتى أسفرت عن توقيع اتفاقية ١٩١٣ .

* * *

ثامناً : إنصاف الدولة العثمانية :

١- لقد شكلت الدولة العثمانية منذ ظهورها خطراً متزايداً على أوربا ، وقد واجهها الأوربيون بسلسلة من الحملات الصليبية ، وذلك بعد أن أوقع العثمانيون بهم هزائم مريرة فى مواقع متعددة، وأخيراً حقق العثمانيون حلم المسلمين القديم الخاص بالاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية ١٤٥٣ .

وقد ظلت الدولة العثمانية تمثل امتداداً للدول الإسلامية السابقة ، واستمرت عدة قرون تشكل آخر الإمبراطوريات الإسلامية ، خاصة أن العثمانيين لم يندمجوا فى رعاياهم وجيرانهم الأوربيين ، وكانوا شديدى الحرص على دينهم الإسلامى وعلى التراث الإسلامى .

ثم مضى العثمانيون فى توسيع أملاكهم ، فاستولوا على كل من شبة جزيرة البلقان ورودس فى البحر المتوسط وسيطروا على جنوبى روسيا واحتلوا المجر ١٥٢٦ وحاصروا فيينا ١٥٣٩ ، ولم يكن هذا آخر حصار لهذه المدينة الواقعة فى قلب أوربا (والتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة) .

بل نزلت القوات العثمانية فى جنوب إيطاليا عدة مرات منذ أواخر عصر السلطان محمد الفاتح وكان هدف هذه الموجة الزحف على روما والقضاء على البابوية التى كانت تدعو الأوربيين إلى حمل الصليب وتدمير الدولة العثمانية وفتح الطريق نحو بيت المقدس .

(ثم سيطرت الدولة العثمانية على كل الوطن العربى باستثناء مراكش) وسدت مداخل البحر الأحمر فى وجه الحملات الصليبية البرتغالية .

٢- تصدت للوجود البرتغالى فى الخليج وفى المياه الشرقية ، وساندت مسلمى الأندلس الذين تعرضوا للاضطهاد الأسبانى ، وحررت طرابلس الغرب وتونس والجزائر من الاحتلال ، وسيطرت بعض الوقت على الملاحة فى البحر المتوسط .

٣- ساندت المذهب الذى قاده مارتن لوثر بوصفه أقرب إلى التوحيد الإسلامى من المذهب الكاثوليكى ، وأنقذته من الدمار الذى كان عرضة لأن يلحق به على يد الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى هاجمت إيطاليا وأسبانيا وأملاكها فى العالم الجديد وألمانيا والأراضى المنخفضة ، وتزعمت الجهود التى بذلت لمواجهة العثمانيين .

وهكذا قامت الدولة العثمانية بدور مهم فى تفتيت وحدة العالم الغربى الذى انشغل بالحروب الدينية والاستعمارية .

(استنجدت ملكة بريطانيا إليزابيث الأولى بالسلطان فى أواخر القرن ١٦ لكى يرسل شعبه لحماية الجزر البريطانية من الخطر الأسبانى مدعية أنها تعتنق التوحيد) .

٤- كان العثمانيون مصدر رعب بالنسبة للأوربيين الذين خشوا أن تقضى الدولة العثمانية على الدين المسيحى، لذلك دقت أجراس الكنائس فى ربوع القارة الأوربية لدى وفاة السلطان محمد الفاتح ، ثم لدى فشل حصار العثمانيين لمدينة (فيينا) أكثر من مرة .

(وقد امتزجت هذه الصورة لفترة طويلة بالتراث الأوربى الوسيط المتعلق بالإسلام والمشرق ، خاصة أن الأوربيين خالفوا ما توصلوا إليه من المعلومات عن العثمانيين بأشكال الفكر والتعبير التى ارتبطت بالإسلام فى العصور الوسطى) .

وهى أشكال ذات صبغة صليبية شديدة العداء للإسلام والمسلمين ، كذلك العثمانيون يمثلون بالنسبة إلى أوربا خطراً لا يستهان له .

(أحمد عبد الرحيم مصطفى)

٥- لا ننسى أن الدولة العثمانية :

ا - تصدت للوجود البرتغالى فى الخليج العربى .

ب - ساندت مسلمى الأندلس الذين تعرضوا للاضطهاد الأسبانى .

جـ - حررت طرابلس الغرب وتونس والجزائر من الاحتلال الأسبانى الصليبى .

د - سيطرت على الملاحة فى البحر المتوسط .

٦- ا – القول بأن دعوى الخلافة والجامعة الإسلامية إنما كانت من دعاوى السلطان عبد الحميد لأجل كسب ود المسلمين وزيادة تلاحمهم معه تعتبر دعوى ظالمة ولا أساس لها .

ب – فرض تدريس التركية فى المدارس لم يحدث إلا فى عهد الاتحاديين ، ولو أراد العثمانيون فرض لغتهم وأدبهم على العرب لفعلوا ذلك فى البلقان فقد بقوا هناك خمسة قرون (عشرين جيلاً) .

٧- تصحيح بعض الحقائق :

ا – التفريق بين سياسة الدولة وتصرفات الولاة .

ب – المفاهيم القومية لم تظهر لدى الأتراك أو العثمانيين حتى بداية القرن العشرين ، وإن الفكرة العنصرية لم تكن قائمة .

جـ – أوربا لم تنس أن العثمانيين هددوها مرتين ولذلك شوهت تاريخهم وأغرت الشعب بكراهيتهم .

د – كان للدولة العثمانية أخطاء إلا أنها دون ريب كانت قائمة على الإسلام وأن أجيالها حاربت لذلك .

هـ – كانت جهود العثمانيين منصبة على الرد على توسعات البرتغاليين وسواهم، وكانت تعمل لحماية المسلمين وكان لها بذلك نفوذ هائل فى بلاد بعيدة كالهند والمغرب .

و – حافظت الدولة العثمانية على وضع المنطقة ولم تساهم فى تقسيمها ، غير أن الضعف العام والارتباطات بالمعاهدات هى التى أرهقت كاهلها .

ز – حالت الدولة العثمانية دون وقوع الحجاز والبصرة فى أيدى غير المسلمين لتفوقها فى بحر الهند حتى انتهت مرحلة البرتغاليين وجاءت مرحلة الإنجليز والهولنديين .

ح – إن حملة مدحت باشا التى كانت مضرب المثل كذلك ليست إلا أحد الأخطاء فى تاريخ الدولة ولا تمثل سياسة عامة فيها .

ط – كان دور الدولة العثمانية فى الخليج هو إعلاء كلمة الله وتوحيد كلمة جميع المسلمين ، حيث كانت الدولة العثمانية تمثل رسمياً وفعلياً الخلافة السنية منذ أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين ١٥١٦ بعد معركة مرج دابق .

٨- كانت المؤامرة على الدولة العثمانية تهدف إلى أمرين :

إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق الإمبراطورية وتقسيمها بين دول أوربا ، وغرس هذا

العنصر الغريب (الصهيونية) فى قلب العالم الإسلامى ، وسار غلادستون على خطا البابا وحمل المصحف فى مجلس العموم البريطانى . وكان الاتحاديون هم الأداة الأولى فى تدمير الدولة حيث أدخلوها فى أتون الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وحلفائها ، وحين حلت الهزيمة بدول الوسط ومنها الدولة العثمانية عوملت معاملة استثنائية لم تطبق على باقى الدول المنهزمة بحيث سعى اليونان إلى بعث الدولة البيزنطية والقضاء على الوجود التركى فى أوربا وشبه جزيرة الأناضول .

ثم أقام الغرب النظام العلمانى بقيادة أتاتورك الذى وضع حدًّا نهائياً كى لا تكون الشريعة الإسلامية الإطار العام للدولة ، وساوى بين الرجل والمرأة وأبطل استعمال الحروف العربية ، ودعا إلى ارتداء القبعة والملابس الإفرنجية ، وكان فتح الباب أمام حرية الجماعات الأجنبية فى التعليم والولاء للغرب عاملاً من عوامل تعجيل سقوط الدولة ، وكان مصدراً من مصادر تغريبها كلية حيث أخذت تركيا بالمفاهيم الغربية فى السياسة التى قادها الاتحاديون وتلاميذ « أوجست كونت » الذى استغله الغرب للدعوة إلى الطورانية .

رجلان طعن فيهما الغرب ، لأنهما حملا لواء المقاومة لمخططات أوربا هما : محمد الفاتح، والسلطان عبد الحميد .

* * *

٩ : محمد الفاتح أول حاكم إسلامى لقبته أوربا بالسيد العظيم :

تناول الغرب السلطان محمد الفاتح بالنقد والانتقاص وذلك بسبب الحقد عليه لأنه فتح القسطنطينية . . مما أحاط سيرة هذا السلطان القائد وسمعته بهالة من الأراجيف التى تشبه إلى حد كبير ما أشاعه الشعوبيون والزنادقة حول سيرة هارون الرشيد وبقية خلفاء المسلمين .

لقد حكم السلطان محمد الثانى (الفاتح) نيفاً وثلاثين عاماً بدأها بفتح القسطنطينية وأنهاها بالمسير إلى فتح روما (١٤٥١ – ١٤٨١م) وكأنه أراد أن يحقق الحديث النبوى الشريف .

قال عمرو بن العاص : كنا عند النبى ﷺ نكتب، وسئل ﷺ أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أم رومية قال ﷺ : « مدينة هرقل تفتح أولاً » .

وقد كان سلاطين الدولة العثمانية يرون أن أقدامهم لن تستقر فى أوربا إلا إذ سيطروا

على القسـطنطينية وروما ، وكان السلطان بايزيد يـدرك أهميـة هاتين المدينتين وضرورة فتحهـما لتأمين سلامة الدولة ، فقام بحصار القسطنطينية ثم ارتـد عنها ولذلك كان أول عـمل قـام به محـمـد الثـانى بعـد وفـاة أبيـه مـراد ١٤٥١ وتوليـه الحكـم هـو حـصـار القسـطنطينية والعزم على فتحها وكان عمره ٢٢ سنة .

وقد تحقق له ذلك بعد حصار دام ٥٣ يوماً أبلى فيها المسلمون بلاءً منقطع النظير ، ودافع فيه الروم دفاع المستميت ووضع محمد الفاتح نهاية الدولة الرومانية التى كانت تسيطر على بلاد الشام وتتحكم فى مصائر الجزيرة العربية واصطدمت جيوشها مع جيوش المسلمين فى عهـد رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة وكادت فى غزوة تبوك تصطدم مع الجيش الذى كان يقوده رسول الله ﷺ .

وقد كان رسول الله ﷺ يدرك أهمية القسطنطينية فوجه اهتمام المسلمين إلى فتحها لتـثـبـيت أقـدام المسلمـين فى الجـزيرة العـربيـة وخـارجـهـا ، فـقـال ﷺ :

«لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» .

وقد توطدت بفتح القسطنطينية أقدام الدولة العثمانية فى أوربا ، حيث أخذت تطرق بابها وجنوبها الشرقى بعد أن طرق المسلمون جنوبها الغربى فى الأندلس .

لم يتوقف محمد الفاتح عند فتح القسطنطينية ولكن واصل الفتوحات فى شرق أوربا ومضى فى بناء قوة الدولة الإسلامية العثمانية ، وخاصة فى النواحى الاقتصادية والعسكرية والأخلاقية ، ووضع نصب عينيه الشاطئ الآخر من البسفور والدردنيل وضرورة العبور إلى الناحية الأخرى للقضاء على مصادر الخطر وهدم قلاع الطاغوت الأوربى .

ولا ريب فى أن محمداً الفاتح قد أنهى حقبة العصور الوسطى فى أوربا بمآسيها الدينية والدنيوية ، وأمن رواق الإسلام ليشمل معظم أوربا من ناحية الشرق فدخل فى الإسلام: المجر ويوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا – وبعض المدن الإيطالية والجزر اليونانية .

وقد لقى الله تبارك وتعالى فى التاسعة والأربعين من عمره سنة ١٤٨١ وقد احتفل منذ وقت قريب بذكرى مرور ٥٣٦ عاماً على فتح عاصمة التاج الرومى – القسطنطينية .

* * *

١٠- وثيقة السلطان عبد الحميد :

«إننى كأمانة فى ذمة التاريخ لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أننى

بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقى المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . وإن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأراضى المقدسة ، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية إنجليزية؛ فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً ، وأجبتهم بالجواب القطعى : إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فلن أقبل تكليفكم ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فكيف أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين!؟ لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعى — وبعد جوابى اتفقوا على خلعى وأبلغونى أنهم سينقلوننى إلى سيلانيك ، فقبلت التكليف ، وحمدت المولى أننى لم ألطخ وجه الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى» . (٢٢ أيلول ١٣٢٩هـ) .

وكان الذى أبلغ السلطان قرار الخلع (قره صو) عضو الحزب اليهودى الأصيل .

وكان السلطان عبد الحميد قد دعا فى مواجهة التحديات والأخطار إلى إنشاء جامعة إسلامية توحد بين المسلمين كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعبئ جهودهم للدفاع عن الخلافة الإسلامية فى وجه أعدائها من الصليبيين على وجه الخصوص ، وقد اجتمع على تأييدها أهل الفكر ورواد الإصلاح وفى طليعتهم جمال الدين الأفغانى الذى أذاع الدعوة فى أنحاء العالم الإسلامى للدفاع عن كيانه والحيلولة دون الانهيار .

وكانت النزعة الإسلامية حتى مطالع القرن العشرين تطغى على العصبية الجنسية والقومية والوطنية معاً .

ومن أجل هذا رحبت الشعوب الإسلامية بسلطات الخليفة التركى وسيادة الدولة العثمانية ونفوذ الباب العالى .

ولم يكن هناك خلاف بين المسلمين على تأييد الجامعة الإسلامية ، وإنما نشأ الخلاف فى شأن ارتباطها بالخلافة ومدى سيادتها على الحكومات الأخرى .. هذه الخلافة كان لا يرتضيها القائلون بإمامة قريش والداعون إلى استقلال العرب ، ولم يجد دعاة القومية تناقضاً بين دعوتهم وتأييد الجامعة الإسلامية ، وقد سبق مؤسس الوهابية فى الدعوة إلى رد الخلافة إلى العرب على أن تقوم على مبدأ الشورى والانتخاب والتعاون المتبادل بين الأقطار العربية .

حكم السلطان عبد الحميد أربعة وثلاثين عاماً متصلة تبدأ عام ١٨٧٦ حتى عزلته

جماعة الضباط الشبان ١٩٠٨ وبقى معزولاً حتى توفى ١٩١٨ وكانت جمعية تركيا الفتاة (الاتحاد والترقى) قد أخذت تعمل بموالاة النفوذ الأجنبى على قلب السلطان عبد الحميد حتى تحقق خلعه ١٩٠٨ وتولى الاتحاديون السلطة فى الدولة العثمانية بالولاء الغربى والصهيونى ، وكان اليهود قد أذاعوا من قبل أن الطريق إلى فلسطين لا ينفتح إلا بهدم أسوار الخلافة والقضاء على الصبغة الإسلامية للدولة العثمانية ، فاستمرت مؤامراتهم ودسائسهم ضد الخلافة عقوداً عديدة وبلغت ذروتها أيام السلطان عبد الحميد وقد حاولوا استعمال سلاح المال ، وعرضوا مبالغ مغرية لقاء السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين وقد رفض الخليفة ذلك ، فكان لابد من عزله بوسيلة أو بأخرى وكان ذلك بالطريقة التى نظمتها الصهيونية بواسطة الجمعيات الماسونية التى قامت على تنفيذها بالاشتراك مع الاتحاديين الذين كانوا قد هاجموا سياسة الجامعة الإسلامية وأيدوا سياسة تركيا الطورانية .

* * *



الباب السابع

الآن.. انتهت الحروب الصليبية



الآن انتهت الحروب الصليبية

(١)

امتد النفوذ الاستعمارى ممثلاً أولاً فى (أسبانيا والبرتغال) وفى أثرها بريطانيا وفرنسا وهولندا ، فتمت السيطرة على جزر الملايو، سيطرت عليها هولندا ١٦٠١م ، وقارة الهند التى سيطرت عليها انجلترا بعد أن أسقطت الدولة المغولية الإسلامية الكبرى التى امتدت من ١٥٢٦ إلى ١٨٥٧ ، وسقطت الهند فى براثن الاستعمار البريطانى الذى سلم مقاليدها للهندوس .

أما فى أفريقيا فقد واجهت الحملة الفرنسية ١٧٩٨ والتى هزمت خلال ثلاث سنوات جاء بعدها محمد على الذى فتح الطريق للنفوذ الفرنسى ثم جاء إسماعيل بالاستدانة كمقدمة لاحتلال بريطانيا لمصر ١٨٨٢ ثم السودان .

أما الجزائر فقد حاربت فرنسا سنوات حتى سقطت فى براثن الاستعمار الفرنسى ١٨٣٠ .

ثم جاء دور تونس التى سيطرت عليها فرنسا عن طريق الاستدانة ١٨٨١ وجاء دور المغرب ١٩١٢ .

ثم كان تفكيك الدولة العثمانية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى مما أسقط سوريا ولبنان فى يد فرنسا والعراق فى يد انجلترا وصدر وعد بلفور الذى أعطى لليهود حق إقامة وطن قومى فى فلسطين .

وهكذا تغيرت خريطة الأمة الإسلامية وتحقق للنفوذ الأجنبى السيطرة عليها ما عدا أجزاء قليلة منها حتى جاء اللورد اللنبى ١٩١٧ فوقف فى القدس بعد سيطرة بريطانيا عليها ليقول:

« الآن انتهت الحروب الصليبية » .

نعم .. الحروب الصليبية التى انتهت بهزيمة قوى الغرب ١٢٩١ وانسحابهم إلى بلادهم مدحورين .

أى أن أوربا ظلت تحمل فى أعماقها ذلك الحقد الأسود والتعصب المقيت ضد الإسلام ٦٢٦ عاماً (أى ستة قرون ونيف) حتى انتقمت بالسيطرة على بيت المقدس ١٩١٧ الذى تلقفه اليهود من بعد ، وحين سلمته لليهود الذين كانوا الجنس الغريب العازل بين أفريقيا وآسيا على النحو الذى أوصى به مؤتمر وزراء خارجية أوربا بقيادة بريطانيا عام ١٩٠٧ .

* * *

ويقرر الأستاذ محمد الفرجانى فى كتابه : (الحرب الصليبية التاسعة) :

إن الحرب الصليبية التاسعة بدأت فى مطلع القرن السابع عشر حينما جاء الهولنديون كتجار إلى أندونيسيا وما لبثوا أن ظلو فيها مستعبدين أهلها مستنزفين ثرواتها حتى تم إجلاؤهم عام ١٩٤٩ بعد سنوات مريرة من الكفاح والجهاد . وفى القرن الثامن عشر تمكن الإنجليز بالوسيلة نفسها من احتلال الهند ومن التوصل عام ١٨٥٧ إلى خلع آخر أباطرة المغول المسلمين ، وفى ذلك القرن نفسه استولت روسيا على (أزوف) و (شبه جزيرة القرم) من أملاك الدولة العثمانية ثم على (سيبريا) فى القرن التاسع عشر الذى احتل فيه الإنجليز جنوب الجزيرة العربية وساحلها الشرقى ثم مصر والسودان .

كما احتل الفرنسيون شمال أفريقيا وبعض أواسطها .

وفى مطلع القرن العشرين استولت روسيا على الولايات العثمانية المسلمة : أذربيجان وتركمانستان وأوزبكستان وقيرغزستان وقازاخستان وداغستان وما لبث الإنجليز أن احتلوا فلسطين وشرقى الأردن والعراق ، بينما احتل الفرنسيون سوريا وأخيراً توج الاستعمار الصليبى الحاقد مؤامرته ضد الإسلام والمسلمين بإلغاء الخلافة الإسلامية فى الآستانة .

وإذا كانت الحرب الصليبية التاسعة قد اتخذت هذا الطابع الاحتلالى والاستعمارى فإن ذلك لم يدم فى أكثر هذه البلاد طويلاً ، فقد قامت الحركات الإسلامية تخوض معارك التحرير الكبرى » .

ولقد ترددت كلمات كُتَّاب الغرب بما يفهم منه أن الحرب الصليبية التاسعة هى بمثابة ثأر من المسلمين ومن الدولة العثمانية . . يقول بيبرس سميث فى كتابه عن سيرة المسيح : (إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثانية أدركت المسيحية فيها غايتها) .

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى كلمات غلادستون رئيس وزراء بريطانيا (الإمبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس) وقد أمسك المصحف الشريف فى يده من فوق منبر مجلس العموم البريطانى ويقول :

(مادام هذا الكتيب باقياً فى الأرض فلا أمل لنا فى السيطرة على المسلمين بل نحن على خطر فى وجودنا نفسه) .

كان معنى هذا الكلام هو الفهم الواضح لدور المسلمين ومدى الحقد الذى يضمره الغرب (المسيحية واليهودية معاً) وأوربا والنفوذ العالمى والدلالة على مدى خطر هذه الأمة منذ وقت بعيد . وخططت هذه القوى وفى مقدمتها الصهيونية العالمية للسيطرة على هذه الأمة ووضعها بين فكى الكماشة فى معسكرين متضاربين : الرأسمالية والماركسية ، ومن خلال مفهوم العلمانية وإنكارالألوهية والنبوة والغيب واليوم الآخر والجزاء الأخروى ، ومن ذلك أغرق المجتمع الإسلامى بأدوات الانحلال وفرض النظام الربوى .

كان فهم الغرب أن عودة الإيمان بالإسلام إلى هذه الأمة بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع هو الخطر الذى يجب العمل لمقاومته .

ولقد كانت خطة الدولة الكمالية فى تدمير الوجود الإسلامى وإقامة النظام العلمانى علامة على وجهة الغرب فى التعامل مع الأمة الإسلامية بعد إسقاط الخلافة وتمزيق وحدتها .

ولكن هل تحقق ما يريد الغرب ؟ .

يقول عصمت إينونو الزعيم التركى وخليفة أتاتورك فى تصريح خطير له :

إننى لا أكاد أصدق ما أرى . . لقد بذلنا كل ما نستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الأتراك وغرس مبادئ الحضارة الغربية مكانه فإذا بنا نفاجأ بما لم نتوقعه فقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام .

* * *

(٢)

كانت الحملة الفرنسية التى قادها نابليون إلى مصر وبلاد الشام حملة استعمارية فى إبان الصراع بين فرنسا وانجلترا على اقتسام المناطق ، وكانت فاتحة الهجوم الاستعمارى على العالم الإسلامى ، وبداية حملة التغريب التى قادها الغرب بعد التخلص من نفوذ دولة الخلافة الإسلامية .

فقد حاول أن ينقل إلى مصر والمشرق مبادئ الثورة الفرنسية . . هذا فضلا عن أن نابليون كان خاضعاً لنفوذ الصهيونية العالمية كما يروى عبد الله التل فيقول : استمر استغلال اليهود للثورة الفرنسية بعد أن حطموا أسس الدولة من نواحيها الاجتماعية

والدينية والاقتصادية والثقافية وأصبحوا القوة الحقيقية التى ترهب الشعب الفرنسى تحت ستار الشعار المزيف «الحرية والمساواة والإخاء» . وحين انتهت السلطة العليا فى فرنسا إلى نابليون انتهزوا هذه الفرصة وشرعوا فى الاتصال به والإيحاء إليه عن طريق مستشاريه من اليهود وخاصة رجال الدين منهم .

وقد طلب اليهود من نابليون أن تمنحهم فرنسا الأرض التى سيقيمون عليها وطنهم وجمهوريتهم ، ومصر على وجه التحديد هى التى اتجهت إليها آمال أنبيائهم لتكون أرض عودتهم بعد تيههم الثانى .

وقالوا فى مذكرتهم «فاتجهوا بأنظاركم إلى مصر بعد خلاصها من العثمانيين» . أما الثمن الذى يقدمونه لنابليون – بعد الأموال – فهو أن يكونوا فى يده أداة تخريب واضطراب ، كما يقدمون كل الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة . وعندما رفع المشروع إلى نابليون استصوب الفكرة واستعان بعلماء اليهود لتوجيه النداء إلى اليهود للعمل على إعادة احتلال وطنهم ، وطالبوا بإعطائهم قسماً من مصر يتخذونه قاعدة للوثوب على فلسطين وأن يكونوا فى يده أداة تخريب وفوضى وتثبيت للاستعمار الفرنسى .

يقول الأستاذ أبو عدنان عبد القادر :

كان نابليون يعلم علم اليقين أن العدو اللدود والخصم العنيد الذى سيواجهه ليس جنود المماليك وإنما الإسلام : ذلك الطود الراسخ والجبل الأشم الشامخ الذى تكسرت عليه موجات الصليبيين ، وبقى الشرق شرقاً ، وكذلك فإن نابليون عندما قرر استعمار مصر بدأ بدراسة الإسلام ووصل به الأمر إلى ادعاء الإسلام وذلك فى محاولة لتملق عواطف المسلمين .

أيها المصريون : قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح ، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية أيضاً مسلمون مخلصون .

ووجد نابليون نفسه وجهاً لوجه أمام الأزهر ورجاله الذين قاموا بتنظيم الثورة التى أقضت مضاجع جيش الاحتلال الفرنسى طيلة السنوات الثلاث التى قضاها فى مصر . وقد استعمل نابليون كل وسائل الترغيب والترهيب لإغراء شيوخ الأزهر واستعمالهم ، ولما لم يفلح ثار غضبه فأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاونيتر والمورتار بأن تسدد المدافع إلى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هى مركز الثورة، وبدأ ضرب الأزهر بالقنابل وأصدر أمراً

بأن يباد كل ما فى الجامع .

وأخيراً حقق نابليون حلمه ودخل جيشه الأزهر مركز القيادة المصرية ، دخلوا وهم راكبون الخيول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع ودشتوا الكتب والمصاحب وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها (كما فعل الصهاينة عندما دخلوا المسجد الأقصى) وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن لباسه أخرجوه وهو ما فعله التتار عندما اقتحموا مساجد بغداد .

هذا هو الجيش الذى فتح لنا نافذة على العصر الحديث . كيف عامل النساء واغتصب الأموال وانتهك الحرمات وكيف أعدم الأبرياء بالجملة وبدون محاكمات .

وانطلقت قوات نابليون تنهب وتذبح العرب على طول الطريق من العريش إلى عكا ولما استولوا على مدينة (يافا) ودخلوها أعملوا السيف فى نحو ٣٠٠٠ جندى من الحامية كانوا يحاولون التسليم ، وراح الفرنسيون يقتلون الرجال والنساء والأطفال .

وفى يافا كان النهب والسلب وشق البطون وهتك الأعراض ، وتقدم قائدان من قواد نابليون إلى القلعة وأعطوا الأمان إلى الحامية التركية التى كانت بها فخرج الجنود وسلموا أسلحتهم ، وما أن رآهم نابليون حتى أمر بذبح كل الحامية المستسلمة .

وكانت تبلغ ثلاثة آلاف جندى، ضارباً عرض الحائط بالأمان الذى منح لهم باسم الشرف الفرنسى . ويبدو أن نابليون كان أشد حقداً على المغاربة الذين كانوا مع الجيش المصرى .

وكان انتقام الله تبارك وتعالى أكبر من أى قوة فقد انتشر الطاعون الذى فتك بجيشه فتكاً ذريعاً وأرغمه على الانسحاب .

لقد فشل نابليون وكان الإسلام هو العامل الأساسى فى فشله، يقول مؤرخ غربى .

(لم يَفُقْ مستعمر أوربى نابليون فى محاولاته لكسب الأهالى لصفه ، فإذا كانت جهوده قد فشلت فشلاً ذريعاً فليس العيب فى سياسته بل عيب استحالة المهمة التى كان عليه أداؤها . كان الإسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود فى الثقة المتبادلة، لقد وقع ما كان محظورا ، وتحطمت الحملة الاستعمارية على جدران الأزهر ولم يكن الأزهر إذ ذاك إلا قلعة من قلاع الإسلام الحصينة، أما قلبه النابض فكان يتمركز فى إستانبول عاصمة

الخلافة الإسلامية ومقر عزها وسيادتها ، وهكذا أدركوا أن الطريق إلى فلسطين لا ينفتح إلا من أسوار الخلافة والقضاء على الصبغة الدينية للدولة العثمانية ، فقد استمرت مؤامراتهم ودسائسهم ضد الخلافة العثمانية عقوداً عديدة وبلغت ذروتها فى أيام الخليفة الشهم عبد الحميد فقد حاولوا فى البداية استعمال سلاح المال فعرضوا عليه مبالغ مغرية لقاء سماحه لليهود بالهجرة إلى فلسطين . . لكنه رفض ، وكان ثمن رفضه هو تنحيته عن الخلافة كما اعترف بذلك هو نفسه فى وثيقة اكتشفت حديثاً وذلك بعد الثورة التى نظمتها الصهيونية بواسطة الجمعيات الماسونية وقام بتنفيذها مصطفى كمال الذى اختلفت الروايات فى أصله فمن قائل أنه من يهود الدونمة إلى زعم أنه تركى موبوء بأفكار تحررية، وكيفما كانت حقيقته ، فإن الأعمال التى قام بها تدل على أنه أعدى عدو للإسلام ، وأنه لو قدر لهرتسل وحل مكانه لما عمل أفظع وأشنع من عمله هو، ويكفيه خزياً أنه هدم الخلافة .

* * *

(٣)

سقطت كل الدعاوى التى حاولت أن تجعل للحملة الفرنسية آثاراً إيجابية حقيقية فى نهضة الأمة الإسلامية ، وتأكد أن هذه النهضة كانت قد وجدت فعلاً قبل الحملة الفرنسية، وأن الحملة الفرنسية عملت على هدمها . لقد جاءت الحملة الفرنسية على إثر الثورة الفرنسية التى حملت لواء هدم العقيدة الدينية فى الغرب وإعلاء شأن الإلحاد وتمزيق الوحدة المسيحية السياسية فى أوربا من أجل إعطاء اليهود القدرة على السيطرة وهدم نفوذ الكنيسة وإعلاء شأن العنصر والقوم بدلاً من الدين .

وقد حملت معها فكرة العلمانية التى كانت تمثل السعى إلى النهضة والتقدم عن غير طريق الدين ثم اتسع نطاق هذا المفهوم من بعد مضار جمَّة تميز فكر القوى المناهضة للدين . . أى دين .

وعلى حد تعبير الدكتور السيد أحمد فرج فى كتابه : (جذور العلمانية) : « وقد لاحظ الجبرتى بنظرته الثاقبة خطورة هذا التغيير الذى وضع الفرنسيون ركائزه مما كان له أبعد الأثر فى تحول المجتمع وتحلل القيم الأخلاقية ، فظهر السفور والاختلاط وتبعه البغاء وتبرجت المرأة المصرية المسلمة وخرجت واختلطت » .

« وقد أثر ذلك على علماء الدين الذين والى بعضهم المستعمر ، فلما خرج الفرنسيون

عـاد المماليك إلى أسـوأ مما كـانوا ، وانتـشـر الربا والاخـتـلاط بالأجـانب وغـيـر المسلمـين وموالاتهم » .

ومع هذا فـقـد كـان الجـبـرتى يؤمن بضـرورة الأخـذ بعلوم أوربا مع المحـافظة على القـيم الإسلامية وفى نطاقها .

وغلب فى هـذه الفـتـرة طابع جـبـرية التـصـوف السلبى الجـامـد ، وكـان أخطر مـا فى هذه المرحلة توقف المجتمع عن تطبيق الشريعة ، فلما جاء محمد على استفاد من هذا الجو فائدة كبـرى ، فـأوقـع بين العلمـاء وكسـبـهم إلى صفـه عندمـا حـاول (عـمر مكرم) المطالبة بالعدل للشعب، وظل يعارضه حتى عزله نهائياً وانفرد بالسلطة .

فـضـلاً عـن ذلك فـقـد سـار محـمـد علـى على طـريـق الـولاء للغـرب سيـاسـيـاً واجـتـماعياً ، وكـانت حـروبه كلها بسـلاح فرنسـى ومشورة فرنسـية وخبـراء عسكريين فرنسيين ، وكانت تحقيقاً للتخطيط الذى رسمه المستشرق الفرنسى (فولنى) الذى حفظه نابليون عن ظهر قلب قبل حملته على مصر ، إذ كان ينادى بأن السيطرة على الشرق لا تتم إلا بعد الاستيلاء على مصر والشام وتحطيم الخلافة العثمانية .

ومن هنا كـان محـمـد على امتـداداً عربيـاً لنابليـون والنفوذ الغربى ومبادئ العلمانيـة التى أرساها نابليـون وجيوشـه الفرنسيـة والتى مكن لهـا محـمـد على بعـد أن قـوض سلطة الأزهر وأضـعف نفـوذ علمـاء الدين ، حتـى الكـتب التى تـرجـمت فـى فنون شـتـى ترجـمت برغبـة الأوربيـين الذيـن أرادوا نشـر آدابهـم فى البـلاد ، وأخـطر مـا هنالك أنه أقـام نـظامـاً تعليـمـيـاً علمـانيـاً، وحـجـب امـتـداد الأزهر ونفـوذه ، وأوجـد الثنائيـة بين التـعليـم المدنى والتـعليم الإسـلامى كـمـا سيطر على أوقـاف الأزهر ، فأصبـح العلمـاء خاضـعـين منذ يومهـا للحكم والحـاكـم ، وحـرم المشـايخ من سـابق وظائفـهم التى هيـمنوا بهـا على المجتـمع وحكـم عليـهـم بالعـزلة التـامة وقـد سـيطر على هذا الاتجاه ورعـاه (رفاعـة الطهطاوى) تلمـيـذ المستـشـرق (جومار) الذى صنعه فى فرنسا على وجهة التغريب ، ولم يكن رفاعة فى وعى الجبرتى الذى كان يقظاً إلى التفرقة بين التبعية للغرب وبين الأخذ بمقدار لخدمة الأمة وترقيتها ؛ فقد استقبح الجبرتى مستحدثات الفرنسيين والتحلل من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى وتحدى العرف الإسلامى ، أما رفاعة فقد أقر التغريب جملة وقد عايش محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وأُنعم عليه بالرتب والإقطاعات وألحقوها مساحات هامة مـهـمـة ، فـقـد ترك لورثـته مـا يزيد على ألف وسـتـمائة فـدان ، وقـد اسـتـمـر هذا التـيـار قـرابة أربعين عاماً ، حيث دخلت إرساليات التبشـيـر فى عهـد سـعيـد، وبدأ نشـاط الأجـانب ،

وجاء إسماعيل بعد سعيد فألغى المحاكم الشرعية ، وفصل بذلك بين المسلمين وبين الخيط الباقى الأخير عندما أنجز قلم الترجمة برئاسة رفاعة، ترجمة القانون الفرنسى المدنى والجنائى إلى العربية ١٨٦٣م .

وقد مهد هذا كله للاحتلال البريطانى الذى وصف بأنه الحملة الصليبية الثامنة التى انتصرت بعد أن باءت الحروب الصليبية السابقة لها بالفشل ، كما تسمى الحملة التى قادها اللورد اللنبى على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى بالحملة الصليبية الأخيرة كختام لحملات الغرب المسيحى على المسلمين فى أسبانيا وفى المغرب وفى الشام ومصر .

وقد كلف الخديو إسماعيل رفاعة الطهطاوى بترجمة القانون الفرنسى الوضعى عام ١٨٦٣م للعمل به فى المحاكم بعد إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية ، ومن هنا يكون إسماعيل قد سبق مصطفى كمال أتاتورك فى إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية .

(جذور العلمانية)

* * *

وهكذا يمكن القول أن أولى علامات المقاومة للنفوذ الغربى الذى سيطر على الفكر الإسلامى قد بدأت من خلال الحركة التى قادها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، فقد أخذت فعلاً المواجهة مع رموز الفكر الغربى على النحو الذى قام به جمال الدين فى كتابه (الرد على الدهريين) ومراجعة محمد عبده لكتابات هانوتو وفرح أنطون وهى الكتابات التى كشفت عن معطيات الإسلام للحضارة الإنسانية والمقارنة بين ذلك العطاء وبين موقف الأديان الأخرى .

ولابد أن نسجل هنا موقف (على مبارك) فى كتابه (علم الدين) من حيث سلامة موقفه من الإسلام ودوره فى عطاء الحضارة الغربية وواجب المسلمين فى استعادة دورهم مرة أخرى جامعين بين علوم الدين والدنيا بوصفهما معاً (علماً إسلامياً واحداً) . أ. هـ .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن هناك إجماعاً فى كتابات المؤرخين الأوربيين على أن هناك نهضة اجتماعية فى مصر والشام قبل وصول الحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاماً .

ويشير إلى ذلك مؤلف كتاب (الجذور الإسلامية للرأسمالية : مونيه الأمريكى) بأن هناك تيارات إسلامية صاحبت هذا التغيير الاجتماعى والاقتصادى ، وهى تيارات أصولها إسلامية أنتجها مفكرون مسلمون لم يكونوا قد اطلعوا على أعمال فلاسفة العصر الأوربى بل لم يكونوا يعرفون لغة غير العربية .

- ويرى بيرجران أن حملة نابليون على مصر وفلسطين لم تكن كما قيل فى مقدمة (وصف مصر) هى المحرك الذى حفز العقلية المصرية إلى الاستنارة والبحث عن الحداثة، بل على العكس إن هذه الحملة الاستعمارية أجهضت التصور الاقتصادى والفكرى الحقيقى والأصيل والقومى فى مصر ومهدت السبيل إلى غرس فكرة استيراد واستعارة نماذج الثقافة والتحضر ومناهجها الغربية .

وقال إن مصادر هذا الفكر لا توجد إلا فى الكتب والمخطوطات المصرية الموجودة فى مكتبة الأزهر ودار الكتب .

وقد حاول الغرب أن يصورها على أنها مجرد شروح سقيمة لكتب قديمة أكثر سقماً ، بينما هى كتب فى علوم دنيوية هامة للاقتصاد والحساب والزراعة والرى والمواريث، وقد أُلِّفَت هذه الكتب مستندة إلى مصطلحات وإلى تراث علوم الحديث الشريف وعلم أصول الفقه الإسلامى .

وقد ظل طغيان الدولة الفردية (محمد على) والتضييق على النشاط الفردى حتى تدهور الاهتمام بعلم الحديث وما صاحبه من علوم التاريخ والمنطق والأدب وفقه اللغة ، وزاد الاهتمام بعلم الكلام الذى يستخدم عادة لتبرير الواقع القائم ووضع العقول فى أقفاص المجردات» .

كل هذه النصوص الغربية المجردة تكشف حقيقة النهضة الإسلامية التى انبعثت قبل الحملة الفرنسية والتى جاءت الحملة الفرنسية لهدمها .

* * *

(٤)

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : دخلت دار الإسلام سنَةٌ من النوم أورثتها نشوة النصر المؤزر بعد فتح القسطنطينية ، بينما أورثت أوربا عزيمة حاسمة لترد عن حوضها العار ، فإذا دار الإسلام محصورة فى الجنوب بعد أن كانت حاصرة للمسيحية الشمالية فى الشمال الأوربى . وشيئاً فشيئاً فقدت دار الخلافة فى القسطنطينية هيبتها وسيطرتها . وإن الذين أيقظوا المسلمين قبل الحملة الفرنسية بوقت طويل خمسة :

١ - البغدادى - ١٦٨٣ رد على الأمة قدرتها على تذوق اللغة والأدب وعلوم العربية .

٢ - الجبرتى الكبير - ١٧٧٤م .

ولى وجهه شطر علوم الهندسة والكيمياء والفلك إلى جانب الصنائع الحضارية ، وصار بيته زاخراً بكل أداة فى صناعة، وحضر إليه الطلاب من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ١١٥٩هـ وذهبوا إلى بلادهم ونشروا العلم فى ذلك الوقت ، واستخرجوا منه الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجَرّ الأثقال .

٣ – ابن عبد الوهاب – ١٧٩٢ مكافحة البدع والعقائد المخالفة .

٤ – الزبيدى – ١٧٩٨ بعث التراث اللغوى والدينى .

٥ – الشوكانى – ١٨٣٤ رفض التقليد فى الدين .

أما القول بأن بداية هذه النقطة كانت مع الحملة الفرنسية على مصر فهو أمر غير جائز ؛ إذ كيف يصنع لقاء المصريين بالفرنسيين الذى لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات تغييراً جوهرياً فى بيئة المجتمع؟ .

كذلك فإن دعوى بداية النهضة مع حكم محمد على مرفوضة أيضاً إذ إن القائم بها ليس عربياً أو مصرياً فضلاً عن أنه لم يتعلم .

لقد كانت جهود محمد على ضمن مخطط أجنبى لا يسمح لها بالتنفيذ إلا فى حدود .

ولقد كان الشمال المسيحى الأوربى قد هب هبة الفزع لهذه اليقظة العربية ، فبدأوا يقلبون النظر فيما لو تمت، فسوف تكون خطراً عليهم . ومن هنا كان العمل السريع والمحكم واستغلال العقلية المحيطة بهذه اليقظة ومعالجتها فى مهدها قبل أن يتم تمامها» .

ومن هنا كان تدمير الأزهر هو الهدف الأول للحملة الفرنسية للقضاء على مصادر هذه النهضة التى تتمثل فى ذلك الجيل الذى تربى على مفاهيم الجبرتى والزبيدى وغيرهما .

ومن هنا كان تأكيد محمد على على ضرب الحركة الوهابية فى حرب دامت ثمانى سنوات قتل فيها الآلاف من المسلمين .

وكانت فكرة الثورات العلمية نتيجة ثانية لتأثير هؤلاء القناصل والمستشرقين بناء على تخطيط وتدبير لأهداف بعيدة المدى ، منها جعل محمد على قوة لها فى قلب دار الإسلام تصرفه كيف تشاء وتقضى عليه يوم تحتاج .

وقد تم مشروع محمد على فى البعثات العلمية تحت إشراف المستشرق جومار وتوالت البعثات من الشباب ليضعهم جومار تحت أيدى المستشرقين يوجهونهم ويعلمونهم .

وكان رفاعة الطهطاوى بمثابة صيد سمين ليبقى فى باريس ثلاث سنوات يعود بعدها

حاملاً ريادة النهضة الحديثة .

* * *

ويجب أن يكون معروفاً أن هذه النهضة جاءت عشية الحروب الصليبية وغزو التتار ثم انحسار السلطان العثمانى ، وهكذا شاركت مصر والجزيرة العربية (العوينات – اليمن) فى هذه الصحوة التى جاءت الحملة الفرنسية للقضاء عليها وتفريغها من أهدافها .

وكانت ظاهرة تجديد التراث الإسلامى وإحيائه وإعادة بعثه سُنَّة طبيعية بعد حملات الغزو الصليبى والتترى وفقدان المسلمين لعدد ضخم من تراثهم خلال الحملات التى جرفته وأغرقته فى نهر دجلة فى مرحلة تسبق مرحلة سرقته وجمعه وتصديره إلى أوربا بعد وصول القناصل الأوربيين وسيطرتهم على بلاد المسلمين .

وكان لويس الرابع عشر في فرنسا قد أرسل رسالة إلى جميع قناصله فى مختلف بلدان الإسلام عام ١٦٧١ لشراء المخطوطات ، وأنفذ مبعوثيه إلى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية .

* * *

ملاحق البحث

أولاً : مرحلة النفوذ الأجنبى :

كان انهيار الحكم الإسلامى بدخول النفوذ الأجنبى إلى الأمة الإسلامية عاملاً خطيراً من عوامل احتواء المسلمين فى مناهج الغرب وحجب الشريعة الإسلامية على نحو مكن القوى الغازية من السيطرة على بلاد الإسلام هذه المرة لأمد أطول ، حتى تدمر مصادر القوة التى يقدمها الإسلام لأهله لمواجهة الغزو الخارجي ، وهذا هو ما يتمثل فى احتواء الإسلام وتدمير معالمه الأساسية عن طريق التبشير والاستشراق والغزو الثقافى .

ولقد أسرع النفوذ الأجنبى حين استولى على الأقطار الإسلامية بإسقاط المجاهدين الوطنيين الأصلاء الذين قادوا المقاومة العسكرية ضده ، وحملوا لواء قتاله وهزيمته .

ولقد قاوم الاستعمار فى ميدان القتال عديد من أعلام المجاهدين المسلمين أمثال محمد ابن عرفان فى الهند وعبد القادر الجزائرى فى الجزائر وعبد الكريم الخطابى فى المغرب والمهدى فى السودان وعمر المختار فى طرابلس الغرب وأحمد عرابى فى مصر كما قاومه فى مناطق أخرى بالكلمة كثيرون منهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش فى مصر ، وعبد العزيز الثعالبى فى تونس ، وعبد الحميد باديس فى الجزائر ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده .

وقد كان النفوذ الأجنبى حريصاً على تكوين العاملين معه ليقدمهم فى مجال القيادة والسيطرة السياسية بعد أن يقضى على المجاهدين الأحرار ، وقد أفلح فى ذلك واستقطب مجموعة كبيرة من أوليائه على النحو الذى فعله كرومر فى مصر خلال فترة حكمه التى امتدت خمسة وعشرين عاماً؛ قدم فيها لطفى السيد فى مجال الصحافة ، وسعد زغلول فى مجال التعليم ، وعبد العزيز فهمى فى مجال القانون وغيرهم كثيرون .

كما أن النفوذ الأجنبى فرض النظام الديمقراطى الغربى والقانون الوضعى ففتح فى البلاد الإسلامية ثغرات تبيح الربا والزنا والخمر فواجه المجتمع المسلم أزمة كبرى حطمت كثيراً من الأسر وخلخلت نظام الزوجية .

وكان للنفوذ الأجنبى فى كل قطر عربى وإسلامى نظام مختلف ، وذلك حتى لا تتوحد هذه الأقطار، وفرض عليها وضع تاريخ إقليمى ضيق منفصل وذلك حتى تتلاشى فكرة الوحدة الإسلامية .

وأعلى من شأن الوطنيات والإقليميات وجدد الدعوات القديمة السابقة للإسلام فى

أغلب بلاد الإسلام ، فظهرت الفرعونية والبابلية والفينيقية والزنجية والبربرية ، وحاول أن يجعل لهذه الدعوات المنهارة لغة وتاريخاً وثقافة للقضاء على الإسلام ووحدته .

وخضعت الأقطار التى احتلتها وثقافتها ، فاستغلت الثقافة الفرنسية فى الجزائر وتونس والمغرب ، والإنجليزية فى مصر والسودان والعراق ، واتسع نطاق اللغتين الفرنسية والإنجليزية بحيث حجبتا اللغة العربية فى التعليم والثقافة .

وفى كل قطر إسلامى عمد النفوذ الأجنبى إلى حجب اللغة العربية – لغة القرآن – وإعلاء لغتَهُ وإعلاء العاميات، وذلك ضمن خطة الحرب للإسلام .

ومع أن التجربة الغربية التى امتدت أكثر من قرن ونصف فى بلاد الإسلام قد أثبتت فشلها وعجــزت عن العطاء فإن قيود التعامل الاقتصادى والسياسى مع الغرب ما زالت تفرض النظام الربوى والسيطرة الثقافية والقانون الوضعى فى محاولة لاحتواء المجتمعات الإسلامية ، وبذلك تركزت العلمانية فى أرض الإسلام .

ولقد اقتحمت التجربة الماركسية بعض البلاد الإسلامية وكشفت عن فشلها وعجزها ، وبقيت مقدرات الأمة الإسلامية كلها فى يد النفوذ الغربى وفى مقدمتها البترول .. فضلاً عن الفوائض المالية المودعة الآن فى مصارف الغرب .

وفى خلال هذه المرحلة ظهرت مخططات الانقلابات العسكرية فى البلاد العربية والإسلامية فحملت معها نظام السيطرة الفردية والولاء الماركسى ، وكانت فى أغلبها خادمة للنفوذ الأجنبى وعلى ولاء مع الصهيونية ولم تكن قادرة على مواجهة النفوذ الصهيونى ، بل وجهت شعوبها للعمل الداخلى حتى يقضى على خطة مقاومة الاستعمار الوافد .

ولما ظهرت اليقظة الإسلامية وعملت على تصحيح المفاهيم والعودة إلى المنابع ضربتها الأنظمة العسكرية ونشأت أحزاب معارضة تعاونت مع القوى الكبرى والصهيونية .

وقد بدأت أعمال كثيرة فى إطار الإسلام غير أن النفوذ الغربى استطاع احتواءها (فتح – تحرير الجزائر – العاشر من رمضان) ، وما زالت مرحلة النفوذ الأجنبى ممتدة .

* * *

ثانياً : الحملة الفرنسية :

(١)

بعد سيطرة المسلمين على القسطنطينية بدأ الغرب يوسع دائرة مؤامراته على أرض

الإسلام فى مخطط جديد خطير ، وكان المسلمون قد بدأوا نهضة جديدة نحو إحياء الإسلام فى مفهومه الصحيح ، وإحياء اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة القرآن .

وكانت وراء الغرب تجربة الحروب الصليبية التى انتهت بهزيمتهم فكان لابد من مخطط جديد ، وكان ذلك هو تطويق عالم الإسلام من خارجه : من الهند وأندونسيا .

وكان الغرب يهدف إلى عدة أمور :

أولاً : تحطيم هذه النهضة الجديدة باحتوائها .

ثانياً : السيطرة على التراث الفكرى الإسلامى كله وجلبه إلى الغرب .

ثالثاً : ضرب مقومات الإسلام بإشاعة الشبهات حول القرآن والسنة واللغة العربية والتاريخ .

ومن هنا كانت حملة نابليون أولاً على مصر والسيطرة الفكرية عليها ثم توجيه محمد على إلى هدم دعوة التوحيد فى قلب الجزيرة .

وكانوا قد أرسلوا أتباعهم يدرسون سواحل الجزيرة العربية الشرقية ، ولم يمر أكثر من أربعة قرون على فتح القسطنطينية حتى كانت رسالة التحريض التى كتبها الفيلسوف (ليبنتر ١٦٧٢ - المتوفى ١٧١٦م) إلى بلاط لويس الرابع عشر يحرضه على السيطرة على مصر .

«إنكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها على بلاد المشرق أى دار الإسلام إلى ما شاء الله وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهنالك لا تخسرون عطف أوربا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم» .

وقد ظل تقرير لينتز منبهاً لساسة فرنسا إلى غزو دار الإسلام فى مصر حتى جاء نابليون .

* * *

(٢)

وقد جاء نابليون بالحملة الفرنسية إلى مصر لتحقيق عدد من الأغراض :

الأول : جاء انتقاماً لهزيمة لويس التاسع فى المنصورة ، وكان حرصه الشديد على تصفية الشباب المسلم المثقف من طلبة الأزهر إيماناً بمبدأ القضاء على اليقظة الإسلامية التى ابتعثها علماء المسلمين من أمثال الجبرتى الكبير ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والشوكانى ، والبغدادى ، والزبيدى .

وقد جاء الفرنسيون لينتقموا لهزيمة مر عليها خمسة قرون ، ولذلك كان الهدف الأساسى إدخال الخيل الأزهر وتعطيله .

الثـانى : أن ما ادعاه علماء الثورة الفرنسية من دعاوى هى ملتقطات جمعوها لتؤيد وجهة نظرهم ، وانتقوها من كتابات الجبرتى ، بينما تجاهلوا عدداً من الحقائق التى أشار إليها، وكشف بها عن حقدهم وكراهيتهم للإسلام .

فقد كتب الجبرتى عن الحملة الفرنسية ما يزيد على الألفى صفحة حولها العلماء الفرنسيون إلى مائتى صفحة بتحريف واضح ليستنتجوا منها بعض الأكاذيب فقد تحدث الجبرتى عن النهب الفرنسى والسلب والحرق والاغتصاب مما أغفله الفرنسيون .

والحقيقة أن قومنا عرفوا الحرية قبل وصول الحملة الفرنسية بكثير ، فقد علمها لهم الإسلام وقد كتبوا مع الأمراء وثيقة حقوق الإنسان قبل أن تعرفها أوربا، وآية ذلك أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام الغزو الفرنسى بل قاوموه مقاومة شديدة ، ورفض علماؤهم طيلسان نابليون وداسوه بالأقدام ولم يكن شعبنا المسلم فى حاجة إلى من يعلمه الوطنية والحرية التى تكشف عنها مواقفه المشرفة ضد لويس التاسع والتتار والصليبيين من صفحات فخار شاهدة على ذلك ، وقد تأكد لنابليون منذ اليوم الأول شدة مراس علماء المسلمين وأيقن بالهزيمة ثم لم يلبث أن أعلن عجزه فهرب سراً وترك جنده يتصرفون .

الثـالث : كان من أكبر أهدافهم الحصول على التراث الإسلامى وقد حملوا معهم منه كميات ضخمة ، بل إن وثيقة الصلح التى وقعت معهم سمحت لهم بأن يأخذوا كل ما نهبوه من التراث الإسلامى وقد بلغ قدراً كبيراً ، وكان له أثره الخطير على نهضة الغرب .

وكان أكبر همهم السطو على كتب وعلوم الحضارة ، وكتب التاريخ والأدب كلها بلا تمييز .

وكانت النهضة قد بدأت فى ركاب الجبرتى الكبير ، والبغدادى والزبيدى ، وكان هدف الحملة وأد هذه النهضة فى شخص طلاب الأزهر النوابغ – الذين كانوا يقتلون يومياً – وسرقة الكتب النفيسة – حيث كان يقتل فى كل يوم خمسة أو ستة ويأمرون بأن يطاف برءوسهم فى شوارع القاهرة ، ولقد كان هؤلاء الطلاب الأزهريون من النابهين ، وكانوا من المحرضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام .

بل لقد كشفت الوثائق مؤامرة الفرنسيين فى محاولة إنشاء حزب لهم فى مصر يجمع

خمسمائة شاب وينقلهم إلى فرنسا لتجنيدهم حيث يلقنون كيف يحتقرون بلادهم ، ودينهم . فضلاً عن دعوته إلى استقدام جوقة تمثيلية قال بالنص : إنها ضرورة للبدء فى تغيير تقاليد البلاد .

ولقد ثبت المصريون لهذه الحملة حتى خرجت تجر أذيال الخزى والعار ولم تحقق أهدافها فقد كان المصريون يقولون : إن الفرنسيين ليسوا إلا ورثة الفرنجة الذين هزموا فى المنصورة ، فلم يخلفوا إلا مزيداً من الكراهية للنفوذ الأجنبى .

* * *

ولقد قضى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر على أكبر قوة مقاتلة فى دار الإسلام بعد قوة دار الخلافة ، وكان يطمع فى أن يبقى فى مصر إلى الأبد وقد مضى يخرب القرى وينهبها ويبيد أهلها .

وكان قد أحضر معه جماعة من المستشرقين والمبشرين الفرنسيين المتعصبين الحاقدين على الإسلام ليضعوا خطوط احتواء مصر والسيطرة عليها وتغريبها .

وقد كشف نابليون فى رسالة إلى خلفه (مينو) ما يوحى بالهدف الذى كان يطمع فى تحقيقه وهو إرسال شباب مسلم إلى فرنسا ليكون ركيزة النفوذ الفرنسى فى مصر بعد عودته مما يغير تقاليد البلاد .

وإذا كان ذلك كذلك فإن دعاوى خصوم الإسلام بأن الحملة الفرنسية كانت عامل نهضة وتقدم وتجديد هو قول باطل وزائف .. بل هى التى فتحت الباب واسعاً أمام الغزو الفكرى واحتواء اليقظة الإسلامية والقضاء على نفوذ الأزهر الذى كان يحمل لواء هذه اليقظة ، وهو ما حدث بعد ذلك فى عصر محمد على الذى كان امتداداً للنفوذ الغربى والفرنسى بالذات من حيث تحقيق كل الأهداف التى جاء من أجلها .

فقد عمل محمد على على تفريق كلمة علماء الإسلام ، وأوقع بينهم الخلاف ، وأغراهم بالمغريات حتى أصبحت الدنيا أكبر همهم ، وعمل على تجميد الأزهر بإنشاء المدارس المدنية المنفصلة فى منهجها عن الإسلام والتى تستمد مفاهيمها من الكتب الغربية العلمانية والتى تجرى فى الوقت نفسه مع الاتجاه الإقليمى المنفصل عن الوحدة الإسلامية الجامعة التى تمثلها دولة الخلافة .

بل لقد حقق محمد على هدف نابليون فى استقدام المصريين فى بعثات إلى فرنسا

ممن لم يكونوا قد تحصنوا بالمحاذير مخافة احتواء الاستشـراق لهم فى أوربا .

* * *

(٣)

وهكذا فقد حمل علماء نابليون معهم إلى الشرق فكر الثورة الفرنسية التى كانت قد انطلقت أساساً من نقطة إنكار الدين جملة ، وهو الفكر الذى بلَّد عقلية أوربا كلها فى القرنين ١٧ ، ١٨ والقائم على تأسيس مبدأ دنيوى خالص تحت اسم التنوير (التى لم يكن لها تفسير إلا بالإلحاد) .

جاء نابليون إلى العالم الإسلامى يحمل مبدأ التقدم فى صورة التبعية للمادية الغربية ، وجاء محمد على امتداداً لنابليون فقد احتضن مبادئ العلمانية التى أرساها نابليون ، ومكن لها بعد أن قوض سلطة الأزهر وعزل عمر مكرم ونفاه ، وأضعف نفوذ العلماء بعد أن سيطر عليهم بالعطايا . وكانت حروب محمد على فى مواجهة حركة التوحيد (التى قادها الشيخ محمد عبد الوهاب) تحقيقاً للتخطيط الذى رسمه المستشرق الفرنسى الكونت فولتى والذى كان ينادى بأن السيطرة فى الشرق لا تتم إلا بعد الاستيلاء على مصر والشام وتحطيم الخلافة العثمانية .

(بتصرف عن بحث محمود محمد محمد شاكر)

وفى ظل نظام محمد على نشأ التغريب على يد رفاعة الطهطاوى .

يقول محمود محمد شاكر : إنه كان صيداً سميناً تلقفه المسيو جومار بخبرته وحنكته وحين أسلمه لطائفة من المستشرقين على رأسهم أحد دهاقين الاستشراق الكبار وهو : سلفسترديساسى . وقد استغلوه أبرع استغلال وصبوا فى أذنيه وطرحوا فى قرارة قلبه معانى وأفكاراً قد بيتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها .

فأحدث رفاعة صدعاً مبيناً فى ثقافة الأمة وقسمها إلى شطرين : الأزهر فى ناحية ، ومدرسة الألسن فى ناحية .

(أنشأ مدرسة الألسن التى تدرس فيها آداب اللغات الأجنبية والشرائع الأجنبية وكانت تضم ١٥٠ تلميذاً كان رفاعة يختارهم من مدارس الأرياف والأقاليم ومن طلبة الأزهر) .

وكذلك حقق رفاعة للمستشرقين أهم ما يتوقون إليه من وأد اليقظة التى كان الأزهر مركزها منذ عهد البغدادى والزبيدى والجبرتى الكبير ، وذلك فى وقت كان محمد على

يحطم أجنحة الأهر ويضعه فى قفص لا يستطيع الإفلات منه ، ويدبر له مكيدة لإسقاط هيبته ويعزل أهله عن جمهور الأمة .

ومن ثم تعاظم دور رفاعة الطهطاوى وصار الأزهر يرسف فى أصفاده لا يدخله إلا أبناء الفقراء والمساكين ونازعه تعليم الأمة فى المدارس الجديدة التى وضع أساسها رفاعة الطهطاوى فى مدرسة الألسن .

وانشطر تعليم الأمة شطرين ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستوردين وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسع والمناهج تتباين .

وكان هذا هو نص مشروع نابليون الذى عهد به إلى خلفه وطوره جومار وتم بذلك البلاء الماحق .

وكان الهدف واضحاً :

القضاء على الأزهر ، القضاء على الوهابية ، إرسال البعثات إلى أوربا ، تكوين حزب للفرنسيين فى مصر وهو ما تحقق وما زال مستمراً إلى اليوم .

الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية :

فى اللحظة الأولى لمقدم الحملة الفرنسية إلى مصر وضح أنها استهدفت ضرب الخلافة العثمانية كدولة كانت تمثل فى ذلك الوقت سداً منيعاً فى وجه المد الأوربى ، حيث امتدت من البلقان إلى روسيا الصغرى إلى سواحل الشام إلى سواحل الشمال الأفريقى وحتى حدود أسبانيا فى شبه حلقة تحيط بدول أوربا من الشرق والجنوب .

لقد توخت الحملة أهدافاً لم تكن معروفة فى تاريخ الحروب حتى ذلك الوقت ، فهى لم تقصد تحطيم القوة العسكرية المعادية أو اكتساب أرض جديدة فحسب ، وإنما استهدفت تغيير الواقع السياسى والاجتماعى القائم فى ظل الخلافة العثمانية بحصر ما كان يمثله من أعراف وتقاليد وقيم وزعامات ، وإحلال واقع سياسى واجتماعى جديد ، ولذلك صحبت الحملة معها مجموعة من المستشرقين والمبشرين تحت اسم العلماء ، وكذلك مجموعة من الفنانين الذين بلغ عددهم ١٤٦ عضواً مجهزين بأحدث آلات المطابع وغيرها، كما حملت طائفة كبيرة من – النساء كان لها أثرها فى خلق القدوة وتجسيد المثل . وفتح باب التقليد أمام النساء فى مصر – للتحول تجاه أسلوب الحياة الغربية . وقد أشار الجبرتى إلى الأثر الذى أحدثته النساء المصاحبات للحملة من تغيير بعض العادات والتقاليد بصورة خطيرة ، وهو ما يدل على طبيعة الحملة من حيث أنها غزوة فكرية .

إن الحملة قد اتجهت منذ اللحظة الأولى للغزو إلى ضرب المماليك كأفراد وكنظام ، باعتبارهم يمثلون واجهة حكم الخلافة فى المجال الإدارى والعسكرى . ومن هنا كان منشور نابليون الذى طبعه على ظهر السفينة (أوربان) طافحاً بالحقد على المماليك ، فكال لهم شتى التهم متخذاً منهم واجهة للعداء والسبب الظاهر للحملة .

ولأن المماليك كانوا القوة المؤثرة الوحيدة التى استمرت على الساحة طوال ثلاث سنوات – هى عمر الحملة – تقود أعمال المقاومة لجيش الغزو فقد استحقوا منا الرد على الافتراءات المنصبة عليهم بادعاء أنهم طبقة مكروهة من الشعب ، وكانوا قد استخدموا حرب العصابات فى مقاومة الحملة وتفتيت قوات نابليون .

* * *

ثالثاً : السيطرة على العالم الإسلامى

١ – يقول ونستون تشرشل فى كتابه «حرب النهر» :

«لقد عرفنا مدى اهتمام المسلمين بكتابهم القرآن ، ولذلك فإن علينا العمل على تغيير ذلك باحتضان أمثال علام الدين القاديانى ودعوته إلى إلغاء الجهاد» .

٢ – ثورة المسلمين الهنود :

لما قام المسلمون الهنود بثورتهم الكبرى ضد شركة الهند الشرقية ١٨٥٧م انتهت الثورة باستئصال الحكم المغولى والقضاء على الحكومة الإسلامية واستيلاء الإنجليز على البلاد .

وكان من أول أعمالهم محاربة الإسلام والمسلمين فقتلوا الألوف من خيرة علماء المسلمين المجاهدين ، وقاومهم الشيخ «رحمة الله» ، ولما انهزم المجاهدون المسلمون فر الشيخ «رحمة الله» إلى مكة المكرمة .

وقد عمد الإنجليز فى الهند إلى تسليم الأرض إلى الهنادك الذين اتجهوا بدورهم إلى الانتقام من المسلمين تحت شعار تكوين حزب المؤتمر بإشغال جمعية وطنية حيث بدأ الهنادك فى نشر مطبوعاتهم التى تحمل أفكاراً معادية للإسلام ، وكانت فكرة حزب المؤتمر قائمة أصلاً على إحياء العقيدة والثقافة الهندوكية ولم يتنبه المسلمون إلى هذه الحقيقة .

٣ – معاهدة سيفر بتاريخ ١٠ / ٨ / ١٩٢٠ التى عقدت بين الحلفاء وتركيا :

١ – أن يعهد بإدارة فلسطين عملاً بالمادة ١٢ من ميثاق عصبة الأمم إلى دولة منتدبة .

٢ – أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذ وعد بلفور الذى صدر من الحكومة

البريطانية فى ١٢ / ١١ / ١٩١٧ وأقرته دول الحلفاء فيما بعد .

٤ – الأمير عبد القادر الجزائرى :

حارب الفرنسيين سبعة عشر عاماً وخانه جيرانه ، فقد أرسل باى تونس ابنيه تحت سلطة فرنسا لمساعدة فرنسا . . أما السلطان عبد الحميد سلطان المغرب الأقصى فقد كان لفرنسا المساعد الأول إذ بعث بابنيه على رأس الجيش المغربى لمحاربة الأمير عبد القادر وكان ذلك بمثابة الضربة القاضية التى اضطرت الأمير إلى أن يستسلم لفرنسا ويسلم سلاحه إذ وجد نفسه محصوراً من جهات خمس متواطئة عليه :

١ – خونة عين ماضى فى الجزائر .

٢ – سلطان المغرب .

٣ – باى تونس .

٤ – علماء المسلمين من بلدان شتى الذين أرسلوا بفتاويهم ضده .

٥ – وفرنسا نفسها . .

كل هذا أثر فى نفسية الأمير عبد القادر حتى يئس وقنط .

وكان الأمير مسانداً من المغرب فى الأول ولكن عندما ضغطت فرنسا على السلطان عبد الرحمن كلف ابنه (عبد الحميد) بمضايقة الأمير وهما اللذان طرداه من المغرب ، وهكذا نجد أن عبد القادر الذى قاد الكفاح وهو فى الواحدة والعشرين وأقام فى قيادة المعارك طيلة خمس عشرة سنة اضطر إلى الاستسلام فأسلم سيفه وبقى فى فرنسا حتى أرسل إلى دمشق .

(مولود قاسم)

* * *

الباب الثامن

سقوط القدس في أيدي الصهيونية

الأحداث الكبرى

المؤامرة على الخلافة الإسلامية ٦٩٠هـ - ١٢٩٠م



سقوط القدس فى أيدى الصهيونية

(١)

كان احتلال بيت المقدس مطمحاً غالياً من مطامح الصهيونية العالمية بهدف تحقيق نبوءة إعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى . ومنذ اليوم الأول لوعد بلفور ١٩١٧م وعندما سيطر اليهود على أجزاء من فلسطين ١٩٤٧ كان حلم احتلال القدس قائماً حتى تحقق إلى حين فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .

وقد تشكلت هذه الفكرة أساساً منذ كان اليهود محاصرين فى منفى بابل كردٍ فعل نفسى للهزيمة الساحقة التى دمرت وجودهم كله نتيجة ظلمهم وخروجهم على الشريعة .

وقد تطلع اليهود إلى الانقضاض على فلسطين وإخراج أهلها بالقوة بعد إقامتهم فى وطنهم منذ آلاف السنين وقد تبين أن الصهيونية حركة عنصرية قامت على دعاوى وأساطير مستمدة من تراث قديم شهد عليه المؤرخون فى مختلف الفترات بالزيف والخداع.

يقول الدكتور أحمد سوسه فى كتابه :

(إن من أهم الأكاذيب العلمية التى أوضحتها الاكتشافات توصل الخبراء إلى أن الكثير مما أوردته التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثاله أو ما يشابهه فى المدونات الأثرية ، وأن شرائع التوراة هى نفسها الشرائع التى كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل ، وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها فى كتبهم المقدسة . وقال : إن التوراة الحالية كتبها اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد أى بعد عصر موسى بثمانية قرون .

وقال الأستاذ فارس الخورى فى دفاعه عن فلسطين العربية الإسلامية فى هيئة الأمم: إنه لابد من قراءة العهد القديم ودراسة ما أدخله اليهود من تزييف لمصلحتهم إن أردنا أن يكون هناك مدخل طبيعى لمسيحيي العالم ، فكل ما هنالك من قصص أدخلها اليهود على مدى التاريخ .

ومن النقاط الجديرة بالبحث :

– دعوى أن إبراهيم وإسماعيل لم يذهبا إلى جزيرة العرب وأن إبراهيم كان يعتمد على ابنه إسحق دون إسماعيل بدعوى أن إسماعيل ابن جارية .

كان طموح اليهود إلى إعادة بناء الهيكل مقدمة لإقامة حكومة عالمية فى القدس (أورشليم) . وقد رتبوا فى سبيل تحقيق ذلك خططاً جريئة ترمى إلى القضاء على كل القوميات والأوطان والأديان ، وإثارة الخلافات بين أهل الدين الواحد (ماعدا اليهود) والسيطرة على الصحافة والحكم والمدرسة ، والاستعانة بالأقليات المتناثرة فى العالم وخاصة تلك المتناثرة فى العالم الإسلامى لتحقيق الهدف وإسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق المسيحية، واحتواء الإسلام والمسيحية حتى يصبح العالم كله عبداً للصهيونية ، والعمل على استخدام إحدى القوى العالمية لخدمة هذا الهدف .. هذا ما أطلق عليه بروتوكولات صهيون .

(وقد كانت بريطانيا هى التى أصدرت وعد بلفور وساعدت على تقسيم فلسطين ، ثم تحولت الولاية الآن للولايات المتحدة) .

* * *

ويرى الباحثون أن إسرائيل لم تولد فى وعد بلفور ١٩١٧ ، ولم تولد فى المشروع الصهيونى ، ولكنها ولدت قبل ذلك فى المشروع الاستعمارى الأوربى الكبير الذى ظهر خلال المؤامرة على الدولة العثمانية .

فعندما انتقلت أوربا إلى شرقى البحر الأبيض وقناة السويس كانت كل دولة أوربية قوية تبحث عن أقلية دينية فى الشرق تنتزع حمايتها أو تفرضها لتبرير نفوذها فى الشرق .

فروسيا العنصرية ادعت أنها حامية الطائفة الأرثوذكسية لأنها ابنة هذه الكنيسة، وفرنسا ادعت أنها ابنة الكنيسة الكاثوليكية ، وقد بحثت عن الطائفة المارونية الكاثوليكية فى لبنان ، ووجدت انجلترا ضالتها فى الطائفة اليهودية .

وقد كتب لامرتين فى كتابه « رحلة الشرق » : إن على الغرب قبل أن يضع أقدامه فى الشرق أن يفكر فى انتقاء أقلية تكون قريبة من أفكاره ومبادئه حتى يعتمد عليها ، حتى يحين الوقت ليغادر الشرق ، وحتى تبقى هذه الأقلية مخلصة لمبادئه وتظل جسراً ثابتاً لأفكاره .

ومعنى هذا أن نعود إلى ما قبل وعد بلفور والمؤتمر الصهيونى فى بال ١٨٩٧ فقد ولدالمشروع الصهيونى على يد بالمرستون ودرزائيلى من ساسة بريطانيا قبل أن يتسلمه هرتزل أو حتى يفكر فيه .

وكان مبرر المشروع يوم وصل محمد على إلى أبواب الآستانة ، فإذن لو قامت دولة قوية

فى المشرق ماذا يكون الأمر ؟ .

وهناك فكرة إقامة الحائط البشرى بين آسيا وأفريقيا وهو الأصل الذى سبق الدعوة الصهيونية ، لأن أوربا لم تكن تسمح بظهور مزاحم لها جديد فى الشرق فى مصر بالذات .

فقد كانت فكرة حماية الأقليات الشرقية وإقامة حاجز بشرى أو سد بشرى يمنع قيام دولة عربية قوية هى المصدر الأول لتلك المشاريع التى ظهرت أثناء النزاع المصرى العثمانى خلال أيام محمد على ، وكان مخطط السيطرة على فلسطين الذى وضعه إيدز - جابونسكى - أرلوسورون ، يقوم على النهب والعدوان وتدمير أهالى فلسطين أساساً لإحلال جنس آخر يجرى تهجيره من مختلف بلاد أوربا تحت اسم الصهيونية ليحقق أغلبية فى وطن عربى مع تدمير أهله وإخراجهم .

ويقول جابونسكى : لابد من غلبة العنصر اليهودى حتى يأتى الوقت الذى يتوافر له العدد الكافى ، وأن يكون ليهود فلسطين حق حمل السلاح ومنع السلاح عن العرب .

فالصهيونية ترى أن الشعب الفلسطينى صاحب الأرض شعب ليس له لزوم ، وشعب يزيد على الحاجة ، ولابد من إقصائه وإبعاده وإفنائه وطرده من الأرض ، وهو مفهوم فاسد خطير ، إذ كيف يصل المنطق أو المنطلق الحقيقى للأمم والحضارات أن يطرد أهل وطن هم مرتبطون به من آلاف السنين لإدخال حثالات مهاجرة من عديد من أوطان غريبة ، وفى ظل ظروف حماياتهم من قبلهم كما حدث فى هجرة اليهود بعد مقتل الكسندر قيصر روسيا ؟ .

وقد تخلصت أوربا من اليهود حين قالت بمشروع (وعد بلفور) لتهجيرهم إلى فلسطين ، ونفضت يدها من صراعهم وفتحت باب الصراع بين اليهود والعرب ، ودخل اليهود فلسطين بالحيلة والخداع تحت اسم الأرض المقدسة التى كانوا يقيمون فيها منذ آلاف السنين ، وأعانتهم على ذلك بعض النصوص فى الكتب المقدسة الى اعتنقها البروتستانت الذين كانوا سكان أمريكا ، وهذا سر تأييدهم لإسرائيل .

لقد ادعى اليهود أنهم اضطهدوا وهم الآن يضطهدون الفلسطينيين ، وكانت المسألة فى بدايتها إقامة المضطر ، ثم أصبحت عدواناً واغتصاباً .

وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً اليوم هل تبين أن إسرائيل هى الحل الصحيح لمسألة اليهود ؟ أو هى الحل الأمثل للمشكلة اليهودية ؟ وهل هى حقاً واجهة للديمقراطية وجَنَّة للإبداع ؟ .

وهل يمكن أن تقوم دولة على أساس تشريد شعب كامل ؟

لقد ظن اليهود أن أزمتهم تعطيهم الحق فى الاستيلاء على فلسطين ، ولكن فلسطين لم تكن جزيرة مجهولة فى انتظار من يكتشفها ، وإنما كانت وطناً آهلاً مسكوناً له أصحابه وذووه ، ويكذب الحقائق من ادعى أنه وطن بلا شعب .

ولقد كان اليهود قد انصهروا منذ مئات السنين فى البلاد التى عاشوا فيها ، وليس صحيحاً أن اليهود شعب بالمعنى الحقيقى وأنهم لا وطن لهم ، فهم مواطنون فى المجتمعات المختلفة التى اندمجوا فيها .

* * *

(٢)

جاء القضاء على الخلافة الإسلامية نتيجة خطة صليبية يهودية بدأت عشية انتهاء الحروب الصليبية (٦٩٠ هـ - ١٢٩٠م) كما يقول أحد مؤرخيهم (ديجوفارا) الذى ذكر أن أصل العداوة المزمنة التى يشعر بها الأوربيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد الذى شنته النصرانية على الإسلام بدعوى أنه سيطر على بعض المناطق التى كانت فى أيدى الرومان قبل الإسلام ، وهى دعوى باطلة ، لأن هذه المناطق من الشام إلى مصر إلى أفريقيا كانت قد وسدت منذ مئات السنين بموجات عربية خرجت من الجزيرة العربية واستقرت فى هذه المناطق ، ومن هنا كانت الخطة التى رسمت بين الكنيسة واليهود مكونة من عدة عناصر ، أهمها إلغاء الخلافة وتحويل تركيا إلى دولة علمانية وإلغاء الشريعة الإسلامية .

وقد بدأت الخطة بعدة اتفاقيات :

(أولها) : الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا (١٩٠٤) .

(ثانياً) : اتفاق سايكس بيكو أُعْلِن (١٩١٧) .

وهما بمثابة اتفاق متمم للاتفاق الرئيسى الذى تم بين الدول الثلاث (انجلترا - فرنسا - روسيا) والذى يقضى بتقسيم الدولة العثمانية الإسلامية وتوزيع سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر والمغرب العربى فيما بينها ، ولقد بقيت هذه الاتفاقية سرية لم يسمع عنها المسلمون حتى أعلنها الشيوعيون فى روسيا عام ١٩١٧ .

وكان اليهود وراء المخطط كله بهدف إقامة إمبراطورية الربا . وهكذا أخرج اليهود من

أوربا ليكونوا قذى فى عيون المسلمين .

وكان من تخطيط الصهيونية الطامعة فى السيطرة على العالم العمل على وضع الأمة الإسلامية بين فكى الكماشة فى معسكرين متضاربين الرأسمالية والماركسية من خلال مفهوم العلمانية وإنكار الألوهية والنبوة والغيب واليوم الآخر والجزاء الأخروى ، وإغراق المجتمعات الإسلامية بأدوات الانحلال ممثلة فى الفكر الأسطورى والإباحى والمادى ، ودفعه إلى مجتمع الاستهلاك ، وهذا كله جزء من خطة فرض النظام الربوى على العالم كله (كما توضح بروتوكولات صهيون) .

واليهود هم الذى حملوا لواء الفصل بين الدين والدولة ، وقدموا عقدتين خطيرتين : هما الغريزة الجنسية والصراع الطبقى (فرويد - وماركس) وقد تبين أن مقولة : إن مفتاح الشخصية الإنسانية هى الغريزة الجنسية ليس أقل سذاجة من القول بأن مفتاح حركة التاريخ هو الصراع الطبقى ، وقد حاولت الماسونية بمنهجها المسموم الذى وضع بعد ذلك فى قالب نظريات علمية هى الفرويدية والماركسية والوجودية والدارونية ، والتركيز على مقولة واحدة : هى (أن الدين هو سبب تخلف المسلمين) .

ولقد تبين اليوم بوضوح أن هذا الحصار الشيوعى الصهيونى الغربى هو الذى استطاع أن يسيطر على فلسطين وبيت المقدس بمؤامرة قامت بها القوى الكبرى لفرض عنصر غريب فى قلب الوطن الإسلامى للحيلولة بينه وبين امتلاك إرادته أو قيادة الحضارة العالمية ، بعد أن ظهرت علامات انهيار الحضارة الغربية وقرب سقوطها ، فكانت قضية الصهيونية واليهود واحتلال فلسطين وتجنيد كل القوى فى دفع الهجوم اليهودى من مختلف أنحاء العالم إلى فلسطين فى سبيل إنشاء إمبراطورية يهودية من النيل إلى الفرات هى الشغل الشاغل الذى سيطر على كل قضايا الفكر والثقافة فى محاولة خطيرة استهدفت احتواء الفكر الإسلامى بالتغريب والغزو الثقافى واحتواء وتزييف قيمه ومفاهيمه لإخراجه من خصوصية الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، وفرض مفاهيم الحضارة الغربية والفكر الغربى القائمة على الفلسفات المادية والإباحية والوثنية (من مخلفات فكر علم الأصنام اليونانى إلى المجوسية والباطنية جميعاً) للتحلل من كل القيم والاستعداء على البعدين الأساسيين لكل حضارة وكل مجتمع أصيل وهما البعد الربانى والبعد الأخلاقى قاعدة الحضارات الإنسانية؛ ولذلك فقد كان الشغل الشاغل لجيلنا الذى تسلم ميراث الدعوة الإسلامية من الأبرار الذين خطوا بها حتى أوصلوها إلينا هو :

أولاً : دحض شبهات الفكر الغربى المعاصر وكشف خفايا المؤامرة الصهيونية الغربية

المستدة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اليوم فى صور متعددة مختلفة .

ثانياً : إقامة الثوابت ببناء البدائل الإسلامية والتأصيل الإسلامى لكل المعوقات والقيم ، حتى يكون ذلك عاملاً أساسياً قادراً على بناء قاعدة التغيير التى تحقق تمكين المسلمين من امتلاك إرادتهم وفرض وجودهم فى مجتمعهم والتحرر من التبعية ، وتحطيم الحصار الذى تفرضه الماركسية والليبرالية والصهيونية جميعاً ليكون ذلك مقدمة لتبليغ الإسلام إلى كل أهل الأرض وإدخال الناس فى دين الله تبارك وتعالى مرة أخرى بعد أن انصرفوا عنه تحت تأثير مؤامرة الحضارة المنهارة .

ولا شك فى أنه قد كان واضحاً أن أساس الأزمة التى يمر بها العالم اليوم هو محاولة فرض عنصر غريب على أرض الأمة الإسلامية .

ولا شك فى أن كل ما يشهده الوطن العربى اليوم من مآسٍ وأزمات سواء فى لبنان أو إرتيريا أو جنوب السودان أو فلسطين المحتلة إنما يعود إلى شئ واحد ، هو هذا العنصر الغريب الذى استطاع أن يسيطر على رأس جسر فى قلب الأمة الإسلامية ، ومعه مطامعه فى التوسع ، ومشاريعه فى تمزيق وحدة الأمة وإثارة الحزازات والصراعات بين الأديان والقوميات فى محاولة للوصول إلى الهدف الحقيقى الذى مازال يعمل له خلال أربعين عاماً بالتآمر والعنف والإرهاب واحتواء العقليات والنفوس والسيطرة على المصادر القيادية هنا وهناك من أجل بناء هيكل سليمان وإقامة إسرائيل الكبرى .

وتظهر آثار ذلك واضحة فى السيطرة على المناهج التربوية والتعليمية والثقافية بهدف إزالة روح الإسلام منها ودفعها نحو العلمانية حتى فى مناهج التعليم الإسلامى فى جامعاته، وإزالة طابع القومية والإسلام من أرض فلسطين وبلادها وقراها .

ذلك أن التاريخ يزعج الإسرائيليين ، فهم يعمدون إلى تدمير المواقع التى تحمل أثراً تاريخيًا وقد فعلوا ذلك بموقع (حطين) الذى انتصر فيه صلاح الدين إذ أحالوه إلى رماد .

وقد عمدوا إلى تدمير المبانى ذات التاريخ ، وكل ما يدل على أنه كانت هناك حياة عريقة قديمة وتراث (ومن ذلك بيت الدكتور قدرى طوقان رحمه الله وأحسن إليه) هذا البيت المبنى من الصخر الضخم كالقلعة منذ عدة قرون من الزمان .

وفيه مكتبة تراثية نادرة .. لقد دمر الإسرائيليون أجزاء من هذا المنزل وأحرقوا تلك المكتبة النادرة .

* * *

(٣)

إن المحاولـة كلها ليسـت حقاً مطلوباً أو عـملاً مشـروعـاً ولكنها مـؤامـرة ماكرة خبيثة من ألفـها إلى يـائها ، تتـمـثل فى جـماعـة حـاقدة على طول التاريخ تـدعى دعـوى باطلة وتستعـين لها بالقوى المسيطرة وبالمكر والخداع والتآمر والخيانة .

لقد تـأسس هذا الكيـان اليـهـودى على أسطورة وعلى غـدر وعلى تـآمر مع الـدول التى تـريـد استبقـاء نفوذها ، وكلها عوامل غير طبيعية لا يمكن أن تستمر .

ومن وراء هذا الواقع المجرم أسطورة الصهيونية التى تقوم على بعث الماضى الميت والدعوة إلى التوسع وتمجيد الحرب .

إن حركة الصهيونية العالمية تنبعث من الحقد القديم على الأمة الإسلامية صاحبة الأرض الغنية بالمواد الأولية والتى أودع الله تبارك وتعالى فى ثراها أكبر قدر من الطاقة والثروة .

إن المجتمع الإسرائيلى مجتمع زائف متناقض مؤلف من جماعات عرقيـة ولغوية مختلفة لم تستطع حتى أن تصهرها بوتقـة واحـدة أو أن تنتـج ثقافة قومية بالمعنى الصحيح ، ولا يسـتطيـع أحـد أن يزعم وجـود أمة إسـرائيليـة ، إذ إن اليـهـود ينـتـمون لأصـول وثقـافات مختلفـة يجـمعهـم إحساس بالاستماتة فى سـبيل البقاء بأرض تـرفضـهم ، وهم يواجهون أصحابها ليـل نهـار ، وأصحابها لا يتنـازلون عن حقـهم مـهما بلغ بهم الضعف ، ومـهـما ساندت القوة باطل الصهيونية .

وإذا كانت الصهيونية قد نجحت فى إنشاء الدولة اليهودية فإنها تسببت فى خلق مشاكل تهـدد وجودها المادى والمعنوى .

إن نظرية اعتبار قتل العرب أو إجلاء العربى عن مسكنه بالقوة لن تكون أبداً قاعدة ، ولا يمكن أن تحقق أمراً صحيحاً يستمر على مدى الأجيال ، إنها تمثل جريمة إبادة الجنس ، وما يقوم به اليهود اليوم بالنسبة للعرب هو نحو مما جرى لهم فى ألمانيا النازية .. إن اليهود اليوم فى فلسطين المحتلة شعب الشتات الذى يعيش على الإعانات ، وقوتهم قائمة على ما تقدم لهم دولة حليفة وما يجمعون من صدقات من أثرياء اليهود .

وهذا الدعم (٤ آلاف مليون دولار) يأتى أسـاسـاً من خلال رءوس الأمـوال العربيـة التى تتدفق على بنوك أمريكا .

والشعب الذى يعيش على المعونات والحماية التى تأتيه من الخارج لا يمكن أن يقف على قدميه .

كذلك إن فكرة بقاء اليهود على قاعدة امتلاك قوة عسكرية توازى قوة البلاد العربية مجتمعة أمر لا يمكن أن يستمر ، ولابد أن ينهار ، وإن العرب الذين أجلوا عن أرضهم لن يموتوا ولن يستأصلوا مهما قتلهم اليهود ، ولن يتراجعوا عن استعادة أرضهم وحقهم، كذلك فإن تجمع اليهود فى فلسطين المحتلة ليس عامل قوة بل هو عامل ضعف فسرعان ما تتغير الموازين وتباد هذه العناصر ويعود الحق إلى أصحابه .

* * *

(٤)

هذا عن الواقع ، أما عن التاريخ فإن الأمر يكشف عن جنس لا يتوقف عن الإيذاء والتآمر على بنى الإنسان .

فقد عاش فى أوربا يواجه الاضطهاد فى أوربا الشرقية وفى فرنسا ذاتها من قبل ، بل إن حرقهم أحياء على أيد الأوربيين فى أسبانيا بعد سقوط الأندلس يعتبر من الصفحات السوداء فى تاريخ الأوربيين الذى كتب بأيدى مؤرخين أوربيين بعد أن عاش اليهود فى الأندلس جنباً إلى جنب مع العرب وتحت حكم المسلمين فى سلام وأمان ، والغريب أن هذه الصورة تكررت فى عصور وأماكن مختلفة .

يقول دكتور صلاح خليل فى كتاب « خروج اليهود » للكاتب الفرنسى هوليوس أوريس : يركز الكاتب على ما أصاب اليهود على يد العديد من القوميات الأخرى وفى مقدمتهم الأوربيون ويقارن الكاتب بين ما لاقاه اليهود فى روسيا على أيدى الحكام الروس وما لاقاه اليهود هناك من حسن المعاملة على ايدى الحكام العرب المسلمين الذين حكموا أجزاء من جنوب روسيا فى فترة ازدهار الإمبراطورية الإسلامية .

يقول الكتاب بالحرف الواحد (ص ١٩٥) :

وبحلول القرن العاشر الميلادى وصل الروس فى الشمال إلى السلطة وهاجموا دولة اليهود فى القرم التى كانت معروفة باسم الخزر ومزقوهم شر ممزق وبدأوا سجلاً دنيئاً ضد اليهود منذ ذلك الحين .

وبعد ظهور الإسلام جاء سيف الإسلام المشتعل من الجنوب ، وفى خلال الحكم

الإسلامى للأجزاء الجنوبية من روسيا عرف اليهود أعظم عصورهم من السلام والأزدهار .

وبهزيمتهم وانحسار إمبراطوريتهم آلت السيطرة إلى قياصرة روسيا، وفى تلك العهود كان اليهود يحرقون أحياء بالمئات فى العصور الوسطى .

وهذه شهادة للعرب والمسلمين من كاتب يهودى صهيونى يكره العرب ولكنه لم يستطع إنكار بعض الحقائق ربما لشدة نصاعتها وصعوبة إنكارها .

وهناك أمثلة عديدة لا يتسع المجال لذكرها فقد كان العرب من أكرم شعوب العالم معاملة لليهود وقد عاش اليهود بينهم بلا اضطهاد عنصرى على مر العصور . أ. هـ .

ويلاحظ أن يهود الكيان الإسرائيلى المعاصر هم من خلائف مملكة الخزر التى مزقت شر ممزق وذهب أهلها إلى بولندا وغيرها ، ومن هنا فإن هؤلاء ليسوا أصلا من نسل إبراهيم أو إسرائيل ولا صلة لهم بأرض فلسطين وإنما هم جماعة دخلوا فى اليهودية فى فترة من الفترات .

ولقد كان اليهود المعاصرون حريصين على إخفاء قضية مملكة الخزر حتى أنهم رفعوها من دوائر المعارف ، لأنها تكشف زيف دعواهم بأنهم من يهود فلسطين .

ويقرر الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى بحثه عن الخزر أن مملكة الخزر بلغت أوج عظمتها وقوتها ما بين القرنين الثامن والعاشر حين اعتنق ملكها بولان ٧٨٦ – ٨٠٩ ومعه أربعة آلاف من النبلاء الديانة اليهودية وجعلها الديانة الرسمية ويقول المسعودى : إنهم تهودوا فى عهد هارون الرشيد .

وقد حاول المؤرخون تفسير ظاهرة يهود الخزر فيقال إنهم تهودوا لأسباب سياسية ، فهم كانوا يقعون بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية، ولكى يحتفظوا باستقلالهم تبنوا عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة القوتين .

ويقرر العالم الإسرائيلى (أ. ن . لولياك) أستاذ التاريخ اليهودى الوسيط فى جامعة تل أبيب ، وعلماء الأجناس أن يهود شرق أوربا (الأشكناز) ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل يهود الخزر .

وفى القرن السادس عشر كان معظم يهود أوربا فى بولندا ، وفى بداية القرن السابع عشر نجد أن معظم يهود العالم موجودون فى بولندا ، بحيث يمكن القول أن يهود العالم الحديث من أصل بولندى ، وقد ضمت أجزاء من بولندا إلى روسيا وهى الأجزاء التى تضم اليهود .

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى :

إن الدلائل المعروضة تدعم الحجة القوية التى قدمها المؤرخون المحدثون (سواء النمساويون أو الإسرائيليون أو البولنديون) الذين أثبتوا مع استقلالهم الواحد عن الآخر أن الأغلبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطينى وإنما من أصل قوقازى ، وأن التيار الرئيسى للهجرات اليهودية لم ينبثق من حوض البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا متجهاً نحو الشرق ، ثم عائداً أدراجه ثانية ، ولكنه تحرك فى اتجاه ثابت دائم نحو الغرب بادئاً من القوقاز عائداً إلى أوكرانيا وإلى بولندا ومنها إلى وسط أوربا .

إن الصهيونية فى أحد أشكالها تحاول أن تؤسس نظرية الحقوق اليهودية فى فلسطين من منطلق عرقى ، إذ تدعى أن اليهود هم شعب بالمعنى العرقى ، ارتبط دائماً بفلسطين أو أرض الميعاد ، وأن هذا البقاء العرقى وهذا الارتباط الأزلى بأرض الأجداد يبرران عملية الاستيلاء على فلسطين . ولكن يهود الخزر مثل يهود الأدرميين من قبل يمثلون تحدياً لهذه الفكرة الخاصة بالنقاء العرقى ، كما أن الأصل الخزرى لمعظم يهود الغرب (أى الأغلبية ليهود العالم) يفند فكرة الحقوق اليهودية .

ولا شك فى أن هذه الحقائق الدامغة تكشف زيف دعوى الصهيونية المعاصر كلياً ، وتمثل حلقة من حلقات التآمر اليهودى الممتد على التاريخ، والذى تأتى إحدى حلقاته فى العصر الحديث ممثلة فى صناعة الثورة الفرنسية والثورة الروسية وهذا هو بدء التاريخ الحديث الذى سيصل مرحلة بعد مرحلة إلى السيطرة على القدس .

وكانت الثورة الفرنسية هى مقدمة للسيطرة على العالم فقد استطاعوا تحت عناوين الحرية والإخاء والمساواة أن يقتلوا أكثر من مليونى شخص فى أوربا وحوض البحر المتوسط .

وكانت ضربة قاصمة للمسيحيين من حيث وحدة العالم الغربى، ومن حيث فرض عصر التنوير بإلحاده وإباحياته الذى رسم خطته وقدم لها أعلامها (فولتير وديدرو وكتاب الموسوعة) ، وجعلوا قاعدتها هدم المسيحية أساساً ، وإعلان تقديس العقل ، وهكذا انتقم اليهود من معذبيهم خلال القرون السابقة (وهذا ما قررته دائرة المعارف اليهودية) .

وثبت أن تمويل الثورة شارك فيه ستة رجال من زعماء اليهود ذكرت أسماؤهم كما ذكر التاريخ أن وزير المالية للملك لويس السادس عشر كان يهودياً وهو الذى أغرق النظام بالديون .

وقال حكماء صهيون فى البروتوكول الثالث يخاطبون جمهورهم (تذكروا الثورة

الفرنسية التى نسميها الكبرى) .

(إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لدينا جيداً . . إنها من صنع أيدينا ونحن منذ ذلك الحين نقود الأمم) .

* * *

أما الثورة الشيوعية ١٩١٧ فإن يهود أمريكا قاموا بتمويلها ومن هؤلاء (فيلكس وأوتو وجيرم وماكس وشيبات) ، أما الزعماء الروس بعد كارل ماركس اليهودى فهم لينين وهو ربيب اليهود ، وستالين ، زوجته كانت يهودية ، وبرومنسكى وهو يهودى وكذلك كامنيف وسوكنو ليكوف وزيتوفيف ، وكان شعار الشيوعية (لا إله، والحياة مادة) .

وأسلوبها الفذ القوة الحديدية ولا يعرف التاريخ شبيهاً بحمامات الدم التى جرت فى أرجاء العالم الشيوعى ، لقد كان هتلر الحلقة الأخيرة من سلسلة الحكام المسيحيين الذين نكلوا باليهود على مدى التاريخ ، وقد ثار اليهود لأنفسهم باختراع الفلسفة المادية ومشاركة الناقمين فى ترويجها ومساندتها .

وقد انتقل اليهود الآن إلى الشرق الأوسط وظفروا بتكوين دولة لهم ، والأمور تتدافع إلى مستقبل أسود تسيل فيه الدماء أنهاراً واليهود من وراء هذا البلاء الماحق .

وقد أشار المؤرخون إلى الترابط بين الثورة الفرنسية ١٨٧٩ ، وبين الثورة الشيوعية ١٩١٧ .

لقد قدمت الثورة الفرنسية الأرضية الأساسية لهدم الأديان والسيطرة على الأمة الإسلامية بدعوتها إلى الإلحاد باسم التنوير ، تحقيقاً لهدف الماسونية (حرية – إخاء – مساواة) ، وتحرير أوربا من المسيحية ، وإقامة الدولة العلمانية (دولة العجل الذهبى) على مبدأ الفصل بين الدين والدولة وظهور أول نظام سياسى علمانى حتى استطاعت خلال أقل من أربعة عقود طرح مفهوم الشيوعية بإلغاء الدين نهائياً .

* **

وقد نما وامتد هذا المخطط فى أربعة مواقع :

١ – فى الفكر اليهودى التلمودى الذى هو الآن مصدر الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى التنظيم الديمقراطى الليبرالى .

٢ – فى الفكر الماركسى الذى تحطم نظامه الشيوعى ومع ذلك فما زالت فكرة الإلحاد والتنوير، ولا إله، والحياة مادة قائمة وممتدة .

٣ – احتضان كل حركات الإباحة والفساد العالمى على النحو الذى دعت إليه الماسونية .

٤ – احتضان المراكز الأساسية للبهائية والليونز والقاديانية والأحمدية .

(وقد اعترفت الحكومة الإسرائيلية بأن إسرائيل هى المركز الروحى للفكر البهائى حيث تضم المركز القيادى لهذه الحركة منذ أكثر من قرن) .

* * *

وفى سبيل إيقاد نار الفتنة قام اليهود بأعمال كثيرة :

١ – طبع أول سورة مريم وأول سورة البقرة على ورق التغليف ويستعملها اليهود فى محلاتهم بالعاصمة البلجيكية بروكسل .

٢ – فى لندن انتجت محلات اليهودى ماركس أندسبنسر ملابس داخلية طبعت عليها عبارة لا إله إلا الله وقد تعمد المصمم على أن يكون لفظ الجلالة ملاصقاً موضع العورة وتباع هذه الملابس هناك .

٣ – فى قبرص وضع يهودى اسم الجلاله الله : ﴿ .. **سبحانه وتعالى عما يقولون عُلُواً كبيراً** ﴾ [الإسراء : ٤٣] على نعال الأحذية الرياضية .

٤ – فى أوربا تنتشر كاستات لموسيقى الديسكو سجل عليها اليهود سوراً قرآنية .

* * *

ومن ناحية أخرى احتضنت الصهيونية الفرق الضالة وفى مقدمتها الدروز والباطنية ، وللدورز أثر واضح فى الصراع العربى الإسرائيلى والحرب اللبنانية كما له أثر فى الخطة الهادفة إلى قيام إسرائيل الكبرى .

فقد حملت الفرق الدرزية مشروع الباطنية المستحدثة الذى تأسس على قاعدته الحزب الاشتراكى حيث تشكل الفيلق الدرزى .

ويقول أحمد رشيد فى بحث له : إن كمال جنبلاط هو أحد الأعمدة الباطنية للعمود الفقرى فى خطة الإسرائيليات الحديثة وفى سيرة إسرائيل الكبرى .

وهناك أدوار أخرى باطنية : منها ما يسمى بالتعقيدات الباطنية لأنها جزء هام من خطة

إسرائيل التى جاءت فى بروتوكولات صهيون من تحطيم عقائد الإيمان .

وما يتصل بالدروز يتصل أيضاً بالنصيرية وغيرها من الفرق المتعددة التى قامت على أساس الفكر الباطنى .

* * *

إن اليهود يطمعون فى إنشاء دولة تصبح جزءاً من عالم الغرب وترث أنظمة الغرب التى تنهار اليوم ، لتحل محلها فتكون خندقاً أمامياً للدفاع عن الحضارة اليهودية ، وليس الحضارة الأوربية كما حاول هرتزل أن يخدع أهل الغرب ، ليوقعوا على مشروعه ، وقد وضح وجه الشبه بين الحركة الصهيونية وحركة التاريخ الألمانى (الشوفونية – الاستعلاء العنصرى) .

* * *

أما من ناحية علاقة الحركة الصهيونية بالكنيسة والديانة المسيحية فقد خطت خطوات واسعة فى احتوائهما ، وكانت تبرئة اليهود من محاولة قتل المسيح هى أهم هذه الخطوات .

فقد ألغيت صلاة اللعنة على اليهود الخائنين من الطقوس الدينية المسيحية ، وحلت محلها صلاة تمتدح اليهود باعتبارهم أول من سمع كلمة الرب .

وقد جرى دعم الحوار بين اليهود والمسيحية على أساس التراث الروحى المشترك بين الفريقين .

وما زال اليهود يرون أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خلال ١٨٠٠ سنة هى سبب الاضطهادات الدامية التى تعرض لها اليهود فى القرون الوسطى ، وخاصة محاكم التفتيش، ومذابح اليهود فى الحروب الصليبية وحكم النازى .

ولقد ترددت محاولات متعددة للطعن فى مخطط الاستيلاء على العالم وتدمير الخلافة الذى أطلق عليه (بروتوكولات حكماء صهيون) وقد اعترف هنرى كيلين فى جريدته صوت المرأة فى شيكاغو (١٩٤٥) بصحة البروتوكولات ، فقال إنها هى الخطة التى وضعت للسيطرة على العالم وإن زعماء الصهيونية يكونون مجلس سانهدرين الأعلى الذى يرمى إلى السيطرة على حكومات العالم .

وقال : وقد طردنى اليهود من صفوفهم لأنى أنكرت عليهم خططهم الشريرة .

والمعروف أن الفكر الماركسى والفكر الرأسمالى الربوى هو نتاج يهودى أساساً ضمن

مخطط السيطرة التامة على الفكر البشرى فى العصور الحديثة ، هذا فضلاً عن أن تجارة البغاء والجنس تدر عليهم ملايين ، وهم المسيطرون على تجارة الخمور والمخدرات .

والمعروف أن إسرائيل لا تحارب المسلمين فقط بقواتها المسلحة وعملياتها الإرهابية، ولكن من خلال تسميم أفكار العامة، مستخدمة فى ذلك كل وسيلة حتى كتب المدارس ، ولا ريب فى أن اعتماد وسائل التركيز فى بلاد المسلمين على مغامرات ميكى وتان تان هى جزء من الخطة ، وأنه يجب أن تكشف هذه الحقائق للطفل المسلم وتثبت عقيدته حتى يستطيع أن يكبر وهو يعى كل ما حوله .

* * *

وقد كشف كُتَّاب الغرب ومؤرخوه المنصفون فساد مؤامرة الغرب حتى يقول أرنولد توينبى ما يلى : إنه من المستحيل أن تقوم دولة فى مكان ما لمجرد أن هيئة ما ذات سلطان فى السياسة العالمية فى وقت ما تريد أن تضع بقوة المال والسلطان السياسى فحسب كياناً سياسياً له شرعية وجذور ، فالذى تصنعه الصهيونية اليوم هو ما يصنعه رجل موسر ، إذ يشترى قطعة أرض فى بلد ما ، ويطرد أهلها منها ويقرر إنشاء دولة لنفسه فيها زاعماً أن شراءه الأرض يخرجها من سيادة الدولة ، لأن الدول لا تصنع هكذا بالقوة والمال ، والشرعية لا تكون من فوهة المدفع ولا من اعتراف مجلس الأمن لأن مجلس الأمن نفسه هيئة مصطنعة تسير حسب ما يريد لها الذين صنعوها ، وكما اعترف مجلس الأمن بإسرائيل دون أن يكون اعترافه بها وثيقة بشرعيتها ، فكذلك ظل ينكر شرعية الصين عشرين سنة لأن الولايات المتحدة أرادت ذلك .

* * *

إن الحملة الصهيونية فى العصر الحديث تكاد تكون متشابهة بل متطابقة مع الحملة الصليبية فى العصور الوسطى وأوجه الشبه بينهما كثيرة غير أن الدين قد اتخذ ستاراً وشعاراً فى الحملتين .

ففى الأولى كانت الصليبية هى الشعار وفى الثانية كان الشعار نجمة داود ، وكان الهدف الظاهر فى الأولى هو إنقاذ بيت المقدس ، وكان الهدف فى الثانية هو إعادة بناء هيكل سليمان .

وقد جاءت هذه الحملة لتفتح صفحات التاريخ القديم لليهود وتدفع إلى مراجعة ما سجله القرآن الكريم عنهم وما حذر المسلمين من خياناتهم .

فكم مرة دمرت مملكة إسرائيل ، يوم أن دمرها الملك الآشورى سرجون الثانى ٧٢١ ق.م وعندما دمرها ملك بابل (بختنصر) حين قضى على أورشليم عام ٥٨٥ ق.م وساق الشعب أسرى إلى بابل ، فعاش اليهود فى المنفى عيش العبيد ، ففى المرتين دمرت أورشليم وقتل اليهود .

ثم جاء عصر الرومان ٥٨ ق.م رداً على ثوراتهم ، حوصرت أورشليم فى عهد نيرون ٧٠م وتعهد اليهود بإبادة أنفسهم حيث حرق المعبد الذى بناه هيرودس وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود ، وأصبح اليهود من ذلك التاريخ شعباً بدون وطن .

حدث هذا كله فى الوقت الذى استمر وجود الشعب الفلسطينى فى أرض فلسطين حيث بقى العرب بصفة عامة من قبل الميلاد على أرض فلسطين وهذه حقيقة تاريخية بينما كان وجود العبرانيين متذبذباً بين هجرة ونكوص عن الجهاد ثم تشريد دولتى آشور وبابل .

أما بالنسبة للتوراة فقد أكدت ظهور الكشوف الأثرية فى مناطق كثيرة أن هناك هوة واسعة بين الحقيقة التاريخية وبين ما تخيله الذين عملوا فى نقل التوراة وتحوير نصوصها لغايات سياسية كان الغرض الرئيسى منها الحط من شأن الشعوب المعادية لإسرائيل وتزوير الأحداث لصالح الشعب الإسرائيلى وادعاء دعاوى باطلة بشأن وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم مما صححه القرآن الكريم .

وتكشف الدراسات الحرة أن اليهود كانوا وراء محاولة قتل المسيح عليه السلام وهم الذين قتلوا القيصر نقولا الثانى الذى كان يعمل على صهرهم فى المجتمع الروسى وهم الذين أشعلوا الثورة الفرنسية بهدف وضع أيديهم على مقدرات الغرب وهم الذين نظموا مذابح ستالين والبلشفيك من أمثال ليون تروتسكى وباكوف وسيفرولوف وغيرهم، وهم الذين قاموا بخداع الفلاحين ونشر الرعب فى البلاد .

وهناك ما كشفت عنه محاكمة بعض اليهود من أن الصهيونية نفسها كانت وراء مذابح هتلر لليهود لدفعهم إلى النزوح عن ألمانيا الشرقية إلى فلسطين وهم ينفخون فى الرماد لتأجيج نيران معاداة السامية فى الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية توطئة للخروج الثانى فى القرن العشرين ، كذلك فإنه يجب أن يدرس باهتمام بالغ دور اليهود فى ديون مصر وقناة السويس ومن قبل دور اليهود فى الحروب الصليبية ودورهم فى أوربا فى الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وفى الحرب العالمية الأولى والثانية التى قتل فيها عشرات الملايين .

وقد تبين أن الحروب الدينية الطاحنة التى دارت بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان يشعل نارها اليهود حين اندسوا بين الفريقين يحرضون كلا منهما على الآخر ويزينون للمسيحى قتل أخيه المسيحى ، مما تسبب عنه موت ملايين النصارى الأبرياء .

والآن تتم مؤامرة هجرة اليهود إلى فلسطين لأول مرة فى التاريخ بتواطؤ دولى على يد الأقوياء ، واغتصاباً لأرض الآخرين وعدواناً على حقوق الإنسان فى مأمنه .

وكان اليهود قد أعدوا عدتهم لإقامة طويلة ولسيطرة كاملة ، ومن هنا كان إعدادهم لبرامج تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وتدمير مقوماتها من الداخل ، وكان اهتمامهم بالأقليات وإثارتها من أهم هذه البرامج .

ولا يدفع اليهود لذلك كله إلا كلمة واحدة هى الحقد على الإسلام والبغض لأهله .

وقد تكشفت مشروعات تمزيق الأمة الإسلامية والوطن العربى إلى كانتونات على النحو الذى عرف فى السنوات الأخيرة ففى الجزيرة العربية : دولة الأحساء ، دولة نجد ، دولة الحجاز .

وفى العراق : دولة سنية ، دولة شيعية ، دولة كرديستان .

وفى سوريا : دولة علوية ، دولة درزية .

وفى إيران : دولة كردستان ، دولة أذربيجان ، دولة تركستان ، دولة بلوخستان . إلخ .

[الأهرام ٧ / ٨ / ١٩٨٧]

* * *

كيف واجه المسلمون الحملة الصهيونية

لقد استطاع النفوذ الغربى المؤازر للصهيونية أن يخدع العرب طويلاً عن الطريق الصحيح لمقاومة الخطر الزاحف ، فانطلقوا لمواجهته عن طريق الأسلوب السياسى الغربى الذى كان قد فرض نفسه على الوطن العربى بما يسمونه النظام الديمقراطى ، بعد أن حجبت مفاهيمهم الإسلامية الأساسية القائمة على الاحتشاد للمقاومة ، وقبلوا المضى فى خطة التحاكم فى الهيئات الدولية ، فلم تجدهم نفعاً واستطاع العدو أن يسيطر ويتوسع ، وأيدته الدول الغربية بينما خدعت العرب فى أكثر من موقع ، ومضى النفوذ الصهيونى معتمداً على الحكومة البريطانية التى تحميه فى اضطهاد أصحاب الأرض، فهجروها إلى الأقطار المجاورة واستقدم العدو دفعات جديدة من المهاجرين اليهود ، ولما دخل العرب الحرب مع اليهود هزموا وقدموا مزيداً من الضحايا ، واستطاع اليهود فى معركة فاصلة السيطرة على الجولان وسيناء والضفة الغربية والقدس عام ١٩٦٧ .

وقامت منظمة فتح على مفهوم الجهاد الإسلامى ثم اتسع نطاقها فشملت منظمات أخرى خضعت لمفهوم الحوار السياسى الغربى وتلاشى مفهوم المقاومة الإسلامية .

بل لقد عمل العرب على أن يفرضوا مفهوماً علمانيا من خلال مفاهيم القومية الوافدة وهو أن قضية فلسطين قضية عربية تخص العرب وحدهم وليس لها أى صلة بالدول الإسلامية ، وعندما تدخل المجاهدون المسلمون لتحرير فلسطين بمفهوم الإسلام حطم مشروعهم ودمرت جماعتهم .

وكان ذلك قمة التبعية للمفاهيم والأفكار الغربية التى سيطرت على المنطقة واحتوت حكامها وقادتها ، بينما ظل اليهود يتصرفون ويتحركون من خلال مفاهيمهم التى استمدوها من تراثهم القديم والتى تقوم على ادعاء حق فى العودة إلى فلسطين .

وتطور الموقف تطوراً خطيراً فقد كانت فكرة الوطن القومى لليهود تحمل مفهوم حماية اليهود المهاجرين من الاضطهاد ، فإذا بها تتحول إلى مفهوم إقامة كيان يهودى فى قلب العالم الإسلامى ، وفى فلسطين بالذات بدعوى العودة إلى الأرض الموعودة التى أخرجوا منها منذ أكثر من ألفى سنة .

غير أن هذا المفهوم قد تغير الآن بالنسبة للعرب والمسلمين فقد تبين خداع هذا

المخطط وفساده ، وبدأ الفلسطينيون يلتمسون مفهوم الجهاد الإسلامى منطلقاً لهم لتحرير وطنهم وقامت جماعة حماس بقيادة هذه الحركة وسط خضم زاخر من القوى وفى جو مدلهم يهددهم بالإبادة والقتل والتعذيب والترويع .

* * *

إسلامية معركة فلسطين
علامة على الطريق الصحيح

المؤامرة على القدس :

بدأت المؤامرة على بيت المقدس منذ وقت بعيد وعملت على مرحلتين :

المرحلة الأولى :

الحروب الصليبية ، وقد استمرت قرنين كاملين ثم استؤنفت بدخول بريطانيا القدس ١٩١٧ حيث أخذت تسلمها للصهيونية .

قال اللورد اللنبى ١٩١٧ : الآن انتهت الحروب الصليبية .

وقال غورو فى دمشق : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » والمخطط فى جملته كما رسمته الماسونية ونفذته الصهيونية بالاشتراك مع القوى الاستعمارية المسيحية الأوربية .

وقد كان هدف الماسونية منذ إنشائها هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان وظل هذا الهدف سراً محفوظاً حتى يبلغ العضو درجة ٣٣ فيكشف له عنه .

وجاء لورنس على خط هرتزل :

وجاس خلال الديار وأعد العدة لمعركة تتمزق فيها الوحدة الإسلامية ويتصارع فيها العرب والترك ويتقاتلان لحساب الصهيونية العالمية .

* * *

وقد حفلت وقائع التاريخ الإسلامى بالمؤامرات التى وجهت إلى الأمة الإسلامية ، وكان الغرب هو المعتدى دائماً الذى يدفع قواته إلى الانقضاض ، وكان الانقضاض الأول بالاشتراك مع التتار وإسقاط الخلافة العباسية ، وجاء الانقضاض الثانى بحملات صليبية على فلسطين ومصر امتدت قرنين من الزمان ، وجاء الانقضاض الثالث من الفرنجة على الجزائر والمغرب ،

وانطلقت قوات البرتغال وأسبانيا إلى الخليج العربى ، وجاء الانقضاض الرابع ممثلا فى الحملة الاستعمارية بقيادة فرنسا ثم انجلترا ، ثم جاء الانقضاض الخامس ممثلاً فى الحملة الصهيونية على أرض فلسطين بمطمع السيطرة من النيل إلى الفرات ، وهو الذى نعيشه اليوم (العقد الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى) . ومنذ أربعين عاماً فى تآمر مشترك بين الدول الكبرى العالمية جاء مخطط الاستعمار ليقطع أوصال الإسلام وأمة الإسلام ويحاول تقسيم المسلمين إلى شعوب شتى تنتمى كل منها إلى أرض وجنسية وقومية وإقليم وطائفة ، وإثارة روح الصراع بينها حتى لا تلتقى على وحدة جامعة .

وأخطر ما فى ذلك كله ما يجرى اليوم من محاولة تمزيق الدول العربية إلى دويلات وكانتونات ، حيث لا تزال إسرائيل ووجودها فى قلب الأمة الإسلامية هو الخطر الأكبر والمعوق لحركة الأمة الإسلامية نحو وحدتها ونحو تطبيق منهجها وتبليغ رسالتها، مما يتطلب تعبئة القوى وبناء المقاتلين والمجاهدين وتحويل حركة التحرير من حركة قومية ضيقة إلى حركة إسلامية عامة تستمد منهجها من منطلق القرآن الكريم الذى رسم للمسلمين قوانين الجهاد والمرابطة والإعداد والنصر .

ولا ريب أن (إسلامية معركة فلسطين) التى تبدو اليوم فى الأفق عن طريق جماعة حماس التى تجدد مشروع الجهاد الذى بدأ ١٩٤٧ بقيادة الدعوة الإسلامية ثم اختفى بعد ذلك هى علامة على الطريق الصحيح بعد أربعين عاماً من اصطناع أساليب الغرب فى مقاومته ، ولا ريب أن التحدى الصهيونى هو عامل أساسى فى بناء وحدة الأمة الإسلامية .

ومن هنا فقد كان علينا أن نقرر أن الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً بل هى مرحلة نحو الوحدة الإسلامية، ويجب أن تكون كذلك بعد التجربة المريرة التى مرت بها بعض أقطار العرب، وكيف فشل مفهوم القومية فى تحقيق الوحدة العربية لأنه لم يبدأ من طريق الأصالة، فلقد ظن كثيرون أن الوحدة العربية هى غاية فى حد ذاتها بينما هى فى حقيقة الأمر مرحلة على الطريق : طريق وحدة الأمة الإسلامية ، ومن ثم فقد كانت كل المحاولات التى قادها دعاة القومية بمفهوم الغرب العلمانى ، وبمضمونها الماركسى معوقاً لهذه الوحدة عن أن تتخذ طريقها الصحيح .

ولقد دل تاريخ الشرق الأدنى الحديث كما جاء فى كتابات بعض المراقبين وفى مقدمتهم (الفريد كانتول شميث) – على (أن القومية المجردة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض والبناء فى عالم الإسلام ، وأنه ما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن

تثمر الجهود ألبتة) .

ولقد رسم دعاة اليقظة الإسلامية تكامل المرحلة بين الحلقات الثلاث : (الوطنية – والعروبة – والإسلام) وتدافعها لتسلم نفسها إلى الوحدة الجامعة ، ولقد كان العرب قبل الإسلام قبائل متصارعة ، ولم يجمعهم إلا الإسلام وهم اليوم يمرون بنفس التجربة ولقد دفعتهم القومية والإقليمية إلى الصراع ، وألحقت بعضهم بالغرب وبعضهم بالشرق ، ولن يردهم إلى الوحدة الجامعة إلا الإسلام الذى جمع المسلمين تحت لواء واحد فى كل أزمة تمر بهم أو محنة تحتويهم .

وفلسطين لن تعود إلا بأيد متوضئة ترفع القرآن مع السلاح ، وتؤمن بوحدة الأمة الإسلامية ، وتحطم كل القيود والسدود التى رسمها النفوذ الأجنبى حتى لا يتمكن المسلمون من الالتقاء الحقيقى حول لا إله إلا الله ، والله غالب على أمره ولو كره الكارهون .

* * *

الباب التاسع

أبعاد المؤامرة على الإسلام

الأحداث الكبرى

الحملة الفرنسية علي مصر ١٧٩٨م

دخول الإنجليز القدس ١٩١٧م

إحراق المسجد الأقصى ١٩٦٩م



الفصل الأول

عبـــــرة الأحـــــداث

إن المسلمين اليوم وهم فى العقود الأولى من القرن الخامس عشر الهجرى لابد لهم من استعراض تاريخهم ، والتعرف على هذه الضربات التى وجهت للانقضاض على وجودهم وكيانهم وعقيدتهم ، وهى ضربات تواصلت خلال هذه القرون الأربعة عشر ولم تتوقف ، وقد قاومها المسلمون فى مواقع فاصلة قدموا فيها أرواحهم خالصة فى سبيل الله ، وفى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولكنهم سرعان ما كان يغلبهم حب الدنيا وكراهية الموت ، فيصابون بالضعف والفتور عن الاستمساك بالأمانة التى حملوا لواءها ، وينصرفون إلى البحث عن المطامع والأهواء ويغلبهم الترف والانحلال فلا يلبثون أن يواجههم الخطر مرة أخرى وبصورة أخرى ، ذلك لأن أعداء الإسلام والمتربصين به لا يغفلون أبداً ، وهم ما يلبثون حين يرون المسلمين قد ضعفوا وتخاذلوا وغلبتهم الدنيا أن يتجمعوا ليوجهوا إليهم ضربة جديدة .

وهكذا عاش المسلمون هذه الأحداث ونسوها ، وأصبحوا فى حاجة إلى تذكرها وتدبرها والتعرف على مصدر الخطر الكامن أولاً فى أنفسهم ، فلو أنهم عاشوا على التعبئة وعرفوا أن دورهم هو المرابطة فى الثغور ، والإعداد (وأعدوا) فى سبيل امتلاك القدرة على الردع لما انتابتهم هذه الأزمات ، ولو ذكروا كيف وصفهم رسول الله ﷺ : (بأنهم خير أجناد الأرض وأنهم فى رباط إلى يوم القيامة) لعرفوا حقيقة مهمتهم ، ولو أنهم نظروا إلى عوامل النصر كما رسمها القرآن الكريم لهم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً ...** ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

﴿ **... وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ...** ﴾ [النساء : ١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ...** ﴾ [آل عمران : ١١٨] .
هذه وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية التى نبهت المسلمين إلى مصادر الخطر وإلى عوامل الثبات والنصر .

وإذا كنا نحن الجيل الذى يشهد الآن مطالع القرن الخامس عشر الهجرى قد وجدنا أنفسنا وأمتنا فى هذا المعترك الخطير وهذه الأزمة الشديدة ، ورأينا من حولنا هذه الأخطار ، حيث تتجمع القوى المعادية للإسلام لتضرب الإسلام والمسلمين عن قوس واحدة ، فإن علينا أن نعتبر بتجربة التاريخ وأن نعد أنفسنا لنكون قادرين على التضحية والجهاد والثبات فى المواقع فى وجه العدو الذى ستزلزله قوة إيماننا فينهار كما انهارت قوى الصليبيين والتتار والفرنجة من قبل .

ليس أمامنا إلا طريق واحد هو التضحية وإحياء روح المقاومة والجهاد والتحرر من التبعية والوسائل الموصلة إلى الانحلال والتراخى ، هذه التى يفرضها النفوذ الأجنبى على مجتمع المسلمين حتى لا يكونوا قادرين على حماية أرضهم وعقيدتهم .

وعلى المسلمين أن يلتمسوا الوسيلة إلى وحدة جامعة ينسون فيها كل خلافاتهم فى الفروع ويتجمعون حول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وألاّ يجعلوا للفوارق الإقليمية والقومية والجغرافية أى أثر فى بقاء الخلاف ، فإنهم إنما يواجهون عدواً واحداً تجمع لإبادتهم وإزالتهم فعليهم أن يواجهوه مجتمعين، فليس من الغرابة فى شىء أن يكون الإسلام هو المبدأ المحدد لوحدة الشعوب الإسلامية ومُعِينَها على التجمع فى إرادة واحدة للنضال ضد القوى الخارجية .

ولا شك أن ما يعينها على ذلك هو تكشف خطط التآمر ، والمشروعات التى يجرى إعدادها لتدمير المفاهيم الإسلامية الأصيلة عن طريق التعليم والصحافة والمحكمة والمصرف الربوى .

وإذا كان المسلمون جميعاً موقنين اليوم بفشل التجربة الفردية فى العالم الإسلامى بما فيها القومية والعلمانية والليبرالية فإن التجربة الأخرى (الماركسية) قد فشلت تماماً فلم يعد أمام المسلمين منطلق إلا القرآن فهو وحده القادر على تمكينهم من إقامة المشروع الحضارى الإسلامى وبناء المجتمع الربانى .

* * *

الفصل الثانى

الضربات التى وجهت إلى الأمة الإسلامية

والآن : مـا هــى أبعـاد الضربة الجديدة التى توجـه اليــوم إلـى الأمـة الإسلاميـة والتى تأتى على نحو خطير تتجمع فيه كل القوى المعادية فى محاولة جديدة للقضاء على كل المكاسب التى حققتها الدعوة الإسلامية خلال خمسين عاماً حيث تلتقى الشيوعية والصهيونية والغرب المسيحى الليبرالى فى تحالف خطير.؟

تأتى هذه الضربة بعد محاصرة شديدة امتدت أكثر من أربعين عاماً وكانت الحملة الصهيونية هى الحلقة الثانية بعد الاحتلال الغربى الذى بدأ فى محاصرة العالم الإسلامى (أرخبيل الملايو – هولندا – الهند – بريطانيا) منذ القرن السابع عشر .

ثم جاء حصار الوطن العربى الذى بدأ من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ حتى أوائل الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) حيث سيطر النفوذ الأجنبى على المنطقة كلها وأعطى لليهود وعد بلفور كمقدمة لسيطرة اليهود على فلسطين حيث بدأت الحلقة الثانية : استعمار استيطانى يهودى لفلسطين تحت اسم دعاوى لم تثبتها الوثائق الحقيقية ، وفى محاولة توسع كبرى من النيل إلى الفرات .

وتتقاسم العمل على تدمير الوحدة الإسلامية : « القوى الغربية المسيحية ، والقوى اليهودية الصهيونية والقوى الماركسية الشيوعية » .

وتأتى الضربة الجديدة اليوم موجهة إلى الصحوة الإسلامية فى محاولة لاحتوائها وتدميرها ، من حيث هى عامل الخطورة الشديد على الكيان الصهيونى ، وعلى النفوذ الأجنبى بصفة عامة من خلال استغلال مفهوم الجهاد الإسلامى والإيمان العميق بالاستشهاد والتضحية فى سبيل تحرير الأرض وإقامة منهج الله تبارك وتعالى .

* * *

وكان القديس لويس – بعد هزيمته فى مصر فى الحملة الصليبية السابعة – أول من فكر فى اقتحام الإسلام بما أسماه (حرب الكلمة) بديلاً من حرب السنان وكان ذلك منطلقاً للعمل الذى بدأته أوربا مع المسلمين .

أولاً : أخذت مناهج التجريب والعلوم الإسلامية من طليطلة إلى قرطبة ، ثم ادعت أنها لم تأخذ من المسلمين شيئاً .

ثانيـــاً : استقطبت تراث الإسلام ووجهت الدعوة إلى القناصل فى كل بلاد العرب والإسلام لجمع كل تراث الإسلام واستطاعت أوربا أن تحصل على مئات الألوف من كتب المسلمين ثم حَرَمَت المسلمين من الانتفاع بها .

ثالثاً : وجهت الجهود إلى الجانب المضطرب من التراث وكلفت العاملين معها فى حقل التعريب بإحيائه ودفع المبعوثين المسلمين إلى جامعات الغرب للكتابة عنه وتجاهل الجوانب الإيجابية تماماً .

رابعاً : تدافعت قوى التبشير بالمسيحية إلى اقتحام مجتمعات المسلمين وركزت أساساً على إستانبول والقاهرة وبيروت وأقامت فيها جميعاً مراكز أساسية للغزو واستقبلت إرساليات كاثوليكية وبروتستانتية .

خامساً : أعلنت فى مؤتمرات التبشير المتصلة - (اقرأ : الغارة على العالم الإسلامى) الخطط التى أعدتها لتنصير المسلمين فى مدينة جاوه وأرخبيل الملايو خلال عشرين سنة وأن ينتهى من تنصير أندونسيا كلها فى الخمسين سنة القادمة واستغلت مؤسسات التبشير أحداث المجاعات والأوبئة والتصحر لإغراء المسلمين بالردة نظير الطعام .

سادساً : قام الاستشراق بالدور الأكبر فى تحريف مفاهيم الإسلام وقيمه وكل ما يتصل بتاريخه ولغته .

* * *

وكانت الخطوة الثانية أن طرحت فى مجتمعات المسلمين تحت تأثير النفوذ الاستعمارى (فكرة العلمانية) وأن الإسلام دين لاهوتى ، وكانت تجربة تركيا الكمالية هى السائدة حيث جعلت بمثابة نموذج تطبيقي للتجربة العلمانية ونشر كتاب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) بوصفه أزهرياً يُقرُّ أن الإسلام دين روحى لا دين حكم وفرضت على مجتمعات المسلمين القوانين الوضعية التى تقبل الربا والدعوة إلى تحرير المرأة وقبول مفاهيم فرويد وماركس ودوركايم وداورن من خلال نظام التعليم العلمانى .

* * *

وأخيراً فرض التصور الغربى على مختلف القضايا وعمل على إعلاء شأن البطولات والقيم الغربية والغض من شأن الإسلام وقيمه وتاريخه - يقول جارودى : إن الغرب خلال ألف سنة يعتبر أكبر مجرم فى التاريخ وهو اليوم بسيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية بلا مزاحم يفرض على العالم كله نموذجه فى التنمية الذى يؤدى فى الوقت ذاته إلى انتحار عالمى ، ويعوق إعادة التوازن إلى التعايش العالمى ونشر ظلال السلام والوئام فى هذا المجتمع البشرى .

إن غزوات الغرب البربرية (كغزوات روما لليونان والهون والمغول والتتار) التى هددت الحضارات آنذاك ، نجد المؤرخين يبدلون هذه التسمية عندما تكون هذه الغزوات من صنع الأوربيين فيصبح اسمها الاكتشافات الكبرى .

يقول ستندال : نحن الذين كنا برابرة تجاه الشرق عندما عكرناه بحروبنا الصليبية ونحن مدينون بما حصلنا عليه إلى عرب أسبانيا .

ويقول أناتول فرانس : اليوم الأشأم فى التاريخ : إنه يوم معركة بواتيه ، عندما تراجع الفن والحضارة العربية (الإسلامية) عام ٧٣٢م أمام البربرية الفرنجية .

وقد تضاعفت تهديدات الغرب للعالم الإسلامى على طرفى الإمبراطورية العربية ٧٥٠م (التتار في إيران وبغداد والنصارى في فلسطين وأسبانيا) - وقد بلغت الحضارة العربية الإسلامية خلال ذلك الذروة وحملت إلى الحضارة العالمية أول مساهمة رئيسية فى جميع مجالات الثقافة .

* * *

(٢)

وقد كان للنفوذ الغربى الاستعمارى الزاحف على الأمة الإسلامية ظاهرتان جديدتان فى المجتمع العالمى تلقيان بظلالهما على المجتمع الإسلامى .

الأولـــى : ظاهرة العدوان على أراضى الغير بالقوة واقتحامها بدعاوى زائفة باسم استخلاص قبر المسيح تارة وباسم إعادة بناء هيكل سليمان تارة أخرى .

الثانية : إعطاء الباطل صورة الحق واستعمال سلاح التزييف والتمويه والتلفيق والخداع ببراعة فى سبيل السيطرة، والاستعمار الغربى بمراحله الثلاث (غربيًّا وماركسيًّا وصهيونيًّا) هو الذى صنع هذا الأسلوب فى السطو على أراضى الأمم المستضعفة ونهب ثرواتها من

خلال نظريات تبريرية باطلة قوامها :

١ – الفروق الذهنية والعقلية بين الأمم البيضاء والأمم الملونة (وهى نظرية إعلاء الجنس الأبيض التى كذبتها الدراسات العالمية الجادة وكشفت زيفها) .

٢ – اجتياح الاستعمار للهنود الحمر فى أمريكا وتهجير أهالى أفريقيا إلى أمريكا وشراء الذمم والإبادة والنهب لمقدرات الأمم خلال أكثر من أربعمائة عام .

كل هذا دفع اليهود تحت ضغط الاضطهاد الذى واجهته جموعهم فى شرق أوربا وفى روسيا بالذات إلى العمل على السيطرة على وطن عربى إسلامى تحت خداع العناوين وإطلاق دعوى باطلة مضللة عن ميراث تاريخى قديم .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف :

أولاً : جرى تغيير منطلق التاريخ والتأثير على دوائر المعارف العالمية بالإخفاء والإظهار – إخفاء دولة الخزر ، وإظهار حق كاذب فى فلسطين ليهود ليسوا من بنى إسرائيل وتجنيد القوى فى سبيل هذه الغاية ، وقد تضافر على هذه الدعاوى الحكام الأوربيون والبابوات والحاخامات وقد عملوا جميعاً على إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق وحدة الأمة .

وكان أخطر مخططات الكيد والتآمر على الأمة الإسلامية هو التواطؤ على الخلافة الإسلامية بين القوى النصرانية واليهودية وقد جاء القضاء على الخلافة الإسلامية نتيجة لخطة صليبية يهودية عشية انتهاء الحروب الصليبية (٦٩٠ هـ) (كما يقول أحد مؤرخيهم (ديجوفارا) الذى ذكر أن أصل العداوة المزمنة التى يشعر بها الأوربيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد بين النصرانية والإسلام .

ومن هنا كان ذلك العمل الخطير الذى حول تركيا العثمانية الإسلامية إلى دولة علمانية تلغى الخلافة واللغة العربية والشريعة الإسلامية والمحاكم الشرعية وتمنع حجاب المرأة وتعدم مئات العلماء .

وفى الوقت الذى تم فيه الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤ – أن تطلق إحداهما يد الأخرى فتأخذ انجلترا مصر وتأخذ فرنسا تونس – تم اعتماد اتفاقية خطيرة أخرى هى اتفاقية سايكس بيكو، وهذا اتفاق متمم للاتفاق الرئيسى الذى تم بين الدول الثلاث (انجلترا – فرنسا – روسيا) الذى قضى بتقسيم الدولة العثمانية الإسلامية وتوزيع سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر والمغرب فيما بينها ، وقد بقيت هذه الاتفاقية سرية لم يسمع بها المسلمون إلا فى عام ١٩١٧ عندما استولى الشيوعيون على السلطة فى

روسيا، ونشروا نص الاتفاقية .

وجاء وعد بلفور عام ١٩١٧ متمماً للمؤامرة التى بدأت أولاً بقتل اليهود لقيصر روسيا الذى كان يعمل على صهرهم فى المجتمع الروسى ، وقد وعدت بريطانيا (اللورد بلفور) اليهود بالعمل على إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين .

وكان لابد من إعلاء النزعة القومية بإحياء الطورانية فى الدولة العثمانية ، وإقامة الدول على أسس علمانية وذلك فى سبيل إدخال القومية اليهودية ، وكان لابد من إسقاط الخلافة لإقامة إسرائيل .

ومن ثم برزت الدعوات العنصرية والإقليمية : العربية والكردية والفينيقية والآشورية والبابلية والزنجية والبربرية .. إلخ .

ثم كان ظهور المد الشيوعى لكى يشكل مع التواطؤ النصرانى اليهودى حلقة كاملة تلتف حول عنق المجتمع الإسلامى محدداً دور اليهود فى التاريخ الإسلامى من سقوط بغداد وحرب التتار إلى الحروب الصليبية . ومضت التيارات الثلاثة (الشيوعية - النصرانية - اليهودية) تعمل عملها، وبرز طابع الصراعات القبلية والعرقية ، وعملت إسرائيل على احتضان الأقليات الدرزية والنصيرية والبهائية والقاديانية .

وجاءت حركة الاستشراق لتلقى بالمفتريات والأباطيل فى محيط الفكر الإسلامى ومصادره وتاريخه ، وكان أغلب المستشرقين سفراء للنصرانية العالمية فى المعاهد والجامعات ومعاهد البحث العلمى .

وقال لسيوس أحد كبار مؤسسى الإرساليات التبشيرية : يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب الإسلامية ليست مجرد خلافات بين دول وشعوب ، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية ، لقد كان الصراع محتدماً بين المسيحية والإسلامية منذ القرون الوسطى ، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة .

* * *

كان المخطط الذى أجمعت عليه القوى المعادية للإسلام هو تقطيع أوصال الإسلام وأمة الإسلام ، وتقسيم المسلمين إلى شعوب شتى ينتمى كل منها إلى أرضه وجنسه ويكون ولاؤه لقوميته الجديدة وإخضاع مناهج التربية والتعليم لهذه التجربة ، وإنشاء أجيال جديدة لا تعرف الوحدة الإسلامية الجامعة ، والعمل على سحق الأقليات الإسلامية حيث كانت ، وإهالة التراب عليها وتدليل الأقليات الأخرى وتضخيمها . وكان المخطط كالآتى :

أولاً : أثاروا القومية ليضربوا الشعور الإسلامى ، وأثاروا الإقليمية الوطنية ليصرفوا الشعور العربى ، وليضمنوا بقاء إسرائيل فى ظل التناقض الذى أوجدوه بين أجزاء الوطن الواحد .

ثانيــاً : عملوا على استدراج المسلمين إلى حروب غير متكافئة ، لإنهاك قواهم وعدم إعطائهم الفرصة لاسترداد الأنفاس .

ثالثــاً : إحياء مؤامرات القرامطة والزنج والمزدكية والمانوية ووصفها بأنها حركة عدل وحرية .

رابعــاً : إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى والوحدة الإسلامية .

خامساً : مهاجمة المماليك والأيوبيين والعثمانيين لأنهم هم الذين حطموا أحلام القوى الغازية .

سادساً : محاولة الادعاء بأن الحملة الفرنسية هى مبدأ اليقظة الإسلامية .

سابعاً : تمجيد أعداء الإسلام القدامى والمعاصرين أتاتورك وأكبر شاه .

ثامناً : إثارة الشبهات حول بطولات صلاح الدين وبيبرس ومحمد الفاتح .

* * *

كذلك عمدوا إلى وصف الإسلام بأنه ثورة ضمن الثورات العديدة التى قام بها الإنسان على مر التاريخ من حيث إن الثورة ترتبط بعصر وبيئة وتمر بمراحل عديدة تتجدد وتتبدل ، وليس كذلك الإسلام الذى لم يجئ نتيجة ظروف اجتماعية معينة ، ولكنه كان منهجاً ربانيًا قادراً على العطاء فى مختلف البيئات والعصور، ولذلك لم يكن الإسلام نظرية ولا ثورة .

وإذا كان من أكبر مطامح النفوذ الأجنبى فى غزواته المتوالية وحصاره وضرباته هو احتواء الإسلام وتفريغ العقل المسلم من قيمه الأساسية ومفاهيمه وتزييف عقيدته فإن هذا الهدف قد تحطم تماماً .

ذلك أن ظهور الحركة الإسلامية بعد سقوط الخلافة بأعوام قليلة (١٩٢٤ – ١٩٢٨) كان علامة بارزة على صدق عطاء الإسلام فى قانونه الخالد وقدرة الإسلام على تصحيح مسيرة أهله ، وإعادتهم إلى الطريق الصحيح ، فقد كان سقوط الخلافة يعنى حجب الشريعة

الإسلامية عن المجتمع الإسلامى كله بعد أن حجبت قبل ذلك بسنوات فى أندونيسيا (١٦٥٥) والهند (١٨٥٦) ثم فى الجزائر (١٨٣٠) ومصر والسودان وتونس فيما بعد ، وكانت صيحة الحركة الإسلامية ممثلة فى كلمة واحدة هى :

تصحيح المفهوم الإسلامى ، وهو أن الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة ، وقد ترتب على اعتناق هذا المفهوم تغييرات كثيرة .

وقد انتقل هذا المعنى إلى أقصى المشرق الإسلامى ثم إلى أقصى المغرب الإسلامى كالنار فى الهشيم ، يصحح وضعاً حاول النفوذ الأجنبى فرضه وإرساءه بمختلف طرق الترهيب والترغيب ، فلما تبين فساده وانهياره أزعج ذلك أعوانه الذين ظنوا أنهم قد حطموا قاعدة الإسلام الأساسية وأن تغريب الأمة الإسلامية بدا أمراً محتماً ، وجاءت هزيمة التجربة الغربية ثم التجربة الماركسية فى البلاد الإسلامية تجر أذيال الفشل ولم يستطع الفكر القومى أو الفكر الماركسى أو الفكر العلمانى أن يحقق نجاحاً يذكر ، وأنفق فى سبيل دعم هذه المخططات ما أنفق دون أن يجنى أصحابها إلا حصاد الهشيم وقبض الريح ، واستطاعت الحركة الإسلامية أن تقدم فى مرحلة أولى كثيراً من مدافعات السموم التى نشرها الاستعمار والاستشراق ، ثم أخذت منذ وقت فى بناء المناهج الإسلامية الأصيلة فى مجال الاقتصاد والأدب والاجتماع والتربية .

ولكن الطريق مازال طويلاً ولا تزال المؤامرة قابضة على ناصية الأمة الإسلامية .

وبعد أربعة عشر قرناً من نزول الرسالة الخاتمة (الإسلام) نجد أن المسلمين الآن يزيد تعدادهم على ألف ومائتى مليون مسلم فى مختلف أرجاء الدنيا من أقصاها إلى أقصاها .

وقد أعطى المسلمون – من أجل أنهم يحملون الأمانة فى العالمين اليوم – الموقع الجغرافى الاستراتيجى والثروة والطاقة والتفوق البشرى غير أن توجهات هذه القوى الثلاث لا تزال محتواة من النفوذ الغربى بحيث لم يعد أهلها قادرين على الاستقلال بها أو جعلها على طريق دعوة الحق .

ولا يزال المسلمون فى صراع وحروب وقتال وجهاد مع أعدائهم الذين يحاولون السيطرة عليهم وعلى مقدراتهم .

ولقد تكشفت اليوم أبعاد المؤامرة التى رسمها النفوذ الأجنبى بقواه الثلاث (الغربية والصهيونية والماركسية) وأصبح من واجب المسلمين أن يستثمروا قواتهم وثرواتهم فى إحباط مخططات أعداء الإسلام .

فأعداء الإسلام لا يتوقفون اليوم عن المؤامرة ، ولابد من حشد كل القوى تحت اسم فريضة الجهاد والرباط فى الثغور لمواجهة العدو والقدرة على ردعه وعدم تمكينه .

وأخطر ما يواجه المسلمين اليوم هذا التوسع الصهيونى الطامح إلى إقامة دولة عنصرية من النيل إلى الفرات وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى .

إن أخطر ما يتمثل فيه هذا الموقف اليوم : هو التقاء النظامين اللذين يحكمان العالم ويتقاسمان دوله على عقد حلف ضد الإسلام للحيلولة دون تمكينه من أن يكون له وجود سياسي حقيقى على الأرض بحيث يستطيع أن يقيم دولته التى تمثل نظامه ومنهجه ، وضربه فى أرضه بحيث تكون إسرائيل هى أداة قمعه والإدالة منه ، وذلك بدفعها إلى تنفيذ برنامج اسرائيل الكبرى والحيلولة دون وحدته أو امتلاكه إرادته ، والاستفادة من الجو الذى هيأته السنوات العشر الماضية بعد معاهدة كامب ديفيد من تقبل أسلوب التراجع فى الوقت الذى يصر فيه اليهود على تنفيذ مخططهم التوسعى والاستيطانى باستجلاب ملايين جديدة من شأنها أن تطرد أصحاب البلاد الأصليين .

ومن أجل إخضاع المسلمين والعرب لهذه السيطرة الصهيونية الغربية واستبقاء مقدرات الأمة الإسلامية فى أيدى الغرب يجرى فرض مفاهيم زائفة فى تحليل الوقائع وعرض المسائل سواء فى مجال الاقتصاد أو السياسة أو الحكم على نحو يحجب تماماً المقومات الحقيقية للتصور الإسلامى ، وبحيث ينخدع المسلمون والعرب ويتعاملون مع الغرب بأساليبه ومفاهيمه التى احتوتهم ، وأبرز هذا كله تفريغ التصور العربى من مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة من ناحية والجامع بين إعداد القوة والقدرة على الردع والمرابطة وبناء الشباب على روح النضال والجهاد والكفاح والاخشيشان ، حيث تفرض الصحافة ووسائل الترفيه والإعلام برامج ومفاهيم ومسرحيات ومسلسلات وقصصاً كلها تحمل صور الانحلال والعبث والجنس وأدب الفراش واستعلاء الترف الكاذب والأمن الخادع بهدف إدخال الوطن العربى فى حالة من الاسترخاء الشديد بحيث لا يستيقظون إلا على الضربة القاضية التى تعد الآن لتوجه إليهم .

وليس هناك خطر أشد من السيطرة على اقتصاد الوطن العربى وتدميره وتحويله إلى هدف الاستهلاك ، بحيث تستنفد كل هذه الثروات الضخمة دون أن تحقق ثوابت حقيقية تمكن العرب والمسلمين من بناء حضارتهم من جديد .

إن أخطر المحاذير التى تواجه المسلمين والعرب اليوم هو الخوف من أن يستسلموا إزاء ما يسمى بالسلام الخادع الذى يبيت لخطوات واسعة من السيطرة .

ولذلك يجب أن تحشد الجهود فى البلاد العربية والإسلامية كلها لفهم حقيقة المرابطة والحفاظ على الأرض من غارات الأعداء والاستعداد النفسى لهذا بوصفه جهاداً فى سبيل الله؛ الفريضة القائمة إلى يوم القيامة، فإن لم يفعل المسلمون ذلك فإنهم سيجتاحون تماماً .

إن محاولة تصفية مناهج الدراسة من حقيقة الغزو الاستعمارى والصليبى والصهيونى ستخرج أجيالاً تقبل الفكر المعادى الذى سيدمر مفهوم الإسلام الأصيل .

إن محاولة حذف معركتنا مع الصهيونية من المقررات التاريخية وإحلال خرائط توضع فيها كلمة إسرائيل بدلاً من فلسطين وحجب الجانب التاريخى من معركة الرسول ﷺ مع اليهود فى يثرب بعد الهجرة . . كل هذا من الأمور الخطيرة البالغة الخطر .

* * *

إننا فى ضوء هذه الحقائق التى قدمناها ندعو إلى يقظة واعية وأصالة قادرة على حماية الصحوة من محاولة إجهاضها أو تدميرها .

إن هناك وثائق بريطانية وغربية تؤكد قلق الغرب من أى تكتل إسلامى ، فالقوى الغربية والصهيونية تخشى وحدة المسلمين .

وقد كشفت الوثائق البريطانية عن تخوف القوى الكبرى فى العالم من وجود أى تكتل إسلامى محايد لا يرتبط بالقوى الغربية لقد حققت الثورة الإيرانية دوياً هائلاً فاق كل التقديرات التى توقعتها القوى العالمية .

إن معنى نجاح الثورة الإيرانية هو أن الإسلام يعود من جديد ولذلك تآمرت كل القوى عليها .

يقول الدكتور فردنان بردويل :

إن العالم الإسلامى يقف بين كتلتين من النار هما العالم الرأسمالى والعالم الشيوعى ، وإن الصحوة الإسلامية الراهنة تصطدم بمجموعة من المشكلات العصبية والاقتصادية والاجتماعية وهذه المشكلات يتداخل بعضها فى بعض حيث يبدو من المستحيل تناولها واحدة واحدة ، ولكن أخطر المشكلات التى تواجه الحضارة الإسلامية فى صحوتها هى أن التقنية سواء أسندت إلى الماركسية أو إلى الرأسمالية تقدم نفسها على شكل دائرة نار ، وعلى المسلمين اجتيازها فى قفزة واحدة .

* * *

ولكن الواضح اليوم أن الغرب قد أقفل الباب فى وجه المسلمين دون الحصول على التكنولوجيا التى تمكنهم من الصناعة الثقيلة ومن بناء حضارتهم ، وذلك فى محاولة مستميتة ليصهرهم فى بوتقته ، وفى الوقت نفسه يمتص فوائض أموالهم وثرواتهم ويدخرها فى خزائنه ثم يقرضها لمن هم فى حاجة إليها بأعلى أرقام المرابارة، فضلاً عن شروط السيطرة والتبعية ، ولكن الموقف اليوم غيره بالأمس .

فقد وعى المسلمون أبعاد المؤامرة التى تدبر لهم منذ ظهور الإسلام حتى اليوم والتى تتوالى فى حلقات متتالية ، فما أن يغفل المسلمون عن منهجهم وتشغلهم متارف الدنيا وأهواؤها حتى يسلط الله عليهم من ينتزع ملكهم ، فيدوروا فى حلقة مفرغة من التبعية ، حتى ينتبهوا إلى الحقائق الأصيلة التى بها تقوم الأمم وتنهض – وهى العودة إلى المنابع .

ونرجو أن يكونوا قد وصلوا اليوم إلى هذه المرحلة وقد أخذوا أهبتهم لتطبيق نظامهم ومفاهيمهم الأصيلة .

* * *

الفصل الثالث

أبعاد المؤامرة على الإسلام

هذه الأمة الإسلامية بالرغم من كل ما وجه إليها خلال أربعة عشر قرناً فإنها لم تمت ولن تموت ، وما من أزمة ألمت بها إلا تجمعت وانتفضت وتجاوزت التحدى وأعادت تشكيل حياتها من جديد .

واليوم تتجمع حولها التحديات وتتشكل المؤامرة هذه المرة فى صورة ماكرة معقدة تعقد الحضارة الحديثة ومعطياتها فى تسديد الضربات وفى أساليب التمويه والخداع ، حيث يتجمع اليوم القوى الغربية والمسيحية والصهيونية والماركسية لضرب الإسلام ضربة واحدة قاتلة ، ولكنها عجزت عن ذلك ، وما زالت عاجزة وسوف لا تستطيع مهما حاولت لأن الأمة عرفت خطأها وبدأت رحلة العودة إلى الله من جديد .

وعلى المسلمين أن يكونوا دائماً على وعى لما حذرهم منه القرآن الكريم حين دعاهم إلى التوقى من خطر الأعداء فى آيات كثيرة وأحاديث نبوية عديدة .

﴿ **خذو حذركم** ﴾ [النساء : ٧١] ، ﴿ ... **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً** ... ﴾ [النساء : ١٠٢] .

ولقد آن للمسلمين أن يعلموا من أين يؤتون :

إنهم كل مرة يؤتون من ثغرة واحدة هى : التوهين فى الاستمساك بالقيم الإسلامية والحدود التى رسمها وأقامها الإسلام .

ولم يبق بعد كشف ما يراد بهم إلا أن يعملوا وأن يتحركوا فى اتجاه تصحيح طريقهم والتماس منهج ربهم .

لقد حاول المسلمون التماس منهج النهضة عن طريق العلمانية ففشلوا ، وعن طريق القومية فضلوا ، وعن طريق الاشتراكية فهزموا ، ولم يعد أمامهم إلا طريق واحد هو طريق الإسلام بمفهومه الجامع الأصيل .

وذلك حتى يستطيعوا ردع خصومهم واسترداد أرضهم وإزاحة عدوهم .

إن الإسلام دين سلام ورحمة ، ولكنه فى نفس الوقت دين قوة ، أمر أهله بإعداد القوة لا ليعتدوا على الآخرين بل ليدافعوا عن أنفسهم ويرغموا أعداءهم أن يلزموا حدودهم .

إن السلام الذى يدعو إليه الإسلام هو السلام الذى تحميه القوة لأن القوة هى أكبر ضمان لتحقيق ذلك السلام والمحافظة عليه ، فإعداد القوة التى ترهب العدو واجب مستمر فى السلم والحرب على حد سواء .

إن على المسلمين دائماً أن يمتلكوا زمام المبادرة فالذى يملك المبادرة يحرم خصمه من حرية العمل ويجعل أعماله محصورة فى نطاق رد الفعل ، ولا ريب فى أن إحراز المبادأة هو من أهم عوامل النجاح والنصر فى السلم والحرب على حد سواء .

ولا ريب أن اندفاعة الدعوة الإسلامية بقوة قد جاءت كرد فعل لسقوط الخلافة أساساً ، ولذلك فقد كان مطمحها الأكبر هو إعادتها .

وإذا كان سقوط الخلافة قد جاء نتيجة للعلمانية فى مصر وتركيا التى حجبت الشريعة الإسلامية فإن سقوط الخلافة كان مقدمة لسقوط فلسطين والقدس .

ومن هنا كان هناك ترابط تاريخى خطير بين الخلافة والقدس والشريعة .

لقد فتحنا أبصارنا فى أوائل الشباب على هذه القضية الخطيرة التى لا تزال تتسع دوائرها، وتمتد حتى شملت وجود الأمة الإسلامية كقضية أساسية تتعرض للخطر من عدة جوانب فى محاولات لاحتوائها ثم صهرها فى بوتقة الأممية العالمية ، ومن هنا فإذا كان هناك مطمح لباحث مسلم بعد خمسين عاماً من العمل فى مجال الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامى فهو تحقيق استعادة المجتمع الإسلامى للشريعة والأمة الإسلامية للقدس والإسلام للخلافة .

واليوم بين كل خمسة من أهل الكرة الأرضية مسلم حيث يشكل المسلمون ثمانين فى المائة مما يسمى بالعالم الثالث .

وتبقى الأمة واحدة ما بقيت رسالتها رغم حالات الانحطاط العارضة ، ورسالتنا مكفولة بحفظ الله .

وإذا كانت الماركسية قد سقطت اليوم فإن الفرويدية والوجودية ومفاهيم علم الاجتماع (دوركايم) وغيرها قد سقطت جميعها ، وقد تكشف مدى خطرها وفسادها واضطرابها ، وإنما جاء سقوط الماركسية اليوم ليؤكد أن الفكر البشرى الذى

صنعته عقول وأهواء مفكرى الغرب السكارى بخمر الاستعلاء والاندفاع وراء الشهوات والأهواء والمطامع قد سقط تماماً ولم يعد يستطيع أن يحقق أى سعادة للنفس الإنسانية ولا طمأنينة لها ولا إيمان ، وقد تأكد أن هذه المفاهيم جميعاً مصدرها التلمود والتوراة التى كتبها الأحبار والتى صدرت عن حقد اليهود على البشرية كلها وطمعهم فى السيطرة عليها وإذلالها وفرض إمبراطورية الربا على العالمين .

* * *

إن أساس الأزمة التى يمر بها العالم اليوم هو محاولة فرض عنصر غريب على منطقة الشرق الأوسط ، ولا شك أن كل ما يشهده الوطن العربى اليوم من مآس وأزمات سواء فى لبنان أو إريتريا أو جنوب السودان أو فلسطين المحتلة ، إنما يعود كله إلى شئ واحد هو هذا (العنصر الغريب) الذى غرسه الاستعمار واستطاع أن يسيطر على رأس جسر فى قلب الأمة الإسلامية ومعه مطامعه فى التوسع ومشاريعه فى تفتيت وحدة الوطن وإثارة الحزازات والصراعات بين الأديان والقوميات وإحياء الفرق الضالة فى محاولة للوصول إلى الهدف الحقيقى الذى ما زال يعمل له خلال الأربعين عاماً بالتآمر والعنف والإرهاب واحتواء العقليات والنفوس والسيطرة على المصادر القيادية هنا وهناك من أجل إقامة إسرائيل الكبرى

وتظهر آثار ذلك كله واضحة فى محاولة تغريب التعليم والتربية والثقافة وتزييف وقائع التاريخ وحجب مواقف المقاومة الإسلامية على مدى العصور فى وجه الزحف الصليبى والتترى والاستعمارى والصهيونى والماركسى من أجل تنشئة أجيال جديدة خالية من الإيمان بوطنها ودينها وأرضها وعقيدتها وقيمها ، يمكن احتواؤها وصهرها فى بوتقة الحضارة المادية ومجتمع الأممية وإزالة روح الإسلام ودفع المجتمعات كلها نحو العلمانية والتفكك الاجتماعى والانهيار الأخلاقى .

* * *

نحن الآن نعيش عصر الحصار الصهيونى الشيوعى الغربى ، وهو الحصار الذى استطاع أن يسيطر على فلسطين وبيت المقدس بمؤامرة قامت بها القوى الكبرى لفرض عنصر غريب فى قلب الوطن الإسلامى (مسرى رسول الله ﷺ والقبلة الأولى - وعلى بعد مرمى حجر من المدينة المنورة والكعبة المشرفة) ، وذلك للحيلولة بينه وبين امتلاك إرادته أو قيادة الحضارة العالمية بعد أن ظهرت علامات انهيار الحضارة الغربية وسقوطها ، وتولى الصهيونية واليهود

السيطرة على العالم من خلال بروتوكولات صهيون بمقدمة كيان يمتد من النيل إلى الفرات، وقد مضت الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى أعلى ذروتها فى سبيل إنشاء هذه الإمبراطورية ومن ورائها النفوذ الغربى كله والأمريكى بالذات ، والوسيلة إلى ذلك فرض السيطرة الاقتصادية على الوطن العربى وفرض النفوذ الفكرى والثقافى واحتواء الفكر الإسلامى وتزييف قيمه لإخراجه من خصوصية الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، وفرض مفاهيم الغرب الليبرالية الماركسية العلمانية القائمة على المادية والإباحية والوثنية والتحلل من كل القيم والاستعلاء على البعد الربانى والبعد الأخلاقى للحضارات الإنسانية ولذلك فقد كان الشغل الشاغل لجيلنا الذى تسلم ميراث الدعوة الإسلامية من الأبرار الذين خطوا بها حتى أوصلوها إلينا هو بالدرجة الأولى إقامة الثوابت وبناء البدائل الإسلامية والتأصيل الإسلامى لكل القيم والمقومات حتى يكون ذلك عاملاً أساسياً قادراً على بناء قاعدة التغيير التى تحقق تمكين المسلمين من امتلاك إرادتهم وفرض وجودهم فى مجتمعهم والتحرر من التبعية والحصار الذى تفرضه الليبرالية والماركسية والصهيونية ، ليكون ذلك مقدمة لإرساء قواعد المجتمع الإسلامى الأصيل القادر على تبليغ الإسلام لكل أهل الأرض ، وتقديم دين الله تبارك وتعالى للعالمين .

إن السر الإلهى الذى أعطاه الله تبارك وتعالى للمسلمين والذى يفتح لهم أبواب الدنيا هو الترابط بين تكامل العقل والوحى وجعل العقل تحت سلطان الوحى وعدم تعارضهما .

إن مهمة الإسلام الحقيقية هى إخراج البشرية من عالم التجسيم إلى عالم التجريد القائم على الإيمان بالغيب وتكامل عالم الروح وعالم المادة .

* * *

إن حاجتنا اليوم إلى فهم أبعاد المؤامرة على الإسلام يتطلب منا تعمق الأحداث ، والنظر إلى ما وراء النصوص ، والحذر من العبارات البراقة الخادعة ، يقول زعيم الحزب الإسلامى فى بريطانيا السيد داود موسى بن كوك : إن الإسلام هو العدو الجديد للكتلتين المستجدتين ، وهما فى الحقيقة كتلة واحدة ، وما يهمهما هو صناعة السلام ، وأن النظام والبنك العالمى هو نظام قارونى شيطانى ليتحكم فى جميع الشعوب حالياً ومعظم البنوك فى أوربا وأمريكا وألمانيا هى بنوك خاصة لا تتبع الدولة بل تتبع عائلات هؤلاء الذين يتحكمون جيداً فى مصائر الشعوب والحكومات ، ويتحكم الصهيونيون من خلال الماسونية العالمية فى مصائر تلك الشعوب .

وإن مشكلتنا فى الشرق أننا لم نعرف عدونا جيداً وحتى الآن لا أعتقد أننا نفهم أبعاد المؤامرة الدولية .

إن التحالف الصليبى التترى اليهودى الذى قام قبل إسقاط بغداد عام ٦٥٦ هـ مازال يتجدد الآن وبعد سبعة قرون فى صور جديدة ، ومازال قوامه الغرب واليهود ، وما زال مسرحه العالم الإسلامى والأمة الإسلامية .

واليوم تسقط الشيوعية كقوة دولة وتنفرد أمريكا بالزعامة العالمية إلى حين ، وهى تؤيد إسرائيل وتضمن لها تفوقها على العرب مجتمعين ، وتحول دون اتخاذ قرار ضدها ، أوتمكين العرب من امتلاك القوة القادرة على تحجيمها أو إزالتها ، ولكن ذلك كله إلى حين .

إن أخطر ما ينميه النفوذ الغربى ويتضح فيه هو إعلاء القومية الضيقة على نحو غريب يكاد يشبه القداسة وذلك حتى لا تنشئ الأقطار العربية الإسلامية رابطتها الإسلامية الجامعة التى هى وحدها منطلق قوتها .

وفى مصر نحن نعلى من شأن كلمة مصر والمصرية إلى درجة تشبه الوثنية أو العبادة وكأنما نحن مطالبون بأن نعبد مصر من دون الله .

ونحن ننسى فى ضوء هذا التوجه الكاذب أننا نهدم رابطة طولها أربعة عشر قرناً ، وعمقها الإسلام وعقيدته ومنهجه الذى هو ضوء حياتها ومنهج طريقها ، إيماناً بأن مشروع النهضة لا يقوم إلا فى ظل الوحدة الإسلامية ، وأن الوحدة الإسلامية لا تقوم إلا بتطبيق المنهج الإسلامى ، فهو وحده القادر على تجميع المسلمين تحت لواء الوحدة .

هذا الإيمان يتطلب بناء الأجيال الجديدة على منهج التربية الإسلامية وبروح الجهاد ، والنضال وحماية الثغور ، والتحرر من كل عوامل الانحلال والترف والمطامع والأهواء .

ويجب أن تكون الأمة الإسلامية عارفة بالمخاطر والمحاذير التى تحيط بها ، والمؤامرة الخطيرة التى تدبر لاحتوائها وصهرها فى بوتقة التبعية للغرب من خلال التعليم والثقافة والصحافة وأدوات الإعلام فى ملاحقة شديدة لإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم وأخلاقهم وصهرهم فى فكر مدمر .

ومن هنا فنحن يجب أن نكون على يقظة دائمة وألا نغفل لحظة واحدة عن الخطر الذى يواجهنا ويتحدانا .

ولقد كانت الأمة الإسلامية دائماًعرضة لهذا التحدى الذى لم يتوقف يوماً منذ بزغ فجر الإسلام وكان سببه فى العصر الأخير تهاوننا فى التمسك بمنهج الله ، وانتقالنا من العزائم

إلى الرخص ، واستسلامنا إلى الدعة والترف ، وتجميد قوتنا العلمية فى مواجهة الخطر ، وتناسى بأس العدو وخطره الذى يفتح الباب دائماً أمام تعرية ضعف الأمة ، والذى يمكن خصومها من ضربها فى مواقع الضعف . وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخطر .

﴿ .. **لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ..** ﴾ [الممتحنة : ١]

فنحن مطالبون باليقظة والمرابطة والقدرة على الردع وامتلاك السلاح وتنمية الموارد حتى نكون قادرين على بناء اقتصاد إسلامى حر .

* * *

إن االإسلام اليوم يتحرك فى قوة وثقة سواء فى المحيط الداخلى للأمة الإسلامية أو فى المحيط الخارجى حيث تتجه إليه الأنظار بين الذين يخشون تناميه وارتفاع مده وبين الذين يتطلعون إليه كمنقذ للبشرية .

إن سر هذه الصيحات العصبية هى أن المسلمين فهموا حقيقة الإسلام ورسالته ومهمته ، وأزاحوا ذلك المفهوم المغلوط المضلل الذى أمضى المستشرقون أكثر من قرن من الزمان يخدعون المسلمين به عن الحق ، سواء بقدرتهم فى مجال السيطرة السياسية بحجبه عن المدرسة والمصرف والمحكمة (التعليم والاقتصاد والقانون) ، أو بمغالطاتهم ومؤامراتهم عن طريق المناهج التعليمية والثقافية والصحافة وأدوات الترفيه والإعلام .

ومن هنا فإننا لا نعجب حين نرى جريدة « الصنداى تلغراف » البريطانية تنشر هذا العنوان المثير :

الإسلام قادر على تغيير أى نظام ديكتاتورى مهما بلغت قوته ، وأنه لأول مرة يوجه الدول الإسلامية إلى الشريعة بعد فشل الاشتراكية والديمقراطية (والقومية أيضاً) .

ويقول بشر العوف : إنه بعد انهيار الشيوعية الدولية فإن الحقد الصليبى التاريخى سيتفرغ لمحاربة الإسلام فكيف سنجابه حرب عدل وأمن وسلام ومحبة .

إن هناك كتابات غربية متعددة تقول إن الخطر القادم سيأتى من الإسلام ، إن خوفهم من مستقبل الإسلام على نفوذهم فى العالم يدفعهم الآن إلى خطوات عصيبة وفى مقدمتها السيطرة على منابع النفط وإقامة قواعد عسكرية فى الجزيرة العربية والخليج .

إن الغرب الآن يدبر مؤامرات جديدة ليقف فى وجه الإسلام الزاحف، ولكن المسلمين

الذين حاول الغرب صهرهم فى بوتقته وتدمير قدراتهم على المقاومة والردع، يعودون من جديد إلى استخلاص عبرة التاريخ، يلتمسون منهج الله تبارك وتعالى ليجدوا فيه الملاذ والمنطق .

العودة إلى الوحدة الإسلامية الجامعة ، والعودة إلى الشريعة وإعداد المجتمع الإسلامى ليكون قادراً على حسم الموقف مع الصهيونية والاستعمار والشيوعية .

وإن الجسم الغريب سيلفظه الكيان الإسلامى مهما طال الزمن ولا تستطيع أية قوة على الأرض أن تتجاوز حتمية انتصار الحق .

لقد استغرقت الحروب الصليبية مائتين من السنين دون أن تبدو – ولو لحظة واحدة – على رجال المقاومة المجاهدين أية لمحة من اليأس أو التشاؤم أو إلقاء السلاح بل ظلوا يقارعون العدو التترى والصليبى فى آن واحد بالنفس القوى ذاته ، وتسلمت الأجيال الراية جيلاً بعد جيل ، حتى أذن الله تبارك وتعالى بزوال العدوان وجلاء آخر غاز صليبى عن أرض الإسلام .

إن بناء صناعة الموت وعقيدة الجهاد فى سبيل الله فى الأجيال الجديدة هى مفتاح النصر على مقاييس الإسلام نفسه .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

لنكن على يقين من أن رب العالمين لا يسوق النصر جزافاً فلا يجعل النتائج السليمة تخرج من مقدمات مختلفة ، بل لابد من تنظيم المقدمات حتى تعطى نتائج صحيحة .

والدين هنا واضح فى أن لله تبارك وتعالى سنناً فى الكون لا تتخلف، وإذا كان علماء الهندسة مثلاً يقولون : إن مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين ولا يمكن إلا تحقق ذلك فهذه حقيقة رياضية ومن الحقائق الاجتماعية أن الأمة التى تجمع بين التقوى والصبر لابد أن تنتصر فإن فقدت التقوى وسادها الجزع والشر وطلب اللهو فإنه لابد من أن تنهزم وهذه القوانين تساوى فى قوتها القوانين الرياضية، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ [فاطر : ٤٣] .

ويقول الشيخ محمد الغزالى : يجب أن ندرس التاريخ الإسلامى على أننا ما هَزَمَنَا أعداؤنا ، وإنما هو تاريخ أمة فرطت فى أمر الله فعوقبت ، وقد بذل أعداء الإسلام جهودهم لينسى المسلمون تاريخهم ، ومن هنا فلكى يكون التاريخ صحيحاً لابد من استيعاب الحقائق .

أمر ثالث خطير هو محاكمة وقائع التاريخ للتوجيهات الإلهية ولا يدرى تاريخ المسلمين غير المسلمين .

وعلى المسلمين أن يتحرروا من خطر الانحلال والترف فقد كان هو مصدر الهزيمة فى تاريخ المسلمين كله ، ولابد من قيام الأمة فى مرحلة الخطر بالعزائم والاخشيشان ، والحذر من خطر الغزو والمرابطة فى الثغور والقدرة على الردع ، وتقديم النفوس والأرواح والأموال رخيصة فى سبيل الدفاع عن وجود الأمة الإسلامية وحماية عقيدتها .

* * *

ملاحق البحث

(١)

بين الإمبراطورية الرومانية والإسلام

١ - سلخت الإمبراطورية الرومانية ألف عام من الزمان حتى نمت واتسعت وبلغت نضجها السياسى فى حين أن الإمبراطورية الإسلامية تكونت فى ثمانين عاماً وقد تم سقوط الإمبراطورية الرومانية وانهيارها بصورة تامة على يد الهون والقوط خلال قرن واحد ولم يبق منها سوى بضعة معالم من الأدب والبناء .

٢ - أما الإمبراطورية الإسلامية فقد استشرى فيها الانحلال البطئ الذى استغرق أكثر من ألف عام ولم يتم الانهيار السياسى نهائيًا الذى يتمثل فى إلغاء الخلافة العثمانية والتفكك الذى نشهده اليوم فى البناء الاجتماعى الإسلامى إلا بعد سلسلة طويلة من المؤامرات الدولية ذلك أن التماسك الاجتماعى فى العالم الإسلامى أرقى من أى شىء عرفه الناس عن طريق التنظيم الاجتماعى ويرجع ذلك دون ريب إلى تعاليم القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإلى سنة النبى الكريم ﷺ .

٣ - الفكرة التى قامت عليها الإمبراطورية الرومانية استغلال الشعوب المغلوبة لمصلحة روما والترفيه عن الأباطرة ، ولم ير الرومان فى بطشهم بالناس سوءا ولم يكن العدل الرومانى الذى يتغنون به إلا إنصاف الرومان وحدهم .

أما فى حالة الإمبراطورية الإسلامية فقد كان الهدف هو ضمان حرية الاختيار فى ظل المبدأ الإسلامى .

﴿ **لا إكراه فى الدين ..** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ولم يكن هناك استغلال من أجل الترفيه عن شعب آخر ، وإنما كان الشعار السائد [لكم ما لنا وعليكم ما علينا] .

والتاريخ الصادق شاهد على أمثلة عديدة لتأديب أمير المؤمنين للولاة الذين تحوم حولهم شبهة الكسب غير المشروع أو إيذاء غير المسلمين .

وكان المسلمون يتذكرون جيداً قول نبيهم ﷺ : « **من آذى ذميًا فأنا خصمه يوم القيامة** » .

(٢)

لاتزال المؤامرة على الإسلام

وبيت المقدس مستمرة

إن المؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية مؤامرة قديمة ترى علامتها الأولى فى موقعتى مؤتة وتبوك فى عهد الرسول ﷺ الذى صعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى وهو يعد جيش أسامة لغزو الروم وكان هذا إشارة إلى منطلق الخطر .

وقد امتدت المعارك بين الدول الإسلامية فى الشام وبين بيزنطة فترة طويلة ، كان فيها أهل طرابلس يعيشون فى لباس المرابطين المجاهدين الذى لا يغفلون عن الثغور لحظة من ليل أو نهار .

وعندما فتح المسلمون أفريقيا وامتد الإسلام إلى القيروان وطنجة أصبح البحر الأبيض المتوسط كله بمثابة خط دفاع قوى ، حيث أقيمت الرباطات ، وامتدت على طول الساحل فى أكثر من ألف موقع من طرابلس الشام إلى رباط الفتح إلى أسفى وما بعدها على المحيط الأطلسى ، وفيها رجال نذروا أنفسهم لله ، يرقبون كل حركة على الشاطئ المقابل ، حتى إذا وقعت النيران فى أعلاها تتصل فى الليلة الواحدة أو بعض ليلة وذلك فى مسافة تسير فيها القوافل نحواً من شهرين وفى كل محرس منها رجال اطلاع يكشفون البحر فلا تظهر فى البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا وعى بها كل من كان فى المحارس .

وظل الموقف يشتد ويلين على حدود الدولة الإسلامية مع الروم ، حتى جاء محمد الفاتح الذى استولى على القسطنطينية ،وغير تاريخ أوربا كلها بل غير تاريخ العالم كله .

قال عمرو بن العاص : بينما نحن عند رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل :

أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو روما ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : « **مدينة هرقل تفتح أولاً** » [يعنى القسطنطينية] .

* * *

ولكن الإسلام لم يُضْرب من جبهة الروم وحدها ، بل إنه ضرب من قوتين كبيرتين هما : التتار والصليبيون .

أما التتار فقد انطلقوا حتى دخلوا عاصمة الخلافة فى بغداد ٦٥٦ هـ وضربوها وتعاونوا

مع الصليبيين فى حلف غير مقدس لحصار الإسلام بين فكى كماشة .

ولكن المسلمين استطاعوا دحر قوة التتار فى عين جالوت حيث هزموا لأول مرة فى تاريخهم وارتدوا على أعقابهم ولما يمض على دخولهم بغداد أكثر من عامين ، وذلك بقيادة قائد المسلمين الظاهر بيبرس .

وامتدت الحروب الصليبية قرنين من الزمان وأبرزت كفاءات وبطولات إسلامية غيرت وجه التاريخ ، وكان مقدمة أبطالها عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين وبيبرس وقلاوون .

لقد أرسى نور الدين معالم العودة إلى منهج الله تبارك وتعالى ، فتكونت المدرسة الإسلامية التى وهبت نفسها للجهاد وباعت نفسها لله تبارك وتعالى ، فكتب لها النصر على يد صلاح الدين فى مواقع كثيرة وفى مقدمتها حطين ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) .

فتح عماد الدين زنكى الرها ، وأمضى نور الدين ثلاثين عاماً من الجهاد فى ميادين الموصل والشام ومصر ، وعندما انتقلت راية الجهاد إلى صلاح الدين عرفت أوربا كلها كيف تمثل الإسلام خلقا فى رجل محارب مؤمن بالله صادق الوعد ، حتى أحنى القادة الثلاثة للحرب الصليبية الثالثة هاماتهم تقديراً للرجل الذى أقبلوا ليقاتلوه .

وكانت موقعة (حطين) حاسمة فى وجه الصليبيين كما كانت معركة (عين جالوت) فى وجه التتار .

ولما قاد لويس التاسع الحملة الصليبية السابعة إلى مصر هزم هزيمة منكرة وسجن فى المنصورة حتى افتداه الفرنسيون حين أذنت سماحة الإسلام بإخراجه حيًّا دون قتله ، ولكن لويس غدر بالمسلمين بعد خروجه من مصر فقد ذهب إلى عكا وظل بها يحيك المؤامرات بين أفراد المسلمين للقضاء على وحدتهم وتفريق كلمتهم واتصل بالمغول لمفاوضتهم لتطويق العالم الإسلامى ، ولم يتوقف لويس عن المؤامرة حين قاد الحملة الصليبية إلى تونس بعد ذلك بسنوات حيث لقى مصرعه .

وانتهت الحروب الصليبية بعد قرنين بالهزيمة الكاملة للغرب الذى انسحب بينما كان يبيت غدراً بالمسلمين ، ويعد نفسه لجولات جديدة لولا قيام الدولة العثمانية .

* * *

الدولة العثمانية قذى فى عيون خصوم الإسلام

وكانت الدولة العثمانية منذ اليوم الأول قذى فى عيون خصوم الإسلام ، فقد حمت الوجود الإسلامى كله من الغرب إلى الشرق ، من مؤامرات الغرب بعد أن استطاعت أن تقتحم أوربا من البلقان وأن تصل إلى أسوار فيينا وأن تسيطر أكثر من ثلاثة قرون على قلب أوربا .

ومن ثم توالت المؤامرات على الدولة العثمانية بعد أن استطاع محمد الفاتح اقتحام القسطنطينية وتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى منارة إسلامية .

وقد كشفت الأبحاث أن مائة مشروع مؤامرة أعدتها أوربا وحاولت إنفاذها من أجل تمزيق الدولة العثمانية فى الفترة التى تلت ظهور هذه الدولة وتوسعها فى أوربا .

ولقد كان دخول العرب فى الدولة العثمانية ضرورة تاريخية من أجل حماية الوجود الإسلامى وكان برضاء العرب وتقديرهم لدور الدولة العثمانية والوقوف فى وجه الخطر الصليبى الذى صاحبه نهضة الإفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وبدأ عصر الكشف الاستعمارى ، وقد دخلت الجزائر باختيارها وكذلك أمراء لبنان وشريف مكة ، ولم يكن هذا عملاً استعمارياً كما حاول الغرب تصويره ، بل كان من أجل التآزر على درء الخطر عن العالم الإسلامى مما أخر احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون ، فقد بدأت المؤامرة الغربية مرة أخرى بعد سقوط الأندلس ، حيث اندفعت أسبانيا والبرتغال لمحاصرة العالم الإسلامى من ناحية أفريقيا والسيطرة على المغرب والجزائر ، ثم ورثتهما فرنسا وانجلترا ، بينما انطلقت بريطانيا للسيطرة على الهند وانطلقت هولندا للسيطرة على أرخبيل الملايو وأندونيسيا وذلك فى خطة ماكرة لمحاولة وضع الأمة الإسلامية بين فكى الكماشة مرة أخرى ، وجاءت المرحلة التالية تحمل نذرها الخطيرة التى ما زلنا نعيش فيها إلى اليوم .

فقد جرت المحاولات لتمزيق الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة الإسلامية ، وكان الغرب يعلم أن حضارته سوف تنهار يوماً ما كما انهارت الإمبراطورية الرومانية ، ومن هنا حاولت بريطانيا التى كانت لا تغيب عن مستعمراتها الشمس دراسة الوسائل والغايات التى تمكن الغرب من استمرار سيطرته ، وكانت خطة كامبل ينرمان سنة ١٩٠٧ التى قرر علماء التاريخ فيها ما يلى :

أولاً : أهمية السيطرة على البحر المتوسط لأنه الشريان الحيوى للاستعمار ، فهو الجسر

بين الشرق والغرب ، وملتقى المواصلات وطرقها فى العالم ، وأن من يسيطر على شواطئه الجنوبية والشرقية يستطيع التحكم فى العالم .

ثانياً : أكد التقرير أن الخطر على الاستعمار يكمن فى البحر المتوسط الواصل بين الشرق والغرب ، وفى حوضه حيث شهد نشوء كل الديانات والحضارات ، وأنه يسكن فى هذه المنطقة شعب واحد يتوافر له وحدة التاريخ واللغة والدين وكل مقومات التجمع والترابط ، هذا فضلاً عن ثرواته الطبيعية ونزعة أهله للتحرر ، فلو أخذت هذه المنطقة بكل الوسائل الحديثة وإمكانية الصناعة الأوربية وانتشر التعليم فيها فإنه ستحل الضربة القاضية حتماً بالإمبراطوريات الاستعمارية وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار الغربى ، فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار (تجزئة) هذه المنطقة ، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وأن تعمل على بقاء وضع هذه المنطقة المجزأة ، مع بقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل ، وهذا يستلزم فصل الجزء الأفريقى فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى .

وكإجراء سريع لدرء الخطر أوصى التقرير بضرورة إقامة حاجز بشرى قوى وغريب فى منطقة الجسر البرى الذى يربط آسيا وإفريقيا ويربطهما معاً بالبحر المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة .

والمعروف أن الاستعمار كان قد التقى فى هذه الفترة مع الصهيونية فى مخططات استعمارية وفرض النظم الربوية على البلاد التى احتلتها الدول الكبرى تمهيداً للخطة الجديدة .

تلك الخطة التى طبقت حين حاصرت الحملة الفرنسية مصر فى خطة للسيطرة على فلسطين والشام فى صراع مع بريطانيا على طريق الهند ، وكانت فرنسا قد سيطرت على لبنان ، وفتحت أبوابه أمام الإرساليات التبشيرية التى تركزت بعد فى القسطنطينية ومصر والشام .

ومضت الخطة إلى غايتها فى تمزيق الدولة العثمانية بعد أن تم التآمر على السلطان عبد الحميد الذى قاوم مؤامرة سيطرة اليهود على القدس فقد وقف السلطان عبد الحميد موقفاً مشرفاً حاسماً إزاء مؤامرة الصهيونية ورفض إغراء هرتزل له الذى عرض عليه خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية من أجل السماح لليهود بدخول القدس زائرين ومقيمين ، ووقف بصلابة فى وجه هذا الخطر ، وكان قد دعا إلى الوحدة الإسلامية الجامعة ، وسعى إليها فى

مرحلة ضعف الدولة العثمانية ، وظل صامداً حتى أطيح به ، وكانت الإطاحة بمثابة الخطوة الأولى نحو إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق الدولة العثمانية .

وكانت الماسونية والاتحاديون فى تركيا واليهود بمطامعهم فى فلسطين وراء سقوط السلطان ، وكان الاتحاديون قد مهدوا لإدخال الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى لتمزيقها وتوزيع أسلابها على الدولتين فرنسا وبريطانيا .

ومن أجل ذلك انعقد مؤتمر برلين الذى أنفذ هذه المؤامرة وفى نفس الوقت ظهر (وعد بلفور) الذى فتح فلسطين أمام اليهود فى مؤامرة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ما زالت تخطو منذ ١٩١٨ إلى اليوم تحت اسمين : من النيل إلى الفرات وإعادة بناء هيكل سليمان .

ويرى كثير من المؤرخين أن الحرب الصليبية التاسعة التى جاءت بعد أكثر من ثمانين عاماً من انتهاء الحرب الصليبية الثامنة كانت هى دخول بريطانيا إلى القدس عام ١٩١٧ وحين أعلن اللورد اللنبى : (الآن انتهت الحروب الصليبية) .

وعندما وقف غورو الفرنسى عند قبر صلاح الدين فى دمشق وقال (ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين) .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى مزقت الدولة العثمانية ، ووزعت أسلابها ، وأقيم فيها نظام علمانى يرفض الإسلام ، ويكتب من الشمال إلى اليمين ، بقيادة أتاتورك فى محاولة لإغراء المسلمين والعرب بهذا النظام الجديد ، ووقعت الأمة الإسلامية كلها فى قبضة النفوذ الاستعمارى وفتح الباب أمام تحقيق وصية (بيرمان كامبل) التى صدرت ١٩٠٧ بإقامة عنصر غريب فى المنطقة الفاصلة بين آسيا وإفريقيا .

ودخلت الأمة الإسلامية فى مرحلة الخطر حيث حاصرتها القوى الغربية والشيوعية والصهيونية جميعاً .

وكانت أولى خطوات العلمانية التركية إسقاط الخلافة الإسلامية تمهيداً لإقامة إسرائيل .

وكان إسقاط الخلافة الإسلامية هدفاً حيويًّا خطيراً فى نظر النفوذ الغربى حتى لا تقوم للمسلمين قائمة من بعد ، وهو هدف تآزرت عليه كل القوى غير الإسلامية لتحقيقه .

ويوم أن وقف (غلادستون) رئيس وزراء بريطانيا وقد أمسك المصحف الشريف بيده من فوق منبر مجلس العموم البريطانى وقال :

(مادام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلا أمل لنا فى إخضاع المسلمين بل نحن على خطر

منه فى وجودنا نفسه) .

يوم وقف هذا الموقف كان واضحاً للغرب ولأوربا وللنفوذ العالمى المسيحى واليهودى مدى الخطر الذى يحيط بالإسلام والمسلمين ، ومن هنا كانت يقظة الإسلام فى مواجهة الحملة الصليبية التاسعة عن طريق القرآن نفسه .

واليوم تجدنا وجهاً لوجه أمام المؤامرة .

لقد وقع حادث محاولات إحراق المسجد الأقصى (أغسطس ١٩٦٩) وتوالت المحاولات حتى جاء اليوم الذى حاول فيه بعض المتطرفين اليهود وضع حجر الأساس لهيكل سليمان فى قلب المسجد الأقصى، وذلك بالرغم من أن كل الدلائل تؤكد أن بنى إسرائيل لم يتركوا فى تاريخهم القديم أى أثر للهيكل الذى حرق مرتين : الأولى على يد بختنصر ملك الكلدان الذى هاجم أورشليم ٥٨٦ قبل الميلاد وكذلك الهيكل الذى حطمه الإمبراطور الرومانى « تيتوس » عام ٧٠ من الميلاد عندما أحرقت أورشليم (فلسطين) بسبب ثورة اليهود على حكم الرومان .

فلما ثاروا مرة أخرى فى عهد الإمبراطور أوريانوس عام ١٣٥ ميلادية دمرت أورشليم تماماً وأزيل الهيكل من أساسه وحرثت أرض المدينة حرثاً وأقيم مكان هيكل سليمان معبد وثنى باسم جوبيتر رب الأرباب عند الرومان .

ولما اعتنق الرومان المسيحية فى عهد قسطنطين فى القرن الرابع لم يكن لهيكل سليمان أى أثر ، وفى سنة ٦٣٦م فتح المسلمون فلسطين فأصبحت عربية لحماً ودماً ، أى عادت إليها عروبتها فقد كانت عربية منذ فجر التاريخ .

ولكن الصهيونية لا تعترف بحقائق التاريخ ، وتعمل على إقامة نموذج لهيكل سليمان ، ويزعمون أن الجدار الغربى للمسجد هو آخر ما بقى من هيكل سليمان القديم ، ويسمونه حائط المبكى وهى تسمية سياسية لم تكن معروفة من قبل وعد بلفور ودخول الإنجليز القدس عام ١٩١٧ ، وإنما يسميه المسلمون حائط البراق نسبة إلى البراق الشريف .

ولقد قامت لجنة محايدة عام ١٩٣٢ من قبل عصبة الأمم للفصل فى هذه القضية وأثبتت فى حكم صادر لها بانه لا حق مطلقاً لليهود فى هذه المنطقة وقد اشترك فى هذه القضية محمد على علوبة وأحمد زكى باشا شيخ العروبة ، ولكن المناورة لا تزال مستمرة .

والذى يعنينا اليوم أن نعرف وجه المقارنة بين الحروب الصليبية – هدف نصارى أوربا الذين أرسلوا سبع حملات صليبية – ومحاولة الاستفادة من تجربة المسلمين خلال معارك

حطين وغيرها . وعلى المسلمين أن يصمدوا فى وجه الخطر كما صمدوا إبان الحروب الصليبية وعليهم أن يستعينوا فى مقاومتهم بأسلوب القرآن وليس هنا طريق غيرطريق الجهاد وتعبئة القوى والصمود والصبر والمرابطة .

﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]

وسيظل المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين هو قلب القضية كلها كما كان فى الحروب الصليبية هدف نصارى أوربا الذين أرسلوا سبع حملات صليبية واحتشدوا خلال قرنين كاملين من الزمان فى سبيل السيطرة عليه ، ثم كانت الجولة الثانية التى يقودها اليهود تحت اسم إعادة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى والذى كان رمز الماسونية خلال أكثر من ثلاثمائة عام ، وسوف يقدم المسلمون فى سبيل الأقصى دماءهم رخيصة ولن يتحقق لإسرائيل هذا المطمع مهما احتشدت له القوى الغادرة .

* * *

(٣)

قضايا مطروحة من وجهة نظر الإسلام

«شبهات تاريخية»

هناك دعاوى مثارة فى محاولة لأن تكون من المسَّلمات بالترديد المتصل مستشرقاً عن مستشرق ثم يتولاها متغرب أو شعوبى .

ومن ذلك دعوى أن الشام ومصر والمغرب كانت جزءا من العالم المسيحى وجاء الإسلام فأخرجهم منه ، وهذا القول ليس له أى سند من الصحة التاريخية ، ذلك أن الوجود الرومانى فى هذه المناطق كان وجوداً دخيلاً ، وكان احتلالاً عارضاً جاء بعد موجات متعددة خرجت من الجزيرة العربية ، وانداحت فى هذه المناطق موجة بعد موجة خلال عشرات الآلاف من السنين ، هذه الموجات التى تركزت واستقبلت أهلها الذين جاءوا بعد الفتح الإسلامى، فالوجود الرومانى فى هذه المناطق كان احتلالاً ، وكان احتلالاً ظالماً سرعان ما تكشف بقدوم التوسع الإسلامى الذى أزال الظلم ولم يفرض عقيدته ، وإنما اكتفى بإقامة العدل الذى دفع أهالى تلك الأقطار إلى الدخول فى دين الله أفواجاً ، إيماناً بما حققه من عدل وما قدمه من مفهوم التوحيد الخالص ، وهذا سر ترحيب أهل هذه المناطق بالفتح الإسلامى وتعاونها فى إتمام هذا الانحسار، فلا يجوز اعتبار هذه المناطق منتزعة من العالم

المسيحى ، ولا يسمح هذا لكُتَّاب متعصبين أن يقولوا : على الهلال أن يرد ما أخذه من الصليب ؛ إذ الحقيقة أن الهلال لم يأخذ وأن الصليب هو الغاصب ، وأن موجات سبقت خمسة آلاف سنة أو أكثر سابقة للفتح الإسلامى التقت بموجات جديدة : الأولى وسدت للإسلام وجاء المسلمون الفاتحون ليلقوا المقيمين من ذوى القربى والنسب .

كذلك فإنه من أخطاء التزييف التاريخى الادعاء بأن مؤامرات القرامطة أو الزنج هى بمثابة حركات إصلاح أو تغيير حقيقيةبقدر ما كانت انحرافات عن العقيدة الإسلامية وخروجاً على مبادئها وأخلاقها ، واستباحة لجميع المحرمات نكاية فى الإسلام وأهله .. بل كانت حقداً جليًا من عصابات ومتعصبين على الإسلام والعرب الذين أصبحوا يملكون بالإسلام أعظم حضارة فى التاريخ وقد أصبحوا الشعب المعلم ، كذلك فإن التغريبيين الذين يعلون من شأن هذه المؤامرات ويعطونها صفة الثورات والحركات التى تدعو إلى العدل إنما يأتمرون مع الأهواء فى سبيل إفساد حقائق التاريخ ، فهم يمتدحون كل الخارجين على الإسلام ولو كانوا قطاع طرق أو لصوصاً أو قتلة ، ولا شك أن ما فعله القرامطة والزنج من أمور أساءت إلى الإسلام إساءات بالغة فهم لم يثوروا على العرب لتصحيح مسيرتهم الإسلامية ، وإنما ثاروا من أجل ضرب الإسلام ككل ، وكان الأولى أن ينادوا بتطبيق الإسلام ، ولكنهم حاولوا إفساد العقيدة الإسلامية بالدس عليها ، واستخدموا الأساطير والخرافات ، وكانوا ينكرون أصول الإسلام : ومنها البعث والجزاء والثواب والعقاب .

أنور الجندى

* * *

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٣٥٥ / ٢٠٠٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١